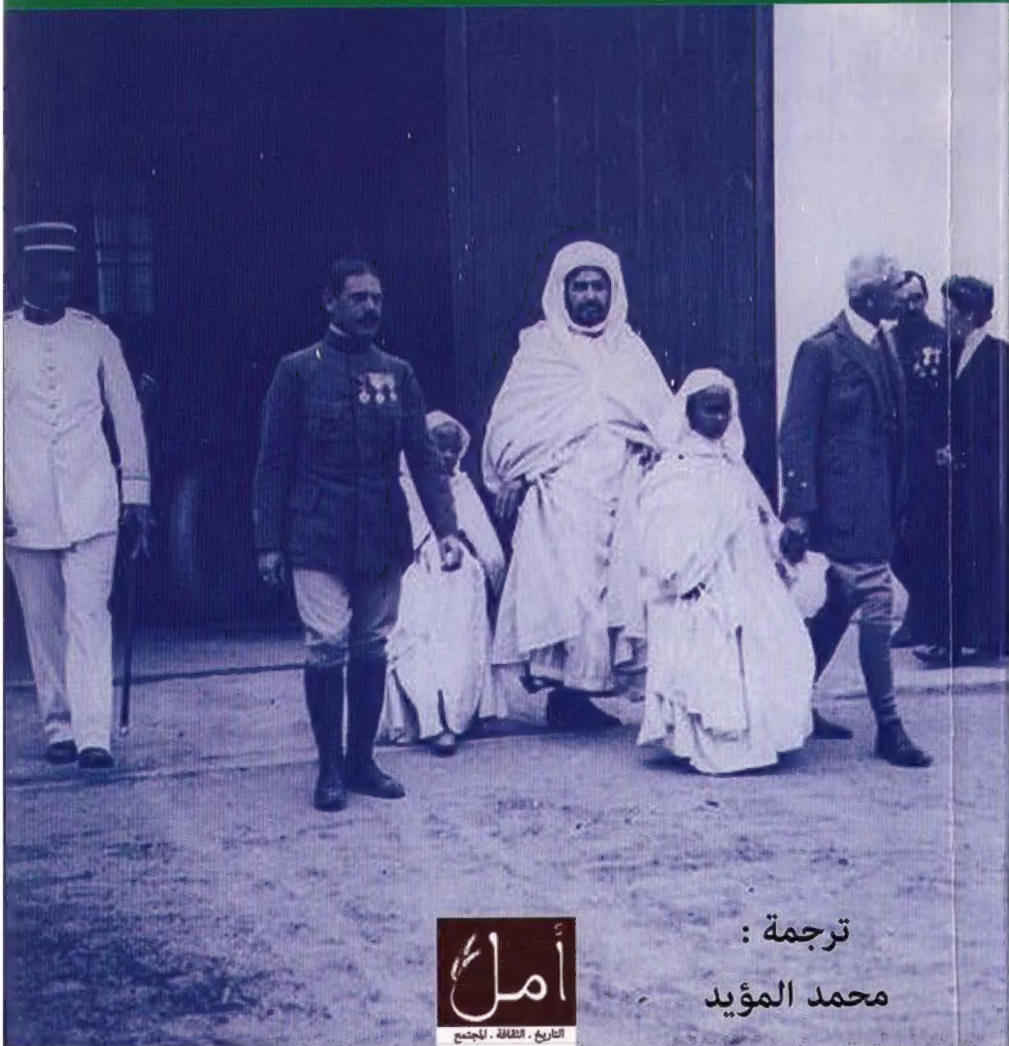


جورج سبيلمان

المغرب

من الحماية إلى الاستقلال
1912 - 1956



ترجمة :

محمد المؤيد



GEORGES SPILLMANN

DU PROTECTORAT A L'INDÉPENDANCE

MAROC
(1912 - 1955)



PLON



جورج سيلمان

المغرب

من الحماية إلى الاستقلال
1956 - 1912



ترجمة :
محمد المؤيد

جورج سبيلمان

المغرب من الحماية إلى الاستقلال

1956 - 1912

ترجمة: محمد المؤيد

2014

منشورات أمل

التاريخ، الثقافة، المجتمع.

نشر هذا الكتاب بدعم من :

وزارة الثقافة



الكتاب : المغرب من الحماية إلى الاستقلال

المؤلف : جورج سيلمان

ترجمة : محمد المؤيد

الطبعة : الأولى

السنة : 2014

تصنيف : ليلي غلواني

تقديم : محمد معروف الدفالي

الغلاف : عبد الرحيم التوراني

الناشر : مجلة أمل، التاريخ، الثقافة والمجتمع

التوزيع : سبريس

الإيداع القانوني: 2014 MO 2786

ردمك : 4 - 141 - 34 - 9954 - 978

مطابع الرباط نت



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 6/3 - Rabat
06 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com

فهرس الكتاب

9	لائحة المقيمين العالمين
11	تقديم الكتاب
17	مقدمة
19	القسم الأول: ميلاد دولة عصرية
21	الفصل الأول: منجزات الماريشاليوطي 1912 - 1925
22	الماريشل ليوطي (1912 - 1925)
23	ليوطي يكتشف مفهوم الحماية
24	تنويه السلطان علانية بالماريشال (1931)
26	التشبيث بالتواصل مع الساكنة المغربية
28	الرؤية الواضحة لدى ليوطي
30	احترام سيادة السلطان
31	تصور ليوطي لمستقبل الحماية
32	ليوطي والشبيبة المغربية
34	مشكل منافذ الشغل بالنسبة للشباب
37	ليوطي وتركيا الكمالية
38	ليوطي والقضية الريفية، عبد الكريم
42	ليوطي المدير ورجل الاقتصاد
45	الفصل الثاني: تيودور سطيگ، خلف ليوطي (1925 - 1929)
45	تيودور سطيگ ثاني مقيم عام للمغرب مميزات وتصوراته
46	سطيگ والعمليات العسكرية، نهاية حرب الريف بالانتصار
49	السيد سطيگ بطل الاستيطان الفرنسي بالمغرب
50	سطيگ ومجلس شورى الحكومة

51	فقدان التواصل مع المغاربة
52	نشأة الحركة الوطنية
55	الفصل الثالث: السيد لوسيان سان والحركة الوطنية الفتية
55	السيد لوسيان سان ثالث مقيم عام (1929 - 1933)
56	استئناف عمليات التهدئة
57	قضية الظهير البربري (16 ماي 1930)
61	ميلاد الحركة الوطنية وتطورها
63	الدعم الخارجي للحركة الوطنية
66	الاقتصاد المغربي في تحليل السيد إيريك لابون
67	الفصل الرابع: هنري بونصو والعودة إلى مفهوم الحماية
67	النظرة السياسية لهنري بونصو رابع مقيم عام (1933 - 1936)
69	تحول الحركة الوطنية إلى حزب سياسي له صحافته ونشاطه
71	حوادث فاس (ماي 1934)
72	مدعمو الحركة الوطنية المغربية
73	برنامج الإصلاحات المغربية
75	انحراف الشبيبة المغربية
79	تحليل المستويات الرئيسية لبرنامج الإصلاحات المغربية
83	الفصل الخامس: مارسيل بيروطون، مقيم عام لفترة سنة أشهر فقط
85	الفصل السادس: نجاح مهمة الجنرال نوجيس (1936 - 1943)
85	الجنرال نوجيس طبيعته مميزاته
86	مضاعفة الوطنيين لنشاطهم
89	حوادث النصف الثاني من سنة 1937
91	العمل البناء للجنرال نوجيس
96	المغرب وحرب 1939-1945
98	مشاكل الجنرال نوجيس مع الفيلق الفرنسي للمحاربين

100.....	النزول الأمريكي(8نوفمبر 1942) وسائس الرئيس روزفلت
104.....	ذهاب الجنرال نوجيس
109.....	القسم الثاني: الحوار المستحيل
111.....	الفصل السابع السيد غابريال بيو والمهمة الصعبة (1943-1946).....
111	تعيين السيد بيو (يونيو 1943)
112	استعدادات الوطنيين
114	عريضة المطالبة بالاستقلال (11 يناير 1944)
115	الاضطرابات الخطيرة ورد الفعل الفرنسي
117.....	شجب السلطان للمطالبة بالاستقلال
118	اعتقال بلافريج
118.....	اضطرابات ومظاهرات (29 يناير - 8 فبراير 1944)
122	سفر رسمي للسلطان إلى فرنسا (يونيو 1945)
123.....	تموقف سياسي للسلطان
127.....	الفصل الثامن: إيريك لابون و«انقلاب طنجة» (1946 - 1947)
127.....	أفكار إيريك لابون، ثامن مقيم عام بالمغرب
128.....	محاولات التقارب مع الفرنسيين وفشلها
131	الوضعية الصعبة للسلطان
131.....	سفر طنجة المفجع (أبريل 1947)
135.....	مخلفات أحداث طنجة
137	الفصل التاسع: اللحظات الصعبة للجنرال جوان (1947 - 1951)
137.....	التعليمات التي حملها الجنرال جوان ومشروعه الليبرالي
139.....	انطباعات متجول وحيد في أواخر 1947
141	عودة التوتر السياسي، مسألة المنشور المناوئ للسلطان
142	دخول الوطنيين مجلس شورى الحكومة
143.....	رسالة فاتح ماي من الجنرال جوان إلى الشؤون الخارجية

147	زيارة السلطان الرسمية لفرنسا (أكتوبر 1950)
148	حوادث مجلس شورى الحكومة (نجنبر 1950)
149	ميلاد حركة للمعارضة والإصلاح (بداية 1951)
151	الحركة الوطنية والشبيبة العصرية
152	مشكل الشباب: التكوين والتشغل
154	مغادرة الجنرال جوان للمغرب (يوليوز 1951)
155	الفصل العاشر: انقلاب غشت 1953
155	الجنرال غيوم، عاشر مقيم عام
158	حوادث الدار البيضاء الدامية
161	نشاط حركة المعارضة والإصلاح
165	عزل سيدي محمد ونفيه
167	ترحيل السلطان إلى المنفى (غشت 1953)
169	القسم الثالث: في اتجاه الاستقلال
	الفصل الحادي عشر: تطهير - مقاومة - تهديد
171	(غشت 1953 - أبريل 1955)
171	تصفية الحسابات بعد الانقلاب
172	تسلط مجلس الوزراء والمديرين
172	ظهور الإرهاب
176	تحريضات رجال الأعمال والنقابيين الأمريكيين
180	الأعراض الأولى لتصدع "الكتلة البربرية"
	الفصل الثاني عشر: لاشعبية السلطان الجديد، مشروع إنشاء مجلس العرش
187	(مارس 1955 - يونيو 1955)
187	محادثات باريس مع البكاي وشخصيات من المغرب
192	استقبال وفد من حزب الشورى والاستقلال
194	مذكرة صالح رشيد

195	تكون مجلس حفظة العرش
198	شلال العناصر التقليدية
199	شلال الفرنسيين بالمغرب وأوهامهم
200	الظروف الوطنية والدولية سنة 1955
205	الفصل الثالث عشر: المرور القصير لكراندفال ومؤتمر إيكس لبيان
205	السيد كرانندفال المقيم العام الثاني عشر (يونيو 1955)
209	تقلد السيد كرانندفال لمهامه والتعليمات التي تلقاها
210	برنامج كرانندفال
211	مناظرات إيكس لبيان (غشت 1955)
212	الهيجان يطال القرى، اضطرابات خفيفة
214	مدابح تادلة
216	مراسيم دفن الجنرال دوقال
219	معارضة باشا مراكش لإنشاء مجلس العرش
	الفصل الرابع عشر: عودة سيدي محمد إلى العرش واسترجاع الاستقلال
225	(سبتمبر 1955 - نونبر 1955)
225	استقالة السيد كرانندفال وتعويضه بالجنرال دو لاتور في الرباط
225	مهمة الجنرال كاترو بمدغشقر
226	رفض الجنرال الكتاني عضوية مجلس العرش
229	الحالة المعنوية للضباط المغاربة
229	دور النساء المغربيات في الحركة الوطنية
	تأسيس مجلس العرش ومطالبة باشا مراكش بالعودة السريعة
232	للسلطان المنفي
	تصريح لاسيل سان كلو (6 نونبر) وحصول المغرب على استقلاله الكامل
233	دون شروط

لائحة أسماء المقيمين العامين لفرنسا بالمغرب

- 1- الماريشال ليوطي (أبريل 1912 - أكتوبر 1925)
- 2- السيد تيودور سطيغ، (أكتوبر 1925 - يناير 1929)
- 3- السيد لوسيان سان (يناير 1929 - غشت 1933)
- 4- السيد هنري پونصو (غشت 1933 - مارس 1936)
- 5- السيد مارسيل بيروطون (مارس 1936 - شتنبر 1936)
- 6 - الجنيرال شارل نوغييس (شتنبر 1936 - يونيو 1943)
- 7- السيد غابرييل پيو (يونيو 1943 - مارس 1946)
- 8- السيد إيريك لابون (مارس 1946 - ماي 1947)
- 9- الجنيرال ألفونس جوان (ماي 1947 - يوليوز 1951)
- 10- الجنيرال أوغستان كيوم (يوليوز 1951 - يونيو 1954)
- 11- السيد فرانسيس لاكوسط (يونيو 1954 - يونيو 1955)
- 12- السيد جليبير گراندقال (يونيو 1955 - غشت 1955)
- 13- الجنيرال پيير بوايي دو لاتور ديمولان (غشت 1955 -
نونبر 1955)
- 14 - السيد أندري ديبوا (نونبر 1955- 1956) .

تقديم

جورج سبيلمان في بحر السوسيولوجيا الكولونيالية

يسعد مجلة أمل، للتاريخ والثقافة والمجتمع، أن تقدم للقراء ترجمة لكتاب الضابط الفرنسي جورج سبيلمان المغرب من الحماية إلى الاستقلال 1912 - 1956، الذي صدر باللغة الفرنسية عن Librairie Plon بباريس سنة 1967 تحت عنوان Du Protectorat à l'indépendance Maroc 1912 - 1956. وقد تحكّم في اختيار هذا الكتاب من أجل الترجمة ثلاثة عوامل، أولها اعتقادنا في أهمية هذا المؤلف / الشهادة وما يحمله من معلومات وآراء، وثانيها ما يمكن أن يساهم به هذا الاقتراح في سد بعض الثغرات بالنسبة للباحثين الذين أظهروا انفتاحا على البحث في فترة الحماية خلال السنوات الأخيرة، أما ثالثها فيتمثل في نفاذ هذا الكتاب من الأسواق منذ عقود خلت، وعدم توفره حتى في بعض المكتبات العمومية التي يتردد عليها الباحثون والمهتمون. وبالإضافة إلى هذه العوامل التي بدت لنا موضوعية، هناك عامل ذاتي يهم الباحثين وغيرهم، يتمثل في ضرورة التأسيس لتوجه في البحث يقف على نفس المسافة بين النزعة الوطنية في كتابة التاريخ وبين النزعة الاستعمارية قصد الوصول إلى خلاصات متحررة من مختلف الإيديولوجيات وقادرة على فهم نسبي واضح لسيرورة مرحلة الحماية وما أحاط بها، والمساهمة في تيسير فهم مرحلة بداية الاستقلال وموروث الحماية الذي كان له الأثر في توجيه مسارها عن وعي أو عن غير وعي. فطالما اعتمدنا كتابات الوطنيين الذين اجتهدوا في تصوير الاستعمار مجرد معتد أثيم، وطالما عززنا ما أخذناه عنهم بكتابات أجانِب متعاطفين مع الحركة الوطنية، وطالما تأففنا من كتابات استعماريين رأوا أن المغرب كان في عداد العدم إلى أن جاء الاستعمار الذي حوله إلى كائن بفضل مختلف المنجزات التي ما كان للمغاربة أن يروها حتى في المنام. ولاشك أن الوقت قد حان من أجل إعادة النظر في كتابات ربما كانت منسجمة، إلى حد ما، مع اللحظات التي كتبت فيها .

ينتمي الكتاب، الذي نقدمه للقراء، إلى حقل السوسيولوجية الكولونيالية، بما يعنيه ذلك من تورط المؤلف ومساهمته، فكريا وعملا،

في برامج الهيمنة الفرنسية وتقديم اجتهادات عدة توخت المساهمة في العثور على المفاتيح التي تفتح باب السيطرة على مصراعيه. فجورج سبيلمان هو أحد الرموز الفرنسية المساهمة في وضع سوسولوجيا التوسع العسكري الفرنسي بالمغرب، وأحد الرموز التي لم يتم الاستغناء عن استشارتها، أثناء الأزمات والملمات، من قبل الإقامة العامة ومن قبل الحكومات الفرنسية المتعاقبة، حتى بعد أن غادر المغرب سنة 1948.

لقد تميز الأرشيف الكولونيالي الفرنسي حول المغرب بإنتاجه الفكري الغزير ويتنوع المؤسسات التي كانت وراء ذلك الإنتاج من استشرق وإثنولوجيا وسوسولوجيا وجغرافية وتاريخ ... كان لضباط الشؤون الأهلية فيها نوعا من اليد الطولى بحكم مكانتهم كأفضل مزود بالمعلومات وأهم متتبع لأثر السياسة الأهلية في الأوساط المستهدفة. ويعتبر جورج سبيلمان، الذي ارتبط اسمه بنظام الحماية مدة خمس وثلاثين سنة (1920-1955)، أحد عناصر مدرسة ليوطي للشؤون الأهلية، التي يعتبر جاك بيرك وروبير مونطاني وروجي لوطورنو ... من أبرز رموزها. ولد سنة 1899 بمدينة استراسبورگ، وتلقى تعليمه العسكري بمدرسة سانسير العسكرية ومنها تخرج ضابطا. انتقل إلى المغرب سنة 1920 وبه قضى أهم سنوات حياته كضابط، حيث التحق بصفوف ضباط الشؤون الأهلية بمنطقة مراكش وترقى في عدة مناصب، من ضابط في مصلحة الاستعلامات إلى ملحق بالقسم السياسي للإقامة، وبين شهر يناير وشهر أكتوبر 1925 كان يصحب "مارك" مستشار الحكومة الشريفة والمعمري إلى القصر السلطاني كل أسبوع ليقدم للسلطان عرضا حول أوضاع مختلف الجهات ويخبره عن أحداث الأسبوع وعن نوايا القيادة. ولما أبعد عن الرباط من قبل الجنرال موجان بدعوى الوقاحة وعدم الاحترام، أصبح رئيسا لمكتب شؤون الأهالي بتلوات سنة 1927، وفي سنة 1929 عاد إلى القسم السياسي بالإقامة العامة، ثم أصبح رئيسا لهذا القسم بين سنة 1933 وسنة 1940. وفي أكتوبر 1940 أصبح كاتباً عاما لجهة مكناس تحت تسمية مراقب شؤون الأهالي، قبل أن يعود سنة 1942 لمنصب قائد طابور، وفي سنة 1944 كان في ديوان الجنرال كاترو بالجزائر إلى جانب روبري مونطاني. ولما عاد سبيلمان من فرنسا إلى المغرب سنة 1947 صحبة الكتبية الأولى للقناصة المغاربة، أصبح قائدا لحامية بور ليوطي [القنيطرة]، إلا أنه غادر

المغرب بشكل نهائي أوائل يناير 1948، عندما عين بباريس بمركز قيادة لاطر دي طاسيني.

وخلال مقامه بالمغرب تعلم جورج سبيلمان اللغة العربية واللغة الأمازيغية، واكتسب صداقة العديد من الأسماء اللمعة في ميدان السوسيوولوجيا الكولونيالية الذين كان لهم اهتمام بالتاريخ والسوسيوولوجيا والدراسات الإسلامية، والذين ربط معهم صداقات متميزة من قبيل ميشوبلير الذي عاش في المغرب مدة طويلة، والذي كانت له معرفة قوية بالناس والأشياء ومعرفة بالماضي وتقاليد المغاربة، ومن قبيل روبير مونطاني وليفى بروفنصال وأندري باصي و ج. س. كولان وهنري طيراس وروبير ريكار. وبالإضافة إلى ذلك أصبحت له معرفة دقيقة بكل المقيمين العامين بالمغرب، كما نسج علاقات مع مختلف الأوساط المغربية القريبة من القصر أو من البرجوازية أو من الوطنيين البارزين.

وكان لجورج سبيلمان اطلاع واسع على تاريخ المغرب، درس أمهات المؤلفات المغربية وكتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا المغرب وكتبوا حوله، كما كان مهووسا بالحوار مع كبار السن من الأهالي. ومن كل اطلاعاته أصبحت له معرفة قوية بقبائل المغرب وتاريخها، وكان يفخر بكونه عرف عددا من رموز المغرب بحقيقة أصولهم القبلية. له العديد من الدراسات التي تم استغلالها في تكوين ضباط الشؤون الأهلية، وترك عددا من المؤلفات المنشورة من بينها، إلى جانب الكتاب الذي نقدم :

- Les pays inaccessibles du Haut Draa (en collaboration avec le capitaine P. Pennes) dans «Revue de Geographie marocaine», 1929, pp1-67, cartes et photographies h.t.
- Districts et tribus de la haute vallee du Draa, dans «villes et tribus du Maroc». Vol. IX, tribus berberes, T. II, in 8°, Paris, Ed Honore Champion, 1931.
- Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Draa. dans « Publication de l Institut des Hautes Etudes Marocaies».T. XXIX,in 8°, Rabat. Felix Moncho, 1936.
- La Zaouia de Tamgrout et les Nasiriyne, dans «L'Afrique française. Renseignements coloniaux», sept. 1938.
- L' Afrique du Nord et la France, in 8°, Paris. Ed. Bourciac, 1947.

Sous le pseudonyme de Georges DRAGUE :

- Esquisse d'Histoire Religieuse du Maroc – Confréries et Zaoias dans «Cahiers de l'Afrique et l'Asie ». Paris. Peironnet et C, 1951
- Souvenirs d'un colonialiste, Presse de La Cité, 1968.

ينتمي المؤلف، كما أسلفنا، إلى مدرسة ليوطي، إذ لا يخفي إعجابه القوي بهذا المقيم العام وبأفكاره وأرائه حول مفهوم الحماية، كما يؤرخ لانحراف نظام الحماية بنهاية مدة إقامته ومجيء خلفاء لم يحافظوا على نفس النهج والخط، لم يستثن منهم سوى المقيم العام نوجيس والمقيم العام إيريك لابون. واقتناعا بتوجهات هذه المدرسة لم يؤمن سبيلمان بسياسة القوة واعتمادها في الحفاظ على النظام والأمن، فناهض أسلوب الإدارة المباشرة التي اعتبرها أكبر خطأ يتسم به الإنسان الفرنسي المعاصر، كما ناهض الاحتلال المبني على جلب عائلات المعمارين من فرنسا والمغالاة في استعمار الأرض واحتكار مناصب الشغل وما شابه ذلك مما يتسبب في إصابة المغاربة بالإحباط. وبخصوص السياسة العامة لفرنسا بالمغرب لاحظ أنها اتسمت بعدم الاستقرار وبالعجز عن مراقبة الأحداث وبهيمنة المعمارين لدرجة لم يبق معها كلام باريس مسموعا. وفي هذا السياق لم يكن المؤلف متفقا على السياسة المتبعة منذ بداية الثلاثينيات، فرفض فكرة تسميح المغاربة واعتبرها طرعا طوباويا مخالفا للالتزامات فرنسا وانتقد تراجع التواصل مع العرش ومع الأعيان، كما انتقد صدور الظهير البربري وانتقد عجز فرنسا عن تقديم بديل عن مطلب الاستقلال الذي طرحته الحركة الوطنية المغربية ... ولم تكن انتقاداته لانحرافات سياسة الحماية والأخطاء المرتكبة لتجعله خارج دائرة المادحين لمنجزات فرنسا بالمغرب ودائرة المفتخرين بها، فقد قامت فرنسا - حسب رأيه - بواجباتها أحسن قيام. فهي التي وحدت المغرب وهي التي وفرت له مختلف البنيات التحتية وجهازه أحسن تجهيز، ومجهوداتها هي التي كانت وراء بزوغ رجالاب مغربية وطنية من طينة جيدة. ورغم أن جورج سبيلمان كان مقتنعا باستحالة دوام اتفاقية من الاتفاقيات إلى ما لانهاية، ومقتنعا، على غرار أستاذه ليوطي، بتوقف العمل بمعاهدة الحماية في يوم من الأيام، فإنه لم يكن مع استقلال منتزع وإنما مع انتقال السلط إلى المغاربة عبر إصلاح تدريجي يحافظ للطرفين على علاقة مستمرة ومتميزة. ولهذا لم يكن مرتاحا لحركات المعارضة والوطنية والمقاومة، ومثلما حمل أخطاء نظام الحماية مسؤولية مآل العلاقة بين الطرفين، حمل الوطنيين، كذلك، جزءا من تلك المسؤولية. وإذا كان قد وصف مقاومي الأطلس بأنهم أقوياء رغم

قلة عتادهم، فإنه لم يستطع كبح جماح حقده إزاء محمد بن عبد الكريم الخطابي، إذ وصفه بالمتنرد والروكي وصاحب تطلعات غير مقبولة وطامع في الاستيلاء على السلطة والعرش مثل الكثير من أمثاله على مدى تاريخ المغرب، كما وصف "الإمارة الريفية" بكونها "عماق رجلاه من طين". ومثل أستاذة ليوطي كان منشغلا منذ العشرينيات بحركة شباب المدن، وحرص لما قوي عودهم على الاتصال بهم كممثل للسلطة الفرنسية واستمر طيلة تاريخ الحماية يستقبل وفودا عن أحزابهم السياسية، ومن تلك اللقاءات كون فكرة عن شباب الحركة الوطنية بدوا له فيها متشددين ومتعصبين لأنهم وسريعي الغضب، ومن طينة مئوس من نسج علاقات معها، إلا أنه ورغم هذا الموقف كان سبيلمان مؤمنا بتجديد الاتصال بزعماء الحركة الوطنية ويعتبر حل أحزابها، الذي أقدمت عليه سلطات الإقامة أكثر من مرة، نوعا من الأمور الواهية، كما كان ضد التعامل مع الوطنيين بشكل يفوق حجمهم الحقيقي، فلم يكن متفقا مع عقد لقاءات إيكس لبيان، وحذر من السماح للوطنيين بزيارة محمد بن يوسف في منفاه بعد تلك اللقاءات. وشيئا من موقفه من الحركة الوطنية وصف سبيلمان خلايا المقاومة بأنها خلايا إرهابية تقود حركة عصيان وتمرد، ووصف المقاومين بأنهم شرذمة من المشاعيين الحازمين الذين تمكنوا من زعزعة النظام، كما وصف عمليات المقاومة بأنها مجرد جرائم وقحة. ولم يكن وصفه لحركة جيش التحرير أحسن حالا، إذ وصف رجال الحركة بأنهم عصابات جيش التحرير.

أما موقفه من المخزن ورجاله فكان لا يختلف عن موقف ليوطي الذي كان يصف نفسه بأنه أول خدام القصر، لهذا وصف المولى يوسف بالرجل الحكيم والعامل، ووصف محمد بن يوسف بالسلطان الشاب الذي تطور مع الأحداث ومع تعاقب المقيمين العامين، ولم يعب عليه سوى تحالفه مع الحركة الوطنية وانحيازاه لمطلب الاستقلال ومواقفه أثناء سفر طنجة. فقد وصف سبيلمان رحلة طنجة بالسفر المفجع، وبخدعة طنجة التي زعزعت الثقة بين الإقامة العامة وبين القصر، وبانقلاب طنجة الذي حمل في طياته الانقلاب الذي حصل ضد السلطان سنة 1953. وبخصوص الانقلاب ضد السلطان سنة 1953، يلاحظ أنه ورغم وصف سبيلمان له بالانقلاب الناجح، فإنه كان معارضا لفكرة الانقلاب ومعارضاً لنفي السلطان، كما كان من ضمن الذين نادوا بضرورة حل

أزمة العرش أواسط الخمسينيات حلا حقيقيا، وهو ما جعله غير مؤمن بفكرة مجلس حفظة العرش، كما جعله يتراجع عن فكرة الاحتفاظ بالسلطان محمد بن عرفة وينحاز لفكرة إرجاع السلطان محمد بن يوسف.

وفي نهاية عهد الحماية أبدى سبيلمان عدم قناعته بالطريقة التي حصل بها المغرب على الاستقلال ووصف تلك الطريقة بالعشوائية، فلم يتحدث عن دور معين للحركة الوطنية والمقاومة المسلحة في الحصول عليه، ولا عن رغبة لفرنسا في ذلك، وإنما اعتبر أن الأحداث هي التي قادت نحو الاستقلال. وفي هذا السياق يعتبر مؤتمر أنفا منعطفاً سرع من وتيرة سير المغرب نحو وضع حد للعمل بمعاهدة الحماية، محملاً مسؤولية ما ساءم للتعجيل العشوائي بذلك الاستقلال للولايات المتحدة الأمريكية وللجامعة العربية، حيث يرى أن تدخلاتهما وضغوطاتهما هي التي عصفت بالعلاقات الفرنسية - المغربية وجعلت كل حوار بين الطرفين مستحيلاً.

وفي الختام نشير إلى أن جورج سبيلمان يعتبر كتابه هذا مجرد شهادة أدلى بها للإفادة والمقارنة وشرح الوقائع التي عايشها مباشرة، مقتنعا بأن كتابة تاريخ الحماية، وقت تأليفه كتابه، [أواسط ستينيات القرن العشرين] لم يحن بعد. لقد حاول، كما قال، سرد ما يعرفه عن الحقبة من وجهة نظر كل الأطراف، مستعينا في سرد ذكرياته الشخصية ببعض الوثائق القليلة، متحاشيا في ذلك استعمال النصوص السرية والمصادر الرسمية التي اطلع عليها خلال المهام التي تقلدها.

وعلى العموم فقراءة مثل هذا الكتاب تتطلب طريقة بعيدة عن ثنائية الخير والشر وتحررا نسييا من الإغراق في الإيديولوجيات لمحاولة فهم طبيعة المصالح التي أفرزت الآراء والمواقف. إن المؤلف يقول بأن ما جاء في كتابه مبني على الصدق وحسن النية وأن هدفه هو المساهمة في خلق تقارب جديد بين فرنسا والمغرب وبناء صداقة خالية من الخلفيات ومتحررة من العقد ومن الضغينة والحقد، إن المستقبل هو الذي يهمه ولذلك طلب من المغاربة بشكل غير مباشر أن يقرأوا تاريخ الحماية قراءة موضوعية.

محمد معروف الدفالي

مقدمة

تتوزع الكتب التي تناولت تاريخ المغرب من سنة 1912 إلى أيامنا هذه (أواسط ستينيات القرن العشرين)، عموماً، بين صنفين هما :

- صنف يهتم بالإطراء على ما حققته فرنسا من إنجازات في المغرب، وينتقد الوطنيين المغاربة؛

- وصنف مناقض للأول، يقدر في المنجزات الفرنسية، ويطري مقابل ذلك السلطان سيدي محمد باعتباره «ضحية الاستعمار، والوطني الأول في بلده».

وكلها، من هذه الجهة أو تلك، مجرد مجموعة من الكليشيهات البسيطة والمنحازة، والتي أصبحت الآن متجاوزة لأن المغرب أصبح دولة مستقلة. لقد ولى زمن الجدل والمماحكة، وحلت محله الحاجة للفحص الموضوعي للوقائع قصد استخلاص العبر والدروس.

فمن هذا الباب، ونظراً لأن اسمي اقترن بنظام الحماية اقترانا قوياً، خلال الفترة المتراوحة ما بين 1920 و1955، ونظراً، كذلك، لمعرفتي الدقيقة بكل المقيمين العامين لفرنسا بالرباط، ونظراً لقربي ولعلاقاتي بالأوساط المغربية، سواء منها القريبة من القصر أو من البرجوازية أو من الوطنيين البارزين، حاولت سرد كل ما أعرفه عن هذه الحقبة الحاسمة، أخذاً بعين الاعتبار وجهة نظر كل الأطراف، وبما أن موعد كتابة تاريخ الحماية الفرنسية لم يحن بعد، أردت أن أدلي بمجرد شهادة لأفيد وأقارن وأشرح الوقائع التي عاينتها مباشرة.

وإذا غضضت الطرف عن التفاصيل التقنية والإحصائيات الدقيقة، فما ذلك إلا من أجل تسليط الضوء على الجوانب السياسية والسيكولوجية والاجتماعية فيما يخص المسألة الفرنسية - المغربية.

لقد اعتمدت أحيانا الاستشهادات ولربما جاءت هذه الاستشهادات طويلة، ألم يكن من الأفضل إعطاء الكلمة للماريشال ليوطي نفسه - خصوصاً وأن الوصول إلى كتاباته مازال بعيداً عن متناول الجميع - عوض أن أحاول شرح سياسته وآرائه وآماله؟

ألم يكن من الأفيد كذلك فسح المجال لابن روزفيلت وللسلطان سيدي محمد بن يوسف وابنه الحسن حينما يتعلق الأمر بأحداث جد هامة مثل مؤتمر أنفا la Conférence d'Anfa في يناير 1943 أو مسألة طنجة Affaire de Tanger في أبريل 1947 وقراءة رواياتهم على ضوء الوقائع، عوض روايتي أنا التي قد تنعت بالتحيز الاستعماري.

إن هذا العمل المبني على الصدق وحسن النية، لن يلحق، على ما أعتقد، أي ضرر لا بالجانب الفرنسي أو المغربي، بالرغم من أنني أقرُّ أحياناً أن أحد الفرقاء قد ارتكب خطأ ما. وعموماً فكل خطأ يزسِف له دائماً، لكن من الحماسة أن يدفع ذلك إلى الحزن أو اليأس مهما كانت الأحداث السياسية المروية وسوء الفهم والتصرف. لقد تركت الحماية إنجازات كبيرة إنسانية، سخية وجد بناءة، وبالرغم من تدهور الوضع في السنوات الأخيرة من الحماية - بعد 1943 - فلا يمكن محو أو تناسي تلك الإنجازات، فلقد أدت المجهودات الفرنسية في المغرب إلى بزوغ رجالات من طينة جيدة وكان ذلك في صالح الجميع.

وأعتقد، في الأخير، أن هذا الكتاب - المتواضع الخالي من المرارة والحسرة والذي يضم ذكريات شخصية مدعمة بالوثائق المحققة - سيساعد على التقارب بين الفرنسيين والمغاربة إذ سيؤدي، بمعنى آخر، إلى صداقة خالية من الخلفيات، متحررة من العُقد ومن الضغينة والحقد.

جورج سبيلمان

القسم الأول

ميلاان دولة عصرية

الفصل الأول

منجزات الماريشال ليوطي

1925 - 1912

يستحيل الحديث عن الأحداث التي أدت إلى التخلي المفاجئ عن معاهدة 1912، وإلى استقلال المغرب دون عودة مختصرة إلى الوراء، وأساسا إلى الثلاثين أو الأربعين سنة من زمن الحماية، وهي سنوات لا يجب أن نخجل منها.

يتحدث الوطنيون المغاربة الآن عن الازدهار والرخاء الذي عرفته الإمبراطورية الشريفة في ظل الدولة العلوية قبل معاهدة 1912 المشؤومة، وهو حديث جاء نتيجة جهل الوطنيين الشباب بواقع مغرب بداية هذا القرن، فضلا عن جهلهم لتاريخ بلادهم، كما جاء نتيجة ضعف الموضوعية لديهم لأسباب متعلقة بمنطق الدولة، إذ وصفوا حقبة ما قبل الحماية بالعصر الذهبي! ألم يكتب علال الفاسي في أكتوبر 1956 في جريدة العلم، لسان حزب الاستقلال، أنه تم إلغاء الرق في المغرب خلال القرن التاسع عشر نتيجة تحلي المغاربة بأخلاق عالية واحترامهم للامتناعي لكرامة الإنسان، وزاد قائلا، إن فرنسا مازالت تسمح بالعبودية بل تشجعها في موريطانيا، وأن هذا يجعل من واجب المغرب تحرير موريطانيا من قبضة الاستعمار الفرنسي لكي يتمتع العبيد هناك بالحرية والكرامة، وهما كثران نفيسان مقدسان.

وبخصوص هذا الموضوع لا أريد أن أدخل في أي جدال أو ملاسنة كلامية، لأنني على وعي بأن المؤرخين المغاربة الذين غالبا ما يميلون إلى التاريخ بدل كتابة التاريخ، يعتمدون على مثل هذه الأقاويل للدفاع عن رؤاهم، ويمكننا أن نتساءل كم هو عدد قياديين حزب الاستقلال أو الأحزاب الأخرى الذين اطلعوا على كتب مثل روض القرباس لابن أبي زرع، وكتاب الأنساب المتعلق ببداية دولة الموحدين وتاريخ

الموحدين للبيدق وتاريخ البربر لابن خلدون ونزهة الحادي للأفرائي والترجمان المغرب للزياني الذي يهتم بالخمسين سنة الأولى من حكم العلويين؟ وفي سردي هذا لم أخص بالذكر سوى الكتب المشهورة والأصيلة المعززة بالوثائق.

وفيما يتعلق بأواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تتوفر على كتاب "التعرف على المغرب" Reconnaissance du Maroc وهو كتاب قيم للفيكونت شارل فوكو Le Vicomte Charles Foucault المختص في شؤون الصحراء. ويفيدنا هذا الكتاب بإسهاب حول الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمغرب خلال حكم مولاي الحسن، أحد أقوى وأهم سلاطين الدولة العلوية، كما تتوفر على رواية Exploration المركز دوسيغونزاك Le marquis de Segonzac وشهادات السيد والطير هاريس Walter Harris مراسل صحيفة التايمز Times بطنجة ومقالات السيد أوبان Aubin، وكذلك شهادات طبيبي القصر فاييجرير وأرنو Arnaud et Weissgerber، إضافة إلى كتابات السادة: موليراس Moulieras وإيدموند دوتي Edmond Doutré ولولي جانتني وموريس لوغلي Le Glay وغيرهم. فكل هؤلاء العارفين بشؤون المغرب سجلوا ذكرياتهم، على غرار ما قام به غوبينو Gobineau بالنسبة لبلاد فارس، في كتب بسيطة بعيدة كل البعد عن المغالاة وعن الخلفيات السياسية، وهي كتب مفيدة ومباشرة وتزخر بالحيوية.

المارشال ليوطي (1912-1925)

تحمل الثلاث عشرة سنة الأولى من تاريخ ما يسمى بالحماية الفرنسية بالمغرب بصمات بارزة للمارشال ليوطي، أول مقيم عام.

لقد كان هذا الرجل العظيم يهدف إلى استرجاع وحدة الإمبراطورية الشريفة وتمكين الدولة العلوية من زمام الأمور، حيث كانت مهددة من طرف حركات تمرد من قبل البربر، ويطمح إلى تهدئة البلاد وتوحيدها وعصرنتها محترما في ذات الوقت روحها وشخصيتها وعقائدها. لقد

¹ -Marquis de Segonzac : Au cœur de l'Atlas, Missions au Maroc, 1904-1905

أراد أن يضمن ازدهارها عبر تحسين جودة خيراتها الطبيعية وعبر وضع حد لتطاحن العائلات الكبرى، وأن يقضي على الأوبئة المتعاقبة والندورية.

لم يكن هذا المقيم يتصور السياسة مجرد ذريعة ظرفية تمكنه من إيهام شعب أبي وتضليله أو من تفريقه من أجل أن يسود عليه، بخلق مواجهة بين العملاء والمقاومين، بل كان تصوره لها مطابقا لقناعاته المتجنزة وتجاربه بالجزائر والهند الصينية ومدغشقر، إذ نجد في رسائله من الطونكان ومدغشقر مقاطع متميزة لا تحتمل الشك في موقفه إزاء مسألة الاستعمار.

فأثناء وجوده بالجزائر كضابط شاب ضمن الفيالق الثاني² بين سنة 1880 وسنة 1882، وضع الأصبع على هفوات الاستعمار ونواقصه في هذا البلد، فاعتبر تجربة الجزائر تجربة لا يجب النسخ على منوالها. وهذا ما كتب بصده جورج هاردي قائلا: «كان الاستعمار في الجزائر بالنسبة إليه [ليوطي] نموذج المقاربة غير الناجحة والتعاون الخالي من روح الجوار إذ طبعته الضبابية على مستوى المبادئ».

ليوطي يكتشف مفهوم الحماية

لم يكن ليوطي ذلك الرجل الذي يكتفي بالنقد العقيم والمجاني، ولأنه كان شخصا إيجابيا وبناء، بدأ يبحث عن أسلوب يختلف عن نظام حكم الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ويميل إلى نوع من التطابق مع مقتضيات العصر. وفي هذا السياق لفتت نظره النتائج الأولى لنظام الحماية في تونس، قبل أن يعرف ذلك النظام المركزية السلبية والنزعة الإدارية، وكان مقتنعا بكل ما عايشه في أنام Annam ووطنكان وبكل ما سمعه من الحاكم العام لانسان Lanessan وهو أحد الأبناء الروحانيين لبول بيرت Paul Bert.

لقد رأى من الواجب تحويل تهميش الأهالي إلى شراكة حقيقية عن طريق الاحتفاظ بالحكومات في مكائنها والاستعانة بالنخبة، وبالتالي خدمة الناس وليس استخدامهم، كما رأى من الواجب أيضا أن تحل

² -G. Hardy : Portrait de lyautey, p. 233

الحماية محل الاستعمار. يقول لانسان في عرضه أمام ليوطي «بهذا النظام حققنا الازدهار بتونس وبالنظام المعاكس، أي الذي يفرق كل القوى المحلية ويحكم على الغبار لم نحرز خلال خمسين سنة سوى على جزائر متتائية»³.

ومنذ اقتنع ليوطي بمفهوم الحماية، اتخذ موقفا مضادا لإلحاق مدغشقر بفرنسا. لذا فاختيار الحكومة الفرنسية له، في 1912، قصد تطبيق المعاهدة الموقعة بين المغرب وفرنسا في 30 مارس كان اختياراً ممتازاً. فالواقع يبين أنه لم يكن أحد في مستوى هذه المهمة باستثناء هذا الرجل الذي كان مصراً على أن لا يعطي للحماية وجهاً مشوهاً، فقد كتب -في نونبر 1894- ضمن رسائله من الطونكان هذه الأسطر التي تعبر عن عمق تصوره قائلاً:

«علينا أن نعتد المنطق، ولكي تثمر الحماية ثمارها يجب أن لا تجعل إلى جانب إدارة الأهالي المحتفظ بها، إدارة فرنسية موازية تتجاوز دور المراقبة، الأمر الذي سيُلزم الأهالي بتحمل مصاريف إدارتين بأكملهما! ويجب كذلك تطبيق أفكار تضمن نصف استقلالية على المستوى الاقتصادي، لكي تستفيد المستعمرة من مؤسستين أساسيتين هما التبادل الحر وقلة الجمارك». ولا حاجة بتاتا لسرد كل منجزات ليوطي بالمغرب، لأنها عرفت بدون جدال نجاحاً تاماً رغم أنه هُش.

تنويه السلطان بالماريشال ليوطي (1931)

ويرى أحد المغاربة الموضوعيين في الماريشال ليوطي رجلاً ذا مكانة خاصة، وفي هذا الصدد أقدم نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك سيدي محمد بن يوسف أمام الماريشال، خلال زيارته للمعرض الاستعماري بفانسين Vincennes l'exposition coloniale de سنة 1931⁴ «لقد قدمنا لحضور المعرض الكولونيالي، لنرى تلك الإنجازات الرائعة والشاهدة على عبقريتكم، وبهذه المناسبة السارة نقدم

³ - Lyautey : Lettres du Tonkin et de Madagascar, pp. 373-374

⁴ - سيدي محمد بن يوسف هو السلطان محمد الخامس.

تحايانا الفائقة للفرنسي الكبير الذي عرف كيف يحافظ للمغرب على تقاليد وعادات أسلافه، إضافة إلى إدخال التنظيم العصري الذي لا مفر منه لكل بلد يريد تطوير مسيرته.

فهل يمكننا أن ننسى حالة الإفلاس التي كانت تعاني منها المملكة الشريفة عند وصولكم إلى المغرب؟ لقد كانت كل مؤسساتها وفنونها وإدارتها المضطربة في أمس الحاجة إلى منظم ومجدد من حجمكم، لكي يضعها على الطريق الصحيح نحو مستقبلها. وبأخذكم بعين الاعتبار حساسية السكان، وباحترامكم لمعتقداتهم ولتقاليدهم جذبتهم لفرنسا، البلد الحامي، وهذا يرجع أيضا لرحابة صدركم ونبل روحكم العالية.

ففي أقل من خمسة عشر سنة، شيدتم مُدنا جديدة دون أن تفتقد مدنا العتيقة طابعها الخاص، كما قمتم بشق طرق عبر مختلف أنحاء مملكتنا لتسهيل المبادلات وفتحتم موانئ تثير إعجاب الجميع، أدت إلى تنمية التجارة المغربية، وأنشأتم مدارس من ذوق فني رفيع قدمت لرعائنا العلوم اللازمة لفهم الحياة العصرية وولوج بوابة التقدم، وفي كل الأنحاء شيدتم المستوصفات والمستشفيات، حيث أعطت فرنسا الرؤوفة الإسعافات الطبية للمرضى، ناهيك عن الوسائل المسخرة للوقاية ومحاربة الأمراض. فلا يمكن إحصاء جميع منجزاتكم في المغرب في خطاب واحد، بل يستوجب ذلك كتابا بأكمله.

لقد تحدثتم سيدي الماريشال عن الصداقة الجيدة التي كانت تربطكم بالمرحوم والدنا المعظم، فمن خلال سلوكه إزاءكم ومن خلال محادثاتنا العائلية حولكم وهذه ذكريات نعتز بها. نعرف أنه كان يعتبركم في عداد أوفى أصدقائه وأعزهم، ولما غادر هذا العالم الفاني، ترك لنا واجبا مقدسا هو الحفاظ على صداقتكم، وأنتم تعلمون مدى سرورنا، ونحن نعبر لكم عن تلك الصداقة وعن اعترافنا لكم بها مؤكدين لكم أن اسم الماريشال ليوطي سيبقى منقوشا في قلوب المغاربة، وسيكون رمزا لأحسن الخصال التي يتحلى بها العنصر الفرنسي، وعنوانا للشهامة والنبل والأجاد».

التشبث بالتواصل مع الساكنة المغربية

كان الماريشال ليوطي على وعي تام بجودة أعماله ومنجزاته، ورغم ذلك كان منشغل البال وغير منساق وراء الغبطة والارتياح. لم يسبق لي أن تعرفت على الإطلاق على إنسان له ما لليوطي من قدرة على التحليل الموضوعي لتصوراته وإنجازاته ومن قدرة على وضع الأصبع على مواطن الخلل والضعف في تلك التصورات والإنجازات، ويظهر أن هذه الميزة نادرة جدا لدى كبار هذا العالم، كما أنها لم تحض بالعناية من قبل الذين ألفوا كتابات في حق هذا الرجل المبدع والمجدد لشؤون المغرب.

كان الحفاظ على التواصل الدائم مع الساكنة المغربية يشكل هاجسا أساسيا لديه. ولهذا أصر على الحفاظ على أصالة الحياة المغربية في معمار المدن الجديدة مقارنة مع القديمة التي لم تفتقد طابعها الخاص، وأراد بنفس الإصرار أن يتعايش الفرنسيون والمغاربة جنبا لجنب بدل أن يتواجهوا، كما كانت سلوكياته تقدم القدوة الحسنة. فقد كان يحافظ على زيارة السلطان مولاي يوسف بن الحسن والسيد محمد المقري باستمرار، ليناقدش معهما الشؤون العمومية ويعرض عليهما مشاريعه أخذا بعين الاعتبار مقترحاتهما، كما كان يلزم مدبريه ورؤساء مصالحه أن يكونوا على اتصال مباشر بوزراء المخزن الشريف، وكذلك الشأن بالنسبة لكل الموظفين على اختلاف مستوياتهم، إذ كانوا ملزمين بعرض الشؤون والمهام المنوطة بهم على أنظار الموظفين السامين المغاربة خلال جلسات عمل، أو في لجان دراسية مشتركة، ونفس المسطرة كان معمولا بها على الصعيد الجهوي وفي كل مدن المغرب. وفي هذا المجال حدد الماريشال بطريقة جد متقنة السلوك الذي يجب نهجه. كتب في 18 نونبر 1920 يقول «أريد أن يلعب جهاز الإدارة الشريفة، باستمرار، دورا منشطا وأن لا يكتفي بدور الرقاص أو جهاز نقل ووساطة، أريده أن يسهر على تربية السلطان والوزراء وكل موظفي المخزن، وأن يجعلهم على اتصال دائم بالمصالح الفرنسية عبر اجتماعات ومناقشات مشتركة، وبهذا تفتح أبواب مجلس الوزراء ومكاتب المخزن تلقائيا في وجه رؤساء المصالح الفرنسية مما يمكنها - أثناء تنفيذ كل إجراء جديد - من إحداث علاقة دورية بين بنيفات دار

المخزن ومكاتب الإقامة العامة. أريد كذلك من هذا الجهاز أن يؤثر على السلطان حتى يستدعي هذا المدير أو ذاك لإخباره بالقضايا الكبرى/ المزمع إنجازها كالأشغال العمومية والتعليم والمالية إلخ، وأريد في الأخير أن يصبح مستشار المخزن الشريف السلطان لزيارة مختلف المؤسسات والأوراش الهامة، ولي اليقين أن هذا الأخير سيكون مسرورا بتلقي الشروحات في عين المكان من لدن أعواننا. هذا هو الدور الذي يجب أن يلعبه جهاز الإدارة الشريفة، وإذا لم نقم بذلك لحد الآن وجب علينا تداركه بعزم»

وخلال زيارته لفاس ومكناس والدار البيضاء ومراكش وكل النواحي التي مر منها، كان الماريشال يستقبل دون ملل أو كلال الأعيان والعلماء والأشراف والتجار والصناع التقليديين والفلاحين وتلامذة المدارس والإعداديات. وكان يتحدث معهم وينصت إليهم باحترام وتقدير⁵، فكان مرنا ولينا، لذا حاول الجميع تقليده.

وتولدت عن هذه المعاملة علاقات خاصة فضلا عن العلاقات الرسمية. ولم يعرف المغاربة والفرنسيون حقبة مباركة كهذه الحقبة، إذ اتسمت بالتفاهم والتقارب ومازال حنين الذكرى يهز أولئك الذين عايشوا تلك الفترة رغم قتلهم. وبذلك الممارسات لم يحتكر الماريشال حق الاتصال وربط العلاقات مع المخزن وحده كما فعل أحيانا بعض المقيمين الذين ورثوا منصبه.

وبين شهر يناير وشهر أكتوبر 1925، ورغم صغر سني كضابط بمصلحة الاستعلامات وملحق بالقسم السياسي للإقامة، كنت أرافق أسبوعيا السيد مارك Marc مستشار الحكومة الشريفة، والسيد المعمري -الذي كان آنذاك مجرد ترجمان، والذي أصبح فيما بعد شخصية مرموقة وكبيرة- إلى قصر السلطان بالرباط وكنا نصعد من درج ضيق ووعر إلى الطابق الأول حيث توجد قاعة العرش. ومرة دخلنا بمعية الحاجب وحيننا جلالة مولاي يوسف بن الحسن الذي كان يجلس على أريكة خشبية مذهبة وأمامه طاولة غير مرتفعة انبسطت

⁵- وهو ما يعني في اللغة العربية (التوقير والاحترام)

عليها خريطة للمغرب من مقياس 1/500.000 مكتوبة باللغة العربية، اجتمع وزراؤه حولها وهم ملتفون في حياك بيضاء ناصعة وجالسين على الزرابي. بقيت واقفا وبيدي قضيب طويل وأنا أقدم للسلطان عرضا حول الأوضاع الراهنة في مختلف الجبهات، وأخبرته عن أحداث الأسبوع المنفرط وعن نوايا القيادة، وكان السي المعمري يترجم فورا كل ما أقول، وأحيانا كان السلطان يطرح بعض الأسئلة أو يطلب بعض التوضيحات أو يدلي بملاحظات أو اقتراحات؛ وكانت آراؤه تنسم بالتبصر والاعتدال، وكنت أبلغها لمديري العقيد هويو Huot، وبعد تقديم تقريرتي شكرني السلطان وانتهت الجلسة، وعندئذ انحنينا ثلاث مرات وغادرنا القاعة تبعا لما يقتضيه البروتوكول.

وطيلة الجلسة لم يوجه لي أي وزير سؤالا باستثناء الصدر الأعظم، الذي كان عمره آنذاك حوالي 70 سنة، والذي كان يتابع عرضي باهتمام واضح ويوجه نحوي، أحيانا، ابتسامة مشجعة⁶، الشيء الذي كان مستحيلا بالنسبة لزملائه، الذين استمروا جامدين متصلبين حتى ولو حطت ذنابة ملحاحة على وجوههم.

الرؤية الواضحة لدى ليوطي

بتوجيه من المارشال، عملت الآلة الحكومية دون خلل ظاهر، لكن كان على المقيم العام أن يراقب عن كثب حالة تجانس وانسجام الأجهزة الفرنسية مع الدوايب المغربية، حتى يتفادى الاصطدامات والمناوشات ويتفادى إصابة الآلة بعطب شمولي يؤدي إلى توقفها.

كان ليوطي رجلا جد متبصر وصاحب بعد نظر، إذ كان بإمكانه التنبؤ بالمخاطر التي قد تهدد أعماله قبل وقوعها.

فمنذ 24 أكتوبر 1920 أخبر السيد جورج ليجيس Georges Leygues رئيس المجلس، بحوار هام بينه وبين السلطان وأصبح يشغل باله بدرجة كبيرة، كما شغلني شخصا، ويتعلق الأمر بحركة

⁶ - توفي السي محمد المقرئ وعمره يتجاوز المائة سنة في 1957 يجب أن اعترف أن المارشال كان يود أن يقدم التقرير للسلطان من طرف مدير مصلحة المخابرات وليس من طرف ضابط، لكنني عيئت لهذا الغرض لكوني أعرف بالتفريق وضعية الجبهات وعمليات التهنة.

المغاربة الشباب *Mouvement des jeunes Marocains* التي بدأ خطرها يلوح في الأفق. وهي الحركة التي فسر الماريشال نشأتها بالقول إنها «جاءت نتيجة انتشار أخبار المشرق وتفاقم الغليان الذي يعرفه العالم الإسلامي، والتصريح باستقلال مصر وقراءة بعض الصحف الإسلامية، التي يصعب منعها والاستغلال المغرض لما يسمى حق الشعوب في تقرير مصيرها».

ولما تنبه بكل وضوح للخطر المتنامي لهذه الحركة، رسم خطته المضادة في توجيهه الشهير الصادر في 18 نونبر 1920، لقد أشار البعض أحيانا إلى هذه الوثيقة الأساسية دون سرد أهم مقاطعها، لذا أود تقديم مقتطفات وافرة منها، علما مني بأن الوقوف على قوتها الضاربة في الإقناع يستلزم قراءة النص بأكمله، أو إعادة قراءته في كتاب "ليوطي الإفريقي نصوص ورسائل" الجزء الرابع من صفحة 25 إلى صفحة 36 *Lyautey l'Africain*. ولا داعي لادعاء شرح كلام ليوطي وهو الذي يعرض بوضوح تام كل تصورات، فلنتركه يتحدث:

«إن مفهوم الحماية، يقول ليوطي، هو كون بلد ما يحتفظ بمؤسساته ويحكم ويدير شؤونه بنفسه عبر آلياته الخاصة، وكل ما في الأمر أنه يخضع لمراقبة بسيطة من طرف قوة أوربية تمثله خارجيا وتدير على العموم جيشه وماليته وترعاه فيما يخص نموه الاقتصادي، وما يغلب على هذا المفهوم ويميزه هو طابع المراقبة، وهذا نقيض الإدارة المباشرة، وأهم شيء في هذا التصور هو تقليص المصاريف العامة».

لكن ليوطي يعترف ويثبت «بأن الأمور في المغرب تسير بشكل متصاعد نحو الإدارة المباشرة». ويضيف قائلا «فضلا على أن هذه الوضعية تتنافى شكلا مع روح الحماية، إذ تولدت عنها أخطار لا يستهان بها. إن المغاربة يعانون من هذا الأمر ويتحدثون عنه، ومن هذا المنطلق، فليس من المستحيل أن ينساقوا وراء توجهات وطروحات معادية لنا. سوف يحصل لديهم بالتدريج وعي بقيمتهم ومكانتهم وقوتهم إذ ليسوا شعبا بليدا ولا غبيا، إنهم مهتمون بما يدور في العالم وعلى علم بذلك، إنهم لا يدخرون أي جهد للتعليم وطلب المعرفة، وإنهم أيضا مستعدون للتأقلم والتكيف ولديهم شبيبة في إطار التكوين، تتوق للعيش والفعل وتغمرها روح التعلم والعمل والشغل، ونظرا لضالة المناصب

التي تخصصها إدارتنا إليهم ودونيتها، فلن نستغرب إذا هم نهجوا سُبلا أخرى ... فلنكن على يقين أن حركة فكرية تتولد الآن بجانبنا وبدون علمنا، تنميتها نقاشات وتعاليق حول الأحداث العالمية والوضعية التي أريدت للإسلام، وفي يوم ما ستترعرع هذه الحركة وستنقوى إن لم نأخذها مأخذ الجد، وإن لم نأخذ بزمام الأمور.

لقد أصبح الأمر استعجاليا يقول ليوطي- لننق ناقوس الخطر، إذ من خلال الاحتكاك مع الأوروبيين والجزائريين والتونسيين، لنا اليقين - أقولها وأردها - أن الشبيبة الطموحة ستتكون وستأكد من تهميشها بخصوص الشغل وإذ ذاك سنتعلم الفرنسية وستشعر بقيمتها وقوتها وعندها ستتساءل عن سبب إبعادها عن الشؤون العامة».

احترام سيادة السلطان

ويظهر مرة أخرى حرص ليوطي وتشبته باحترام شخص السلطان واختصاصاته عند بدء عملية تنظيم المحاكم العصرية، تلك المحاكم المشكلة من قضاة فرنسيين ومن مستشارين مغاربة كلما تعلق الأمر بقضية يكون أحد طرفيها مغربي، إنها المحاكم التي سميت خطأ فيما بعد بالمحاكم الفرنسية لكونها تبث في قضايا بين أوروبيين أو بين أوروبيين ومغاربة، إذ كتب المارشال في رسالة موجهة إلى وزير الشؤون الخارجية يقول: «يبدو لي أن منح جلالة السلطان مهمة إصلاح العدالة في مملكته بمقتضى ظهير يحمل توقيعي، مسألة في محلها فالأمر مطابق تماما لروح وشكل معاهدة 30 مارس 1912، إذ يؤكد نصها فعلا على أن الإصلاح سينفذ من قبل السلطان باقتراح من الحكومة الفرنسية، فعلينا إذن تطبيق معاهدة الحماية بدقة، وإلا فقد نكون خالفنا النص واستحوذنا على اختصاصات وصلاحيات السلطان».

وفي الواقع، وحسب تصريح محكمة العدل الدولية في 1951، فإن محاكم الحماية بالمنطقة الفرنسية محاكم مغربية منظمة على نموذج ومقاييس فرنسية تضمن للأجانب حق المساواة.

وكما هو معروف، اقترح ليوطي -دون جدوى- أن يكون المغرب من بين الموقعين على معاهدة فيرساي Versailles، كما لم يعارض فكرة قبوله عضوا في عصبة الأمم، وكان يقلقه التعبير المستعمل أحيانا

سواء على المستوى الرسمي أو الصحافي وهو "حكومة الحماية"، فطالما ردد أنه «لا وجود لحكومة الحماية وإنما هناك حكومة شريفة، فلا داعي للتذكير بذلك كل مرة».

تصور ليوطي لمستقبل الحماية

يُطرح علي أحيانا -وحصل ذلك مؤخرا- السؤال التالي: هل كان ليوطي ينظر إلى نظام الحماية كأمر نهائي لا رجعة فيه، أم كان يراه كوضع قابل للتطور سيؤدي لا محالة إلى الاستقلال؟

من غير اللائق الحديث عن نوايا أناس رحلوا عن هذا العالم، لذا سأكتفي بتحليل الوقائع والنصوص، لقد قيل إن ليوطي صرح أن الحماية نظام نهائي. لقد نطق فعلا بهذا، لكن جاء ذلك في نظري- في سياق مخالف تماما، لقد تحدثت بعض الأوساط الفرنسية كثيرا عن الحماية كوضع مؤقت زائل، سيتم تعويضه بنظام شبيه بذلك القائم بالجزائر، وقد تصدى ليوطي لهذه المناورة قائلا بأن الحماية ليست نظاما «انتقاليا» وإنما هي وضع «نهائي».

أما بخصوص فكرة تطور الحماية نحو الاستقلال، فيوجد بالعكس تصريح واضح أدلى به المارشال في الرباط أمام المجلس السياسي للأهالي Conseil politique indigène، يوم 14 أبريل 1925، أي لحظة انطلاق هجوم الريفيين ضد مواقعنا المتقدمة شمال فاس وتازة، وهنا نلاحظ الصدفة، وهذا مضمون التصريح: «علينا أن نعلم - وفي اعتقادي يتعلق الأمر هنا بحقيقة تاريخية - أن إفريقيا الشمالية ستطور وستحضر وستعيش مستقلة، طال الزمن أم قصر، ستنفصل عن فرنسا، علينا أن يكون هذا هو الهدف الأسمى لسياستنا - أن يمر هذا الطلاق في ظروف يسيرة حتى يبقى الأهالي متعلقين بفرنسا، وأن لا تقف الشعوب الإفريقية ضدنا، ومن أجل هذا وجب علينا أن نعرف كيف نحيب أنفسنا إليهم، وبإمكاننا أن ننجح في ذلك. ففي 1912 وجدت نفسي محاطا بفراغ تام بفاس حيث كان الناس يولون أبصارهم عني ويغلقون الأبواب في وجهي ويصفقون عند مروري، لقد تأثرت كثيرا لهذا الوضع، لكوني كنت قادما من منطقة وهران حيث كان لي العديد من الأصدقاء، ومنذ ذلك اليوم وأنا أعمل كل ما في وسعي لتكسير هذا

الجدار، ولم تفشل سياسة الاستمالة التي نهجت شخصيا واتبعها مساعدي، فكانت بضعة أسابيع كافية لتتفرج الوجوه وتفتح القلوب. كنت أقول للمغاربة: «إننا نحترم كل الاحترام عقيدتكم وعاداتكم ومؤسساتكم وكذلك الشأن بخصوص أماكنكم الاجتماعية وبروتوكولاتكم، وكانوا يردون: ربما أنت الفرنسي الوحيد الذي يعتقد ذلك، لأننا نعرف الجزائر وما تتعرض له.

واستطعت أن أبرهن لهم مع مرور الزمن أن ذلك ليس تصوري الخاص وإنما هو روح نظام الحماية، ولي اليقين أنه منذ ذلك الحين نسجت خيوط المودة بين الساكنة المغربية والعنصر المستعمر...

كنت دائما أصبو إلى خلق قابلية ذهنية وعلاقة ودية وارتياح متبادل مع هذا الشعب، حتى يبقى في فلكنّا أطول أمد ممكن، وإذا انفصل عنا سياسيا، فربحنا الأخير سيكون هو تعاطفه معنا، أي مع فرنسا، أريد أن يحبنا هذا الشعب: إنها الفكرة الأساسية التي تستحوذ علي وأعيش من أجلها».

ولزيادة في التوضيح ندرج مقتطفا آخر يعبر عن أفكار المارشال عبارة عن كلمة ألقاها بتاريخ 12 ماي 1922 يقول فيها: «إن الحركة التي تلوح في الأفق تعبر عن رغبة كبيرة في التعلم... يجب علينا حتما أن نحتويها ونستبقها في هذا المجال، إن الثورة ليست إلا تطورا مجهضا، إذ أن الشعوب تكسر حواجز لم تعرف الحكومة إزالتها في الوقت الملائم، إن الحكمة في الحكم تقتضي تمييز التطورات قصد احتلال مراكزها الأولى لتفادي عواقبها».

ليوطي والشبيبة المغربية

اعتمد ليوطي على الشبيبة المغربية أساسا، لبناء علاقات مودة وخلق حالة ارتياح تساعد على نسج روابط صداقة دائمة بين الشعبين، لقد كان يردد باستمرار أن «الشباب هو المستقبل» وكان يُكنّى له عطفًا خاصا، كما كان على بيّنة من رقة وكبرياء بورجوازية المدن الميالة إلى النقاشات الفكرية، ولذا كان يخشى أن تنسى هذه البورجوازية، مع مرور الزمن، الوضع الهش الذي كانت عليه البلاد قبل 1912 وأن تصنفا في الأخير كخلاء ثم كأعداء، وكان يعلم أن الاعتراف بالجميل

خصلة نادرة عند بني البشر، وأن الذاكرة قصيرة لديهم، كان يقول أحيانا «يجب أن لا نتنظر الاعتراف بالجميل، فلنعمل ما نراه أفضل دون أن نضع نصب أعيننا الاعتراف الذي ستخلفه أفعالنا. إنني أكره التعامل بالمقابل وأن يُعتبر الاعتراف كواجب»

وكان المقيم العام يهتم بنوعية التعليم الذي سيخصصه للشباب المغربي وكان يريده تعليمًا غير مبتعد عن التقاليد ويُمكن من الانفتاح على الثقافة الغربية، لم يكن هذا الرجل يخطط لجعل من المغاربة أناسًا مستلبين منقطعين عن جذورهم، لكن شتان بين التثقيف والتطبيق. فالإنجاز ليس سهلاً، خصوصاً بالنسبة للتعليم الثانوي كمنفذ للتعليم العالي، إذ كان من اللازم إنهاء هذا السلك من التعليم بشهادة ما، ما هي هذه الشهادة؟ لم تكن شهادة البكالوريا الفرنسية ملائمة تماماً، فبدا له أن يحدث بكالوريا خاصة تمنح للغة العربية مجالاً فسيحاً أمراً مغرباً، إلا أنها قد تعتبر شهادة من الدرجة الثانية بالنسبة للجامعة، ومن هنا تُرفض من طرف الشبيبة المغربية بدعوى أن الأمر مناورة هدفها الميز بين هذه الشبيبة وغيرها، لهذا رجع كفة أطروحة البكالوريا الفرنسية مجبراً.

ولما كنت رئيس القسم السياسي بالرباط، بين سنوات 1933-1940، أُتيحت لي الفرصة لتصفح السجل الأسود الكبير الذي كان يضم في طياته محاضر المجلس السياسي للأهالي والذي كان يرأسه الماريشال شخصياً⁷، كانت مسألة تكوين الشباب تتردد باستمرار على صفحات هذا السجل، إذ تعتبر هاجساً كبيراً عند الماريشال، لهذا كان يحاول إشراك مساعديه في مخاوفه وهمومه، لقد كان يؤكد عليهم قائلاً «اعلموا جيداً أن كل شيء سينهار طال الزمن أم قصر إذا ضاعت الشبيبة من بين أيدينا أو عاملتنا بلامبالاة واستخفاف، يجب أن نفهمنا وتقبلنا حتى نتق بنا وترتاح لنا، ولكي يتحقق هذا يجب أن تجد لدينا التفهم اللائق والمساعدة الكبيرة، ومن خلال احتكاكها بنا يجب أن تلمس الارتياح الكامل والغنى الثقافي، وهذا يفرض علينا بأن نكفل لهؤلاء

⁷ احتفظت بهذا السجل في الصنوق الفولاني لمكتبي للاستئناس به، وتركته هناك عند مغادرتي للقسم في فبراير 1940، وأخشى أن يكون قد ضاع الآن أو أنه قد أثرى أرشيفاً خاصاً رغم قيمته العالية، ما عدا أن يكون قد أُلْقِيَ به خسية، وإذا أُوْخِذَ نفسي على عدم نسخ ذلك السجل.

الشباب أساتذة أكفاء ونوفر لهم أحسن الشروط للدرس والتحصيل، وأن تعيرهم السلطات العمومية والنخبة الفرنسية بالغ الاهتمام، وعلى هذه الأخيرة أن تلتقي بهم وتشجعهم وتربط معهم علاقات مبنية على المساواة بعيدا عن التعالى والترفع». كانت هذه أقوال وأحاديث التقطتها أذني من فم الماريشال ليوطي في إحدى أمسيات سنة 1925، فكان بعضهم - وبالأخص أولئك الذين تخيفهم صعوبة المهمة - يحذره من أن يجعل في متناول الشباب المغربي ثقافة جيدة قد يستعملونها حتما يوما ما كسلاح ضدنا، وكان هذا الطرح المالتوسي - على المستوى الثقافي- يثير حفيظة ليوطي، ويعتبر أن التعامل بهذه الحسابات الضيقة أمرا رخيصا يجب الترفع عنه، ويضيف معتمدا على تبصره «إذا نحن لم نفعل أي شيء لهؤلاء الشباب، فإنهم سيبحثون في جهات أخرى عما لم يجدوه في بلدهم، فمن سيمنعهم من الذهاب من أجل الدراسة والعلم إلى إنجلترا أو باريس أو مدريد أو لوزان، أما إذا لجأوا إلى القاهرة وبيروت ودمشق وفلسطين فالكارثة ستكون أعظم»!

ونكون قد أخطأنا، إذا اعتقدنا أن ليوطي اهتم بشباب المدن البرجوازي فقط وشباب فاس على وجه الخصوص، بل بالعكس، لقد كان يطمح إلى تكوين أطر متوسطة وصغيرة في المدن وفي المراكز القروية الصغيرة المتواجدة بالبوادي، فيبغض النظر عن الثانويات الإسلامية بفاس والرباط ومشروع بناء ثانوية مراكش، يعود له الفضل في تأسيس مدرسة الدار البيضاء العسكرية بمكناس، والتي تخرج منها ضباط مغاربة من مستوى عال ومن بين صفوفهم عدد كبير ينحدر من العالم القروي، ولقد أصبح عدد منهم عمالا وباشوات وقيادا أو أحيانا وزراء.

مشكل منافذ الشغل بالنسبة للشباب

عندما نتطرق لمشكل التعليم وتكوين النخبة، تطرح لا محالة مسألة تشغيل تلك النخبة، وقد فكر الماريشال، المتبصر الكبير، في هذا الأمر مليا، وهذا ما يشرح في نظري الدوافع العميقة التي أدت به إلى عدم مساندة سياسة الاستيطان المكثف لفرنسا بالمغرب، وبالفعل كان ضد منافسة الفرنسيين للمغاربة، في يوم ما، في عقر دارهم سواء تعلق الأمر بالوظيفة العمومية أو بمرافق القطاع الخاص المهمة. فعلى الفرنسي

حسب رأيه، أن يلعب دور المستشار أو المنشط أو المنسق أو الموجه أو التقني، لقد كان يرغب في أن يشكل الفرنسيون نخبة من الموظفين المتميزين ومن الضباط الطلائعيين أو رجال أعمال يتمتعون ببعد الرؤيا ولا يخشون المخاطرة، أرادهم رجالا من نوع رفيع سواء كانوا تقنيين أو مهندسين أو مراقبي أعمال أو أوراش... يحركهم جميعا الإيمان وحب العمل المتقن ويُعد النظر، وبهذا يتغلب الكيف على الكم.

وكان على عكس ذلك، يناهض فكرة الاستيطان المكثف المبني على جلب موظفين متواضعين ومستوطنين بسطاء ومستخدمين مستضعفين. لقد قال البعض بأن الماريشال كان يكره ما سمي مؤخرا بالفرنسي المتوسط أو البسيط *moyen français* لكونه كان أرستوقراطيا حتى النخاع، وأشاع البعض الآخر بأنه مفرط الغرور *snobisme*، وكلها مجرد نقولات خاطئة، فهو لم يستخف قط بخصال البرجوازية الصغيرة ولا ببسطاء الشعب *Petit people*، لقد كان يعرف من خلال تجربته أن النبيل ورقة الأخلاق لا ينحصران في الدوائر الحاكمة، كما علمته معرفته للناس واحتكاكه بهم لزمان طويل أن الفضاضة والغباء توجد لدى كل الشرائح الاجتماعية.

وقد كان جد مقتنع بأن على المغاربة أن يتعلموا، في أقرب الآجال، تدبير الشؤون العامة والخاصة، لذا يجب أن يفسح لهم المجال تواء، فكان إذن يحبذ المراقبة الإدارية ويقف ضد الإدارة المباشرة، أما عندما يتعلق الأمر بالمجالات التقنية أو المالية فكان يحبذ البدء بالإدارة المباشرة، في انتظار تكوين العناصر الوطنية البديلة. وبما أنه كان من الواجب إنعاش المستوى المعيشي للعالم القروي، فقد رفض ليوطي أن يُسخر جزءا هاما من الميزانية المغربية للنهوض بالمعمرين الصغار والمتوسطين العاجزين عن الاستقرار دون مساعدة السلطات، وفي الأخير، كان يتخوف ويخشى اليوم الذي يتقدم فيه مغربي يتوفر على كل المؤهلات لطلب منصب شغل ويواجه طلبه بالرفض لكون ذلك المنصب يوجد في حوزة فرنسي، فقد كان يعلم أن المرارة الناتجة عن هذه الحالة تولد الحقد والكراهية، وكان يعلم بالفعل وقبل علماء النفس الحديث ومنذ تجربة الطونكان *Tonkin*، مدى خطورة الإحباط.

ولمرات عديدة حذر ليوطي بكل قواه إدارته من سلوك هذا النهج راهنا أو في المستقبل، كما حذرنا من أن تنزلق نحو الإدارة المباشرة، إن تلك الطريقة التي تدعي إسعاد الناس ضد رغبتهم أحيانا والتي تُسرع انطلاقا من العدم وتفتن كل شيء - بما في ذلك مهنة مروض الثعابين، وهي طريقة موروثه من روما ونبليون، تشكل أكبر خطأ يتسم به الفرنسي المعاصر، وهنا كذلك تعد محاضر اجتماعات المجلس السياسي الأهلي Conseil politique indigène أكبر شاهد على همومه وتنبؤاته إزاء المستقبل، إنها محاضر تناقش وتتمى وتتم تعليماته الشهيرة التي تضمنتها دورية 18 نونبر 1920 التي تحمل نعت "دورية المنعطف" coup de barre لكونها أنت لتبحث على تغيير النهج المتبع والتخلي عن الإدارة المباشرة التي ما فتئت تسود وتهيمن، وعلى الرجوع إلى مفهومي المراقبة والتربية المطابقين روحا ونصا لمعاهدة 1912.

ومن جهة أخرى، يقول ليوطي «يجب تكوين موظفين حكوميين من الشباب، يوجد الآن من بين عائلات المخزن وحولها شباب طموح وذكي يتكلم اللغة الفرنسية، فيجب علينا توظيفه إذا نحن أردنا أن لا يُستغل من قبل أطراف أخرى ضدنا. فهنا طاقات هائلة غير مستعملة، لذا أتوجه لكل المديرين طالبا منهم البحث عن هؤلاء الشباب وتوظيفهم بجانبهم خالقين لهم مناصب لائقة بهم. لقد فكرت منذ أربع سنوات (1916) في تعيين متدربين مختارين من بين شباب الأقسام العليا والإعداديات الإسلامية Collèges musulmans، لكن بقيت الفكرة حبرا على ورق، لذا أطلب الرجوع إلى هذا الأمر والعمل به. فالهدف الأسمى لإدارة الحماية هو تكوين طاقم من الأعوان المؤهلين يعوضون تدريجيا الفرنسيين في عدد كبير من المناصب، وبذلك نتغلب على النقص الحاصل في مجال الموظفين»، ويختم ليوطي قائلا: «حينما نُعلم النخبة العمل معنا والاعتماد علينا وحينما نستجيب لتطلعاتها وطموحاتها المشروعة بتوفيرنا لها مناصب جديرة بتاريخها وتقاليدها ومؤهلاتها، فأنذاك لن تتأثر بالأفكار الثورية المعادية لنا».

ولما كان يتأهب لمغادرة المغرب نهائيا، بقي مصير الشباب المغربي همهم الجسيم، وقيل أن يغادر الرباط استقبال العقيد روبر

مونطاني Robert Montagne، الذي كان يتميز بذكائه وطيبوبته وبعد نظره، ولم يكن في هذا اللقاء قادرا على إخفاء تخوفاته، إذ خاطبه قائلا: «ما مصير هذا الشباب ومن سيتكلف به».

ليوطني وتركيا الكمالية

لقد جعلته فطنته وتجربته وحده يهتم كثيرا بكل التطورات التي تعرفها بلدان الشرق الأوسط المسلمة، لكونه كان يعلم أن تلك التحولات سيكون لها لا محالة تأثير على إفريقيا الشمالية، وكان يشك في قوة السلالات الجديدة والدول العربية الجديدة التي صنعها المستعمر الإنجليزي في هذه الناحية، وعكس ذلك، كان لا يخفي تعاطفه إزاء المجهودات التي كان يبذلها مصطفى كمال لعصنة بلاده، إذ ربط علاقة صداقة بأب تركيا الحديثة بالرغم من شك الكثيرين في قدرات هذا الرجل مثلما هو الشأن بالنسبة لجمال عبد الناصر اليوم⁸، وخير دليل على هذا التعاطف هو الرسالة التالية:

«أنقراء، في 25 دجنبر 1921

سيدي الماريشال

بطلب مني، تكلفت السيدة بيرت جورج غوليس Berthe Georges Goulis إبلاغكم هذه الخطوط كعربون آخر - يضاف إلى ما سبق - على صداقتي لكم، وأغتتم هذه الفرصة لأعبر لكم عن مدى اعترافي لكم بالجميل على تعاطفكم معنا فيما يخص نضالنا من أجل الاستقلال. إن فرنسا لم تخب الأمل التي عقدناها عليها، إذ عبرت على لسان قائدها، عن مؤازرتها لنا والوقوف إلى جانبنا في الظروف الصعبة، وأنتم بالذات، كنتم على رأس أولئك الذين تشبثوا بالحفاظ على السياسة التقليدية الفرنسية في الشرق الأوسط، بناء على المصالح العليا لفرنسا والمكانة التي تحتلها في حوض البحر المتوسط. وبفضل تبصركم وتدخلكم تحولت موازين القوى نحو هذا الاتجاه، ونحن سعداء لكون الجهود المبذولة من الطرفين بدأت تعطي ثمارها من قبيل اتفاقية أنقرة Accord d'Angora، ونعتقد الآن آمالا كبيرة على هذه الآلية التي

⁸ - لقد سبق أن تواجه في الماضي القريب الفرنسيون والأتراك في قتال عنيف بسيليسي Cilicie.

ستؤثر إيجابيا على علاقات الصداقة العريقة التي تربط بين الشعب التركي والشعب الفرنسي والتي أعدها توطيدها في جو أخوي صريح، وأتمنى، سيدي الماريشال، أن يتضاعف تعاطفكم معنا، ذلك الشعور الذي نعيده كامل التقدير.

وتقبلوا سيدي الماريشال فائق احتراماتنا.

مصطفى كمال»

إن هذه الوثائق والنصوص وكذلك هذه الرسالة غنية عن كل تعليق.

ليوطني والقضية الريفية - عبد الكريم

لا يمكن إنهاء هذا الفصل المتعلق بفترة إقامة ليوطني دون التحدث عن عبد الكريم وقضية الريف اللذان هددا المنطقة الفرنسية بالمغرب وشكلا كذلك بالنسبة للحكومة الفرنسية ذريعة لإقصاء الماريشال. أجل لقد كنا المنتصرين في آخر المطاف، لكن مقاومة هذا الرجل القصير القامة والمبهم ضدنا طوال أربعة عشر شهرا أخذت من نفوذنا مأخذا، فقد أدت تلك المقاومة إلى انهيار أسطورة فرنسا المنيعَة التي لا تقهر في أعين المغاربة وأقل نجم ليوطني، الرجل المتبصر الذي لا يخطئ.

ولد محمد بن عبد الكريم بن السي زيان سنة 1882 في قبيلة آيت بودرا Aït Boudra من بني ورياغل الريفية. درس بجامع القرويين بفاس، وعمل بعد ذلك قاضيا بمليلية. اختلف سنة 1920 مع الجنرال سيلفستري Sylvestre الذي وضعه رهن الاعتقال، ولما حاول الهروب من السجن أصيب بكسر في رجله، قبل أن يطلق سراحه. لقد كان يكن للإسبان عداوة شديدة.

وفي يونيو 1921 حاول هؤلاء السيطرة على منطقة حمايتهم وتهديتها، فانطلقت لهذا الغرض فرقتان عسكريتان: الأولى من مليلية نحو الريف بقيادة سيلفستري، قوامها 60000 رجل، من بينهم 30000 مغربي، والثانية من تطوان بقيادة المندوب السامي الجنرال بيرينكير Berenguir وهدفها تقويض سلطة الشريف الريسوني وإخضاع قبائل جبالة.

وبمعية بني ورياغل، هاجم عبد الكريم سلفستري بعنف شديد فتشتت بعض الجنود المغاربة وتخلّى عن الإسبان البعض الآخر، فكانت المذبحة والهزيمة الإسبانية التي أطلق عليها "معركة أنوال" والتي كانت حصيلتها: انتحار سيلفستري، إضافة إلى 20.000 من القتلى الإسبان وآلاف الأسرى واستيلاء عبد الكريم على 120 مدفعا وأكثر من 20.000 بندقية، وكميات كبيرة من العدة والعتاد. واضطر هذا الانتصار جيران الخطابي، أي قبيلتي تمسمان وبقيوة، إلى الانضمام إليه. واعتمادا على هذه الكتلة الصلبة المتكونة من ثلاث قبائل مقاتلة مسلحة جيدا، أخضع عبد الكريم القبائل الأخرى مستعملا القوة والعنف عند الضرورة.

وفي 1922 أسس جمهورية الريف محتفظا لنفسه بالرئاسة وما فتئ أن رجع إلى التقليد فنصب نفسه أميرا للمسلمين زاعما أنه عربي منحدر من سلالة عمر بن الخطاب، وبهذا ينقلب هذا البربري الزناتي إلى قرشي قح!

وفي 1924 اصطدم ابن عبد الكريم مع الشريف الريسوني فاعتقله وأخضع بالتالي منطقة جبالة، فاستتبّت له الأمور وصار يضرب له ألف حساب في المنطقة الجبلية أي 4/5 مساحة المنطقة الإسبانية. وخلال خريف نفس السنة أخلّى الإسبان في ظروف جد صعبة آخر مواقعهم، ومنها على الخصوص شفشاون، متراجعين في اتجاه الساحل، ولم يبق في قبضتهم سوى القصر الكبير وأصيلة والعرائش وتطوان وسبتة غربا ومليلية شرقا.

وقد تتبّع ليوطي هذه الأحداث المأساوية بقلق شديد، وعكس تصور العقيد هويو Huot، مديره في مصلحة الاستعلامات، كان الماريشال مقتنعا أن عبد الكريم سيهاجمنا مباشرة بعد تنحية الإسبان، ولهذا الغرض قرر دفع الغطاء الأمني لفاس إلى الأمام أي إلى الضفة اليمنى لواد ورغة حيث توجد شمالا قبائل تخضع للنفوذ الفرنسي، وتمكن من ذلك في ربيع 1924 دون كبير عناء.

وبعد ذلك أخبر الحكومة الفرنسية منذ دجنبر أن هجمة ريفية جد متوقعة خلال أبريل 1925، لذا طلب الحصول الفوري على خمس

كتائب مشاة وأربع أخرى في حدود فاتح أبريل (منها الخيالة والمدفعية والطيران والهندسة) وطلب الماريشال هذا الدعم لأن جيوشه كانت قد قلصت من قبل.

وبالفعل قام الريفيون في 13 أبريل 1925 بحملة استهدفت زاوية أمجوط بقبيلة بني زروال، بيد أن الدعم لم يكن قد وصل بعد. وفي أقل من ثلاثة أشهر، أصبح الخطر يهدد شمال منطقة الحماية الفرنسية برتمه، فصارت القبائل الخاضعة لفرنسا تنسل من النفوذ الفرنسي قبيلة بعد أخرى أو جزءا على خطى الآخر، وحلّ شبح الخطر بفاس وكان أكثر حدة بتأزّة حيث بدأ التفكير في التخلي عن هذه المدينة لولا تصدي الماريشال الشديد لهذا المشروع.

ولما شعر عبد الكريم بإمكانية نجاحه، أضاف الفعل السياسي إلى مجهوداته العسكرية، إذ اتصل مبعوثوه بالرؤساء المتمردين بتأزّة والأطلس المتوسط وتافيلالت وبالمعارض الطموح مربيه ربه في الأطلس الصغير، كما اتصلوا بقيادة زيان وكبار قواد الجنوب وسمح القائد العيادي من الرحامنة (مراكش) بإرسال خيالاته إلى الجبهة الشمالية، وشعرنا أن تمرد وعصيان برابرة الريف يجد تعاطفا في كل المناطق الجبلية الخاضعة لنا وأنه يوقظ في الأذهان ذكريات الماضي القريب ويشجع بالتالي على العصيان.

ولهذا السبب بالذات، فزعت بورجوازية مدينة فاس، ورغم أن بعض شباب هذه المدينة المنحدرين من كبار العائلات التحقوا بعبد الكريم ليشكلوا بجانبه "وفد المغرب المضطهد *délégation du Maroc opprimé*" فقد عادوا خائبين من سفرهم هذا بعدما عاتبهم أترباهم، أما المدن الأخرى فكانت بالطبع جد متخوفة من انتصارات الريفيين. وفيما يخص السلطان والمخزن فإنهم انحازوا بوضوح تام إلى جانب ليوطي كونهم يعرفون حق المعرفة الخطر الجسيم الذي يشكله عبد الكريم.

وفي الأخير استطاع ضباطنا في المخابرات والشؤون الأهلية أن يحافظوا على نفوذهم بين القبائل وأن يقودوا جيوشهم إلى القتال حيث أبانت هذه الجيوش عن سلوك مشرف. ومنذ أن وصل دعم هام في أواخر يوليو 1925 قادم من فرنسا وريتنايا، أبعد الخطر واستقرت

الجبهة وأخذنا المبادرة على المستوى العسكري وبالفعل كان ناقوس الخطر قد دق بإلحاح ولم يعه أحد أكثر من ليوطي. لقد أخذ التمرد طابعاً بليغ الخطورة خصوصاً وأننا كنا في الوقت ذاته نواجه عصيان السوريين في دمشق وجبل الدروز والهجمات اللاذعة للصحافة العربية الشرق أوسطية.

هناك حدث تافه وغير معروف، يبين مدى حدس ليوطي وإمامه بالمشاكل، ففي 1924 اقترح العقيد هويو-المختص في السياسة الأهلية- على ليوطي أن يجعل حداً لطغيان واستبداد كبار القواد بالمناطق الجنوبية (الغلاوي والغندافي والمتوكي والعيادي والحاج حماد من تارودانت) وأن يخضعهم لمراقبة صارمة وأن يجرى كذلك مناطق نفوذهم الشاسعة، وكان ليوطي متفقاً على مستوى المبدأ، لكنه أرجأ التنفيذ لكي لا ينتج عن الأمر مشاكل وعراقيل في الجنوب، إذ في تلك الفترة كان سحاب عاصفي يُخيم على تخوم الشمال الريفي، وهنا نرى أن تصور ليوطي كان أكثر حكمة من طرح هويو رغم ذكائه الحاد و تجربته الطويلة.

ولكي أختم هذا العرض الوجيز عن بداية القضية الريفية، سأروي حواراً متميزاً دار بيني وبين مبعوث لعبد الكريم، ففي النصف الثاني من شهر أبريل 1925، ذهبت بأمر من ليوطي إلى طنجة لاستقبال هويو العائد من فرنسا بعد قيامه بمهمة هناك، وبعدما أخبرته بوضع الجبهة الشمالية، ذهبنا معاً عند النقيب باتابيير Panabières قائد الطابور الفرنسي بطنجة والملحق لدى قنصلنا العام في هذه المدينة، فوجدنا عنده شريفاً ريفياً انضم إلى عبد الكريم وأصبح يمثل في هذه المدينة الدولية، وبعد دردشة قصيرة، تأكد هويو بأن الرجل جد منبر بانتصارات القائد الريفي، إذ لا داعي لمحاورته قصد إيجاد تسوية للوضع وبالتالي إنهاء المناوشات.

اكتفينا إذن بشرب الشاي وتبادل بعض التفاهات من حين لآخر، حتى فاجأنا الشريف قاتلاً بأسلوب بطولي:

«أتعلمون أن الجيش الفرنسي ليس أحسن من الجيش الإسباني؟ يا للحسرة! أجل إن خيالكم ممتازة ومدفيعتكم جيدة، لكن لا قيمة لمشاتكم،

فلا قدرة لهم على المقاومة ولا يتقنون الرمي، إنهم ضعاف مقارنة بالمشاة الإسبان وستجدون صعوبة قصوى في تحسين مستواهم ... ».

ما كان لي إلا أن أرد عليه بالمثل. لقد لاحظنا باندعاش أن المقاتلين الريفيين المعروفين ببسالتهن والمتوفرين على سلاح عتيق ليسوا أقوى من رجال أيت أو مالو (الأطلس المتوسط) رغم قلة عتادهم. كنت أتحسب غضب صاحبي، لكنني فوجئت بالعكس: ابتسم هذا الأخير قائلا " أتعرف أيت أو مالو الصنهاجيين؟

- نعم أعرفهم حق المعرفة، لقد أصبت منذ أربع سنوات ببندقية قديمة من بنادقهم.

وختم قائلا: إنهم رجال وأنا كذلك صنهاجي من الريف"

إن هذه النزعة الصنهاجية عند زناتي من رجال عبد الكريم -لأن بني ورياعل زناتيون- تركتني أفكر أخيرا بأن الإمارة الريفية الجديدة هي كذلك مثل المشاة الفرنسيين، عبارة عن عملاق رجلاه من طين.

ليوطي المدير ورجل الاقتصاد

لقد كبل التمجيد الكثير للتنمية الاقتصادية بالمغرب وعن التجهيز اللوجستيكي في عهد ليوطي. كما تقاطر المدح في حق جمالية المدن الجديدة التي شيدت حسب تعليماته.

غير أن أحد كبار المتورين عاتب الماريشال عن استخفافه بالمجال المعدني والصناعي -القوة الضاربة للأمم العصرية- وتفضيله للفلاحة والنهج الرأسمالي.

وهذا رأي غير صائب، إذ لا يأخذ بعين الاعتبار كون عدد كبير من المناجم التي بدأ استغلالها الآن، كانت توجد في المناطق غير الخاضعة عند مغادرة الماريشال في أكتوبر 1925. وزيادة على ذلك كانت طرق التنقيب جد متخلفة. وكيف يمكن إنكار الاهتمام الكبير الذي أولاه ليوطي لمناجم الفوسفات المغربي؟ إذ أكد من خلال تعليماته على منح حق احتكار استغلال الفوسفات لمكتب شريف، لا لشركة فرنسية. لهذا كانت عائدات استغلاله تعود كليا للدولة المغربية. فهل يمكن إذن نعت هذا النهج بأنه نهج رأسمالي؟ أو استعماري؟

كل ما يؤسف له جدا، هو مغادرة ليوطي لمنصبه في 1925، ولو
انه بقي في المغرب سبع أو ثمان سنوات أخرى لهما مرحلة الانتقال
والأرسى إنجازاته المغربية على قواعد متينة، تلك الإنجازات التي كانت
المصاحبة تجمع بين جنبيه، في أن واحد، الهشاشة والآفاق المستقبلية.
وبعد وفاته، لم تعرف شهرة الماريشال أي كسوف، ولم يمر عبر
المطهر، كما لم يتعرض للنقد الذي تعرض له خلال حياته.
كان الأمر نادرا جدا ما يحصل، ولهذا وجب تسطيره.

Collection général Spillenaar.



Jbel Bari, sud de Zagora : lieutenant de Mollière du feu, capitaine Spillenaar, commandant Pichon, général Catroux, décembre 1932.

الفصل الثاني

تيودور سطيگ، خلف ليوطي

1925 - 1929

تيودور سطيگ ثاني مقيم عام للمغرب، مميزاته وتصوراته

خلف الماريشال ليوطي في منصب الإقامة السيد تيودور سطيگ عضو الجمعية الوطنية عن نهر السين، والوالي العام السابق بالجزائر، وكذا الوزير السابق والعضو البارز في الحزب الراديكالي الاشتراكي، إنه شخصية فتنصلية وازنة.

وكان المقيم العام الجديد بروتستانتي النزعة، إلا أنه أصبح مفكرا حرا، درس الفلسفة واتسم ببرودة طبعه البورجوازي. ومما كان يلفت النظر في مظهره الخارجي لحيته القصيرة الشبيهة بلحية لويس باستور، ونظاراته اللتان تخفيان مقلتين جاحظتين خاليتين من كل تعبير، وكذلك هندامه العادي الشبيه بهندام أستاذ جامعي يطبعه نوع من الخشونة أو العفة. وكان يجيد التحدث كثيرا.

لقد كان تيودور سطيگ مختلفا تمام الاختلاف عن الماريشال ليوطي. ويرى الكثيرون أنه نهج في كل شيء نهجا مخالفا لسلفه. إلا أنه اعتبر هذا الحكم جد سطحي. ففي الواقع، كان سطيگ فرنسيا ممتازا، ذكيا، ذا نية حسنة وحنكة عالية مكنته من إدراك المزايا الكبرى التي ميزت سلفه، وقد جعله الإحساس العميق بالمصالح العليا للبلاد يتابع الإنجازات التي بدأها ليوطي منذ 1912 في مناخ صعب ومتوتر. وبما أنه تكون في المدرسة الجزائرية، فقد كان يطمح إلى إتمام منجزات ليوطي - وإلى إصلاح مواطن الخلل فيها - على الطريقة الجزائرية. وفي الأخير كان هذا الديمقراطي الأصل تواقا إلى السلم، ولذا كان يحاط من العسكريين. فلم يكن السيد أرسنيد بريان Aristide Briant وحيدا

في النداء الذي طالب فيه بأن: «تراجع البنادق إلى الوراء وتنتراجع المدافع إلى الخلف!».

سطيگ والعمليات العسكرية، نهاية حرب الريف بالانتصار

عندما تسلم تيودور سطيگ مهامه بالرياط، كانت حرب الريف مازالت قائمة، ورغم تقويم الوضع في الصيف بعد وصول قوات الدعم وتأهب الجنود للنصر، ارتأى المقيم العام الجديد أن يستخدم كل الوسائل للتوصل إلى حل سلمي لهذه الحرب، ولهذا تعاقب مبعوثوه على عبد الكريم خلال الشتاء وحتى بداية الربيع، وكان من بينهم السادة باران Parent وگابريالي Gabrielli المراقب المدني ومبعوثين آخرين لم أتعرف عليهم. وطلب مني سطيگ شخصيا مساعدة موقد إنجليزي هو القبطان گوردون كانين Gordan Canning على عبور الخطوط الريفية. وبالفعل رتبّت الإجراءات والترتيبات بخصوص هذا المرور بتأزة مع القائد دولاروك de la Roque، رئيس المكتب الثاني للجنيرال بواشو Boichut.

وكانت نتيجة هذه العملية السلمية المسترسلة مخالفة لما توخاه المقيم العام. وإذا كان بالإمكان ففاعة القائد الريفى جراء ردود فعلنا العسكرية القوية، فها هو الآن يشكك في عزمنا ويسترجع ثقته في نفسه ويتخذ نتيجة ذلك موقفا منشددا بمناسبة محادثات وجدة التي جمعت، ربيع 1926، مبعوثيه بممثلي إسبانيا وفرنسا. ولو أبدى شيئا من المرونة لحصل على الاعتراف بالاستقلال الذاتى في جزء هام من منطقة النفوذ الإسباني، وحينما نعرف شخصية هذا الرجل وما قلم به من أعمال مناوئة لفرنسا انطلاقا من القاهرة بين سنة 1946 وسنة وفاته، نرى مدى الخطورة التي كانت ستلحقنا لو تحقق ذلك الاعتراف بنفوذه على المنطقة الإسبانية وخصوصا خلال الحقبة الصعبة المتراوحة بين سنة 1940 وسنة 1942.

لكن لما أصر عبد الكريم على تطلعات غير مقبولة تكلمت لغة المدافع وحُسم مصير هذا المتمرد في ظرف أسبوعين بعملية منسقة بين الجيوش الإسبانية التي نزلت في الحسيمة، قلب بلاد بني ورياغل، والجيوش الفرنسية المتوجهة بقوة إلى تارگيست بالمنطقة الإسبانية،

فسلم الرجل نفسه إلى قواتنا في تارغيست، خشية السقوط في أيدي الإسبان وخوفا من الإعدام. وقد لعب النقيب البحار مونطان والقبطان سوفران دورا هاما حين تجرءا على الذهاب صحبة بعض المخازنية إلى زاوية صنهاجة حيث لجأ القائد الريفي⁹. لقد هدهما بالقتل فلم ينزعجا واستطاعا في الأخير إقناع مخاطبهم المهرب بالتخلي عن قتال مينوس منه. ولما زعم عبد الكريم أنه سينقل المواجهة إلى منطقة كتامة ذات الجبال الوعرة والمنيعه، كان ردهما أنه لن يصل إلى هناك سالما حيث سيسفك دمه على يد القبائل الصغرى التي عانت الأمرين جراء بطشه أيام عزه. وكان هذا الرد بمثابة برهان قاطع أدى إلى استسلام عبد الكريم الذي صحبه، إلى جانب عائلته وآخر أوفياته، كلا من مونطان وسوفران، إلى مقر العقيد كوراب Corap وليوطنان كولونيل جيرو Giraud اللذان قبلتا استسلامه.

ورغم أن موقف عبد الكريم أثناء مفاوضات وجدة، ظهر جد مفاجئ في البداية، فإن تفسيره يكمن في التخطيط لإضرام نار العصية الريفية والتحريض على العصيان والقتال والتخلص من المترددين، ولم يكن بإمكان "الروكي" (Le rogui) التراجع وتقديم تنازلات لأن ذلك قد يعرضه وعائلته لغضب شعبي أو حتى للقتل على يد أولئك الذين فقدوا أبناءهم في المواجهات. وهكذا انقلبت عليه مكيدته، ولهذا بقي متصلبا إلى حين ضمان الحماية لنفسه ولدويه وجيوشه.

وخلال مناهة بلا ريبونون La Réunion بقي عبد الكريم مدينا لنا ومعترفا بالجميل، إذ أنقذناه من موت محقق بعدم تسليمه إلى إسبانيا التي كانت تود محاكمته كمجرم حرب. وقد كان الجنرال خوردانا Jordana المندوب السامي بتطوان قد طلب تسليمه للعدالة إلا أننا رفضنا ذلك. وما

⁹ - مونطاني رجل مستعرب ويتقن كذلك البربرية، أنجز دراسة ميدانية حول الريف ما بين ربيع 1925 وشتاء 1926 مع مجموعة من الأساتذة الباحثين من معهد الدراسات العليا المغربية Institut des Hautes Etudes Marocaines منهم MM. E. Levy Provençal و A. Basset و (G.S. Colin) وضباط المخابرات من الرباط وتازة وفاس، كما قام كذلك بإنجاز خريطة الريف بمساعدة النقيب ب. بينيس P. Pennès عن المخابرات والذي كان مكافأ بتجميع الملاحظات من الطائرة ومن أسطول كولياط بمساعدة الضابط كومباردان Campardon.

فتيء الجنيرال بريمو دو ريفيرا أن شاطرنا الرأي خلال المحادثات الفرنسية - الإسبانية المنعقدة بباريس.

وخلال الحرب العالمية الأخيرة عرض عبد الكريم خدمات أبنائه على الجنرال دوغول. وعندما أمر رئيس الحكومة الفرنسية بنقله بحرا إلى فرنسا كمرحلة سيدخل بعدها بنون شك في يوم ما إلى المغرب. رغم أن السلطان محمد بن يوسف لم يكن متفقا تمام الاتفاق على ذلك - نزل الريفى بمصر أثناء عبور قناة السويس وطلب حق اللجوء هناك، ولم يمر سوى قليل من الزمن حتى انتقل للتعاون مع خصومنا. والعبرة التي يمكن استنتاجها في هذا الباب هي أن عبد الكريم افتقد لمزاج الوفاء الذي تميز به الأمير عبد القادر، إذ لم يكن سوى محرض بربري أو بالأحرى "روگي" Rogui ، طمع في الاستيلاء على السلطة والعرش كما فعل الكثيرون من أمثاله على مدى تاريخ هذا البلد.

وبعد إنهاء المناوشات في الريف، رجعت الجيوش نحو الجنوب لإتمام عملية التهنة بتأزة حيث تمرد برابرة الجبل وكانوا يهددون بقطع المواصلات بين فاس وملوية أي المواصلات بين المغرب والجزائر، وهو ما أسفر عن خسائر كبيرة نتيجة قوة وقيمة العدو. أما في باقي أنحاء البلاد، فأمر المقيم العام بإيقاف كل العمليات العسكرية الهجومية مفضلا حمل غصن الزيتون تجاه المتمردين الذين اعتصموا كعادتهم بالجبال الوعرة في الأطلس المتوسط والأطلس الكبير، حيث لم يستطع أي سلطان طردهم طوال مئات السنين، وفي هذه المبادرة كذلك لم يصادف حسن نية ولا استجابة إيجابية، إذ فوجئ المتمردون بتوقف نشاطنا فبدأ عصيانهم يتفاقم شيئا فشيئا، وصاروا يتوغلون أكثر فأكثر بسهولة تاذلة حيث قتلوا وحجزوا بعض المدنيين الفرنسيين، ومن ذلك احتجازهم أحد أقارب المقيم العام (ابن أخيه أو ابن أخته) الذي كان في نزهة مع ابن عمه صحبة أوريبتين، واضطررنا لدفع فدية لتحريرهم. وكان هذا الحادث بمثابة الحقيقة المرة التي دفعت سطيگ للعودة إلى فرنسا بعد بضعة أشهر(1929) .

السيد سطيگ بطل الاستيطان الفرنسي بالمغرب

على المستوى الداخلي، شجع هذا المقيم العام على استقرار عدد هائل من الفرنسيين المنتمين إلى الشرائح الاجتماعية المتواضعة. وبما أنه جاء من الجزائر، فإنه كان يفخر أحيانا بوجودنا في هذه الناحية من شمال أفريقيا حيث استقر حوالي مليون فرنسي نشيط يكون في العمل ويغتنون وسط ستة ملايين من المسلمين. وكان يرى أن عدد الفرنسيين بالمغرب جد ضئيل ويرى أيضا أن هذا النقص العددي يدخل ضمن أعمال ليوطي. ومن هنا فتحت إدارة الحماية الباب على مصراعيه في وجه الموظفين الصغار، ونتج عن ذلك مشهد جديد إذ أصبحنا نرى ساعي البريد الفرنسي المنحدر من لوط وگارون Lot et Garonne أو من لافيرون L'Aveyron حاملا محفظته ويوزع الرسائل عبر المدن، ونرى في ذات الوقت الكورسيكي ييسر استقرار أبناء عمومته وأبناء أخواله. وبهذه الطريقة تحولت المستعمرة الفرنسية التي كانت قبل سنة 1925 تعج بالأرستقراطيين الكبار. وفي حقيقة الأمر لقد استقدم السادة أوربان بلان Urbain Blanc ممثل الإقامة وفرانسوا بييتري François Pietri مدير المالية الذي كان يهيء ترشيحه لمنصب برلماني في كورسيكا عددا كبيرا من الموظفين الصغار بعد الحرب، ولكنه لم يفتح أمامهم أبواب التوظيف الإداري خوفا من رد فعل الماريشال.

وبما أن الوظيفة خاصة تقتصر عموما على المدينة، لم يتكاثر الموظفون في القرى التي كانت هي الأخرى في حاجة لقبضة من حديد. ولهذا الغرض، أنشئت في جهات مختلفة مساحات أرضية مخصصة للمعمرين عبر شراء الأراضي أو تبادلها وتجميعها أو بالاستيلاء على أراضي الدولة أو أراضي الجموع وأحيانا أراضي الأحباس أو كرائها لأمد طويل. وتمت تجزئة تلك الأراضي إلى قطع متوسطة (من حجم 150 إلى 200 هكتار) أو قطع صغيرة وزعت بشروط مغرية على الفرنسيين. وكانت الفئات المستفيدة من الفلاحين أحيانا ومن قدماء المحاربين وذوي العائلات وأرامل الحرب وأبناء الشهداء وقدماء المغاربة (أي الفرنسيين المستقرين في المغرب منذ زمن بعيد). واستفاد هؤلاء جميعا من تسهيلات في الأداء ومن قروض على المدى الطويل

إضافة إلى الفوائد البسيطة دون احتساب التخفيضات على المستوى الضريبي.

سطيگ ومجلس شورى الحكومة

وأخيرا حول سطيگ، بمجرد وصوله، مجلس شورى الحكومة المكون من قسم فرنسي وآخر مغربي إلى برلمان مصغر يجتمع كل شق منه على حدة وكان ذلك من الأعمال التي تذكر لهذا المقيم. وقد كان القسم الفرنسي من هذا المجلس يتكون من ثلاثة أقسام: مثل أولها الفلاحة، ومثل الثاني التجارة والصناعة، ومثل الثالث بقية الساكنة الفرنسية من الموظفين والمهن الحرة، علما أن هذا القسم الأخير كان أعضاؤه منتخبين وليسوا معينين.

وعكس الماريشال ليوطي الذي لم يتعامل مع الفلاحين والتجار وأصحاب الصناعة والموظفين، وكان يأمرهم عوض أن يأخذ برأيهم، أصبحت الإدارة في عهد سطيگ تتغلب شيئا فشيئا على الحكومة...

أما صلاحيات مجلس شورى الحكومة فكانت تتمثل في مناقشة الميزانية والمصادقة عليها. وكان مقره بالرباط قرب مقر الإقامة بفيلا نائب القنصل القديمة، السيد لوريش Leriche التي وسعت وخضعت لترميم جديد. كان سطيگ البرلماني السابق، يرتاح كلما زار هذا المكان وألقى نظرة على قاعة الاجتماعات ومقعد الرئاسة ومقاعد الوزراء وكل ما يملأ هذه البناية من أجراس وصنجة الانطلاق وقاعات اللجان والكواليس مرورا بالمقهى الذي لم تطأه قدمه قط، فهذا المشهد الذي يستمتع به مرتين في السنة وتلك الرئاسة التي كان يزاولها ببراعة وكأنه على ضفاف السين La Seine كانت تشبع حنينه للتقاليد والممارسة البرلمانية.

وهكذا وبالتدرج تراجع أسلوب ليوطي وتصوره للحماية وأصبح في عداد الماضي، بعدما خلفه أسلوب الإدارة المباشرة المبتذل حقا والباهض التكلفة والمتصلب والشكلي واللا إنساني.

ولم تظهر عواقب هذه السياسة الجديدة جلية إلا فيما بعد. وبالفعل تم إغلاق باب الوظيفة العمومية أكثر فأكثر في وجه المغاربة، وتحملت

الميزانية عبء إدارتين: أولاها فرنسية والثانية مغربية أقل كلفة، فتضخمت ميزانية التسيير عكس ميزانية التجهيز التي تقلصت رغم أنها المنتج الحقيقي للخيرات والثروات، وأصبح إذن اللجوء إلى القروض أمرا ضروريا لاستكمال تجهيز البلاد، الشيء الذي أثقل كاهل الميزانية¹⁰.

فقدان التواصل مع المغاربة

ومن جهة أخرى أصبح الاتصال بين العنصر الفرنسي والعنصر المغربي متسما بالانقطاع، فمن الواضح أن المقيم العام لم يعمل على ربط علاقة وطيدة مع السلطان والصدر الأعظم كما كان الشأن بالنسبة لسلفه. وما فتئ السلطان مولاي يوسف بن الحسن أن لاحظ أن تيودور سطيغ اختار مساعديه من رجال قادمين من الجزائر، ويتعلق الأمر بمدير مصلحة المخابرات وشؤون الأهالي، السيد دوكلو Duclos، وهو ضابط سابق في شؤون الأهالي بالجزائر وصحراوي معروف باستقامته. وكان من البديهي أن يخوف المخزن من التخلي التدريجي عن نظام الحماية وتعويضه بآخر يشبه النظام المعمول به في الجزائر. وهكذا حل الشك مكان الثقة التي كانت متبادلة.

وقد صدرت إلي الأوامر بعدم زيارة القصر وتبليغ السلطان أخبار الجبهة ووضعية التهدة، وتم تبرير ذلك بتواضع مرتبتي العسكرية - كملازم - التي لا تليق بمقام السلطان الذي سوف يخير بين شخصية رفيعة المستوى كالجنرال موجان، مدير الديوان العسكري أو نائبه الكمندار بونار Bonnard وليس لكليهما أي معرفة بالمغرب وخصوصياته. وكان هذا بمثابة امتياز لهما إذ لم يكونا عارفين بأي شيء حول قضايا المغرب. وفي الواقع، لم يستمرا بالقصر إلا قليلا، واكتفى السلطان بالاطلاع على ما يدور في مملكته عبر الصحافة الفرنسية التي كانت تترجم له.

¹⁰ - في الحقيقة خف هذا العبء على إثر التخفيضات المالية المتتالية وهذه حكاية أخرى لأن الخاسر الأكبر هو المساهم الفرنسي وليس المغربي. لم ينج السيد برانلي Branyl المدير العام للمالية. الذي كان يفتن عمله. من تصاعد القروض العمومية، إذ كان يعلم أن تخفيضات العملة آتية لا ريب فيها ومعها سيأتي الحل، وبفضل حنكته حصل المغرب على تجهيزاته بكلفة جيدة وذلك على حساب الرأسماليين وضرائب الفرنسيين.

نشأة الحركة الوطنية المغربية

ظهرت السحب الأولى والخريف الواضح لنظام الحماية بالمغرب - كما كان ليوطي يراه ويطبقه - وأخذت طابعا خطيرا أدى إلى بزوغ الشعور الوطني الذي تنبأ به المارشال منذ 24 أكتوبر 1920. ففي تطوان (بالمنطقة الإسبانية) أسس الحاج عبد السلام بنونة، أحد كبار أعيان المدينة ووزير سابق للعدل، مدرسة حرة بداية سنة 1923، وباقتراح من شكيب أرسلان، سحب ابنه الطيب من الدراسة بجامعة القرويين بفاس التي شبهها "بالحضيرة" وأرسله إلى جامعة نابلس بفلسطين المعروفة بعدائها للأجانب، واقتدى به مجموعة من التطوانيين إذ بعثوا أبناءهم إلى نابلس أو جامعة الأزهر بالقاهرة. ولم يحرك الإسبان ساكننا أمام هذا الوضع، كما لم يبذلوا أي مجهود في مجال التعليم. وأسس محمد بنونة صحبة عبد الخالق الطريس جمعية الطالب المغربي التي كانت على اتصال دائم بشبيبتها في منطقة النفوذ الفرنسي، وبذلك أصبحت مدينة تطوان مركزا نشيطا للحركة الوطنية حيث يمكن الاطلاع على كل الصحف المصرية والسورية المحظورة في المنطقة الفرنسية، وشكلت هذه المدينة الجسر الرابط بين فاس والرباط وسلا من جهة، وبين الشرق الأوسط من جهة أخرى، كما أصبح عبد الكريم - الشيخ المخيف للآباء في منطقة النفوذ الفرنسي - رمزا للكفاح ضد الأجانب في أعين شباب المدن. وبالرغم من هزيمته النهائية، فالمهم بالنسبة لهذا الشباب هو أنه تمكن من مجابهة قوتين أوربيتين (إسبانيا وفرنسا) لمدة سنة. وفي نفس الوقت نشأت بفاس حركة مقتبسة من مصر، إنها السلفية وقوامها الزهد والرجوع إلى الإسلام الأول البسيط ومحاربة كل البدع، وانطلاقا من هذا كانت تُكنى العداء للزوايا الدينية والأولياء. ووجدت هذه الحركة في شخص أبي شعيب الدكالي - المثقف الكبير والوزير السابق في العدل - المدافع والداعية لمبادئها في أوساط تلامذة إعدادية مولاي إدريس وطلبة القرويين، وكان هؤلاء الأخيرين ذوي ثقافة إسلامية صرفة ومعارضون للحضارة الأوربية، معادون لنظام الحماية لأنه حرمهم بسبب عصرنة الإدارة من جزء كبير من المناصب التي كانت مخصصة لهم في ظل النظام التقليدي، فطالبوا بإصلاح جامعتهم العتيقة حسب مقاييس

عصرية، ومن الملاحظ أن الحركة السلفية توزعت بين فصيلين: أحدهما عصري ضم تلاميذ الإعداديات أو الثانويات والآخر تقليدي ضم طلبة جامعة القرويين. وبدأنا كذلك نسمع منذ 1926 كلاما حول شابين هما علال الفاسي (المحافظ) وأحمد بلافريج (العصري) اللذان يترأسان معا لجنة وطنية، الأول بفاس والآخر بالرباط.

كان كل ذلك بالطبع في إطار من السرية ودون هيكلة متينة ولا جذور عميقة، لكن الاتجاه كان في مرحلة اختمار الأذهان ولا يمكن إذن تجاهله.

وبينما عرف التمدرس انخفاضا طفيفا خلال حرب الريف، سجل الدخول المدرسي لأكتوبر 1926 و1927 تزايدا ملحوظا في عدد التلاميذ بالإعداديات والثانويات ومدارس أبناء الأعيان، والتحق بعضهم كذلك بمدارس باریس، وهذا دليل قاطع على تعطش الشباب للتعليم، وبدأت الشبيبة تبدي نوعا من الحذر والشك إزاءنا.

وفي نونبر 1927، توفي السلطان مولاي يوسف جراء تسمم الدم بالبولية (urémie)، وطرحت الخلافة مشكلا دقيقا. وكنت آنذاك رئيس مكتب شؤون الأهالي بتلوات، بعدما أبعدني الجنرال موجان - لحسن حظي - من الرباط بدعوى الوقاحة وعدم الاحترام¹¹، لكن فيما بعد أخبرني السيد ميشو - بيلير Michaux Bellaire، الذي شرفني بمصادقته بحديثات قضية الخلافة. عاش السيد ميشو بيلير في المغرب منذ أربعين سنة، وأقام لمدة طويلة في العرائش وطنجة، تزوج بشريفة وتمغرب كثيرا، وانتقل إلى سلا لقيادة شعبة السوسيولوجيا بالمغرب وكانت معرفته بالناس والأشياء لا تقاس، وكذلك الشأن بالنسبة لمعرفة الماضي والتقاليد، لذا استشير بشأن الخلافة وفوجئ عندما أخذت استشارته بعين الاعتبار. وكان السيد لويس ميرسيي L. Mercier القفصل العام لفرنسا الذي كان يتقن اللغة العربية ويعمل مستشارا سياسيا لتيودور سطيگ سببا رئيسيا في المكانة التي احتلها ميشو بيلير،

¹¹ لكن في الواقع أبعدت لكوني آخر عضو من طاقم ليوطي، واعترف أن السيد سطيگ كان يترفع عن مثل هذه الترهات، ولقيت من طرفه حقارة دائمة.

وذلك راجع للعلاقة الطويلة بين الرجلين¹². وبتفاق مع الصدر الأعظم أقصي مولاي إدريس الإبن الأكبر - خليفة السلطان بمدينة مراكش والذي رُبي على يد الكولونيل جوستينار Justinard - من تولي العرش لأسباب صحية، حيث كان يتعرض لنوبات داء الصرع (Epilepsie)، أما أخاه الموالي له في السن، فقد أبعد لكون سلوكه وخطابه لا يليقان بالمقام الشريف.

وفي هذا السياق يبقى الإبن الثالث، الأصغر سناً، والذي ولد سنة 1909، وهو سيدي محمد المنبوذ والمهمش داخل العائلة، هو المرشح للخلافة. وكان الحاجب التهامي عبابو يكرهه فأتى على والده الذي كان لا يعزه كثيراً، وهذا ما جعله داخل القصر في وضع لا يحسد عليه، وكان يجد بعض العزاء في السيد المعمري، معلمه والمكلف بتربيته منذ 1916. فكان هذا الأمير الشاب، الأبيض البشرة والوسيم الخلقة، رغم حشمته وتواضع هالته، فائق الذكاء وحنق الفطنة. وبناء على هذه المعطيات كان أولى من غيره بالعرش خصوصاً عندما يكبر ويشند ساعده. وقد حذب الجميع هذا الاختيار لكن ميشو بيلير لم يكن مرتاحاً للفكرة وقال لي «جميل أن نختار ملكاً شاباً، ذكياً وقابلاً للتأثير، لكن ماذا سيقع بعد عشرين سنة على توليه العرش وتعايشه مع ثمانية أو عشرة من المقيمين العامين؟ سوف يصبح المقيم العام المسكين في موضع تلميذ أمام أستاذه!!».

وبقي القرار رهيناً بموافقة العلماء، لكن كل هؤلاء الموقرين أو جلهم - المنحدرين من فاس - طالبوا بوقت كاف حتى يتأتى لهم الحصول على تزكية هذا التعيين، وسرعان ما وجد ميستر بيلير مخرجاً صائباً وملائماً للأعراف المتعامل بها، إذ اقترح أن يجتمع العلماء في مكان مغلق ومنعزل حتى لا يخضعوا لأي ضغط خارجي، وأن لا يغادروا المكان إلا بعد اتخاذ قرارهم. وتم تطويق المكان وبعد بضع ساعات من ذلك أعلن العجزة الموقرون سيدي محمد بن يوسف سلطاناً على البلاد وعادت الأمور إلى نصابها.

12 - السيد لويس ميرسي، ضابط سابق مكلف بالترجمة العربية.

الفصل الثالث

السيد لوسيان سان والحركة الوطنية الفتية

1929. 1933

السيد لوسيان سان ثالث مقيم عام (1929-1933)

كان السيد لوسيان سان ثالث مقيم عام في المغرب، سبق أن تولى مناصب عليا في الإدارة حيث تآلق بسرعة فائقة بسبب مصاهرته لترويو Trouillot الوزير السابق بتونس. تقلد لعدة سنوات مهمة المقيم العام بتونس إلى حين تعيينه خلفا لتيودور سطيغ بالرباط. وكان لوسيان سان رجلا حسن المظهر، سليم الجسم وأنيقا شيئا ما، بالنظر إلى معايير متجاوزة، وكان يحسن اختيار أعوانه ومساعديه، إذ عين الجنيرال نوكيس Nogues مديرا عاما للمكتب العسكري ولشؤون الأهالي، وعين الكومندار جوان Juin رئيسا للمكتب العسكري، كما عين السيد فوازار Voizard على رأس المكتب المدني.

ومنذ مجيئه، صرح بأنه من أتباع ليوطي وأنه يكن احتراما خاصا لمنجزاته، وصرح بإصرار على متابعة نهج ليوطي كاي ابن روحي وفي. ولهذا استقبل استقبالا جيدا، إلا أنه، وفي الواقع، لم يغير أي شيء من سياسة تيودور سطيغ، حيث استمرت الإدارة في تعيين الموظفين الفرنسيين، وفي تعزيز مواقعهم في دواليب الدولة بفضل نظام شديد التحيز والتفضيل، فوجدت فكرة الاستعمار الرسمي التي طالما راودت المقيم العام مساندة قوية من قبل الإدارة وأطرها العليا. وفي هذا الصدد توافدت على المغرب جحافل من الموظفين الصغار القادمين من لاهوت كارون La Haute Garonne، وذلك لأن لوسيان سان كان يطمح في الحصول على مقعد داخل الجمعية الوطنية Le sénat كممثل لهذه الجهة. وكان نوجيس هو الرجل الوحيد الذي اهتم بإعادة ربط علاقات ودية مع المخزن الشريف والنخبة المغربية، وحصل على نتائج إيجابية

بفاس حيث حافظ على علاقات طيبة، حينما كان قائدا على منطقة فاس الشمال، إذ كان باب منزله بدار البطحاء - والذي يحمل بَصمات رفيعة ورقيقة للسيدة نوجي¹³ - مفتوحا في وجه الأعيان المغاربة والشباب كذلك، وهو ما مكّنه من فهم الوضع بسرعة بناء على كل ما رآه وسمعه وعرفه أن الأشياء ليست على ما يرام في أحسن الحمائيات.

كان نوجيس رجلا عمليا، لذا أبى أن يبقى مكتوف الأيدي أمام هذا الوضع، غير أنه ما فتىء أن أحس بعجزه عن تحقيق البرنامج الذي رسمه، إذ كان عليه أن يواجه رجلا أقوى منه، بل أقوى من المقيم العام نفسه: إنه السيد برانلي Branly المدير العام للمالية وهو ابن عالم بارز. ففي المغرب كما في فرنسا، كان دائما رجل المالية يمثل نفوذ أو سلطة الدولة، أما برانلي فكان لا يعير لسياسة الأهالي سوى الاحتقار، مما سيسبب لنا، كما سنراه لاحقا، عراقيل جمة.

استئناف عمليات التهذنة

في عهد لوسيان سان، استؤنفت عمليات التهذنة بالأطلس المتوسط وبالجنوب الشرقي من البلاد تحت المراقبة الشديدة للجنيرال نوجيس، وقد تألق الجنيرال لوسطال Loustal في الأطلس المتوسط نتيجة نباهته ومعرفته الجيدة بالبلاد وباستخدامه رجال القبائل الخاضعة المدعمين بالقوات المساعدة Les forces suppletives لقد وضع صحبة رئيس أركانه الحربية الرائد كيوم Guillaume خطة جديدة اتسمت بالمرونة والذكاء وأسفرت على نتائج غير منتظمة.

أما في منطقة مراكش، فتمكن الجنيرال هوري Huré ومن بعده الجنيرال كاترو Catroux بمساعدة رجل متميز ومتواضع في آن واحد وهو العقيد شاردون Chardon، قائد ناحية وارزازات من تحقيق انتصارات من الدرجة الأولى باستعمال طرق سياسية نبهية مدعمة بالوسائل العسكرية التي تتدخل عند الضرورة فقط، فكان عملهم ذاك، آية في الذكاء والمهارة والإنسانية. لقد وفرت الحكومة الفرنسية لهذه

¹³ - زوجة نوجيس هي بنت السيد ديلكاسي M. Delcassé

السياسة العسكرية الإمكانات دون تماطل إذ فهمت أن استكمال تهينة المغرب ضرورة في الوقت الذي بدأ الخطر الألماني يظهر في الشرق.

قضية الظهير البربري (16 ماي 1930)

كانت إقامة لوسيان سان ستمر في هدوء شبه تام، لو لم يتخذ قرارا خطيرا في شأن المحاكم العرفية ببلاد البربر، سوف يؤثر سلبا على مستقبلنا في المغرب، فقد تولدت عن هذا القرار معارضة صريحة مفتوحة بعدما كانت مستترة وسرية.

ففي 16 ماي 1930، تم توظيف صدور الظهير الذي ينظم ما سمي "بالعدلية البربرية في بلاد العرف" ذريعة لإضرار قنيل الاضطرابات التي منحت للدوائر الوطنية الصغيرة المشتتة عبر البلاد القوة اللازمة للتوسع وتوحيد الصفوف، الشيء الذي أسفر عن خلق حزب سياسي منلوى لفرنسا بعدما كان الأمر لا يتعدى حركة تُعبّر عن رأي مخالف.

فماذا يتعلق الأمر إذن؟

إن الساكنة البربرية كما يعلم الجميع تدين بالإسلام. لكن برابرة الجبال، وعلى الخصوص منهم أهل الأطلس المتوسط والكبير، بقيت متشبثة عبر القرون بلهجاتها، متعلقة بتقاليدها وأعرافها فيما يتعلق بالأحوال الشخصية والإرث. لقد رفضوا باستمرار الخضوع لسلطة القاضي المكلف بتطبيق قواعد الشرع القرآني، كما قاوموا السلطة المركزية كلما حاولت إرغامهم على ذلك. وإذا كان من المؤكد أن عددا كبيرا من القبائل البربرية عرّبت شيئا فشيئا، فإن الكتلة البربرية المنعزلة في الجبال - والتي تتجدد باستمرار من جراء هجرة قبائل الجنوب الفقيرة - دافعت في الماضي بشجاعة وبسالة على ما يسمى اليوم بالاستقلال الذاتي الداخلي *le droit à l'autonomie*. ولم يتمكن أي سلطان، مرينيا كان أم سعديا أو علويا، من إخضاع البرابرة إخضاعا شاملا. بالفعل، لقد تمكن بعض الملوك كالمولى اسماعيل الذي عاصر لويس الرابع عشر ومولاي الحسن في أواخر القرن الماضي من إحداث شرخ في الحصن البربري دون أن يستطيعا التغلب عليهم بصفة كاملة. وعند موتهما، صار البرابرة يجتاحون السهول بين الفينة والأخرى مهددين الجميع. ولم يحل بينهم وبين الانتصار النهائي سوى

مزاجهم الفوضوي الذي لا يستقر على حال، الأمر الذي ينتهي أحيانا إلى الفتنة والتصدع في صفوفهم.

وحيثما شرعنا في تهدة المغرب، تطبيقا لمقتضيات معاهدة 1912 من أجل توحيد البلاد وإخضاعها لسلطة السلطان، وجدنا في البرابرة خصوما أقوىاء وجنودا بواسل، لكن أسلحتنا كانت أقوى.

اتخذ الجنرال ليوطي قرار اجتياح جبال الأطلس المتوسط في أوائل ربيع 1913، فانطلقت مجموعة مكناس المتنقلة من الحاجب لتحل بهضبة دار القايد إبطو المواجهة لوادي أزرو. وبقي السيد لوگلي Le Glay من المخابرات (RG) - وهو المتضلع في معرفة قبائل المنطقة - تحت أوامر الجنرال هانريس Henryrs قائد الجيش المرباط بدائرة بني مطير. وبناءً على المعلومات التي حصل عليها لوگلي قرر ليوطي القدوم يوم 8 يوليوز 1913 إلى دار القائد إبطو حيث قضى ليلة كاملة في المحادثات مع بعض قادة قبيلة بني مكيلا¹⁴، حصل بعدها على قبول هؤلاء القادة الخضوع والمساعدة على تهدة "إخوانهم" شريطة أن نلتزم باحترام أعراف الإيمازيغن التقليدية (امازغن = الرجال الأحرار)، فقبل ليوطي هذا الشرط من جهته وتعهد على أن ينتزع الموافقة من السلطان، وبدون تلك الموافقة يبقى التزام المقيم العام دون مفعول.

وعند رجوع ليوطي إلى الرباط زار السلطان وعرض عليه الوقائع، تفهم المولى يوسف - الرجل الحكيم والعاقل - ضرورة الاعتراف من جديد وبصفة رسمية بتلك الأعراف والعادات العتيقة¹⁵. حتى لا يدخل الطرفان في صراع طويل ودامي ينتج عنه توسيع الهوة بين المخزن الشريف والبرابرة المعروفين بعنادهم وكثرة عددهم. فقد كان مولاي يوسف يعلم أن المغرب الموحد الذي يريده قد يتحقق بقوة السلاح في يوم ما، لكن إذا حصل هذا، فسيبقى البلد منقسما على المستوى المعنوي،

14- حضر هذه المحادثات كل من : ليوطان كولونيل بيريو (Berriau)، رئيس المخابرات وليوطان كولونيل بوميريو (Beymirau) والقبطان نوجيس والقبطان لوكلي. وكتب هذا الأخير بعد ذلك وحين

أصبح مراقبا مدنيا عدة كتب مهمة، أهمها: Récits marocains des plaines et des monts
15- في رسالة ليأشا مكناس مؤرخة في 17 يوليوز 1882 يوضح السلطان مولاي الحسن أن رؤساء القبائل البربرية الذين تابوا ورجعوا عن غيهم طالبوا بتجديد ما كانوا يتمتعون به أي تأكيد عاداتهم وأعرافهم كما اعترف بذلك أجدادنا الأمجاد.

فأراد السلطان أن تكون الوحدة وليدة انضمام الرعايا عن طوعية سواء كانوا عربا أو بربر.

وصدر الظهير في 11 شتنبر 1914، وفي عرضه لأسباب الإصدار، ذكر بأن «قبائل جديدة تُلحق يوميا بحضيرة الإمبراطورية بفعل تقدم التهدة، وأن لتلك القبائل عادات وقوانين تسير عليها وتنتشبت بها، ومراعاة لمصلحة رعايانا وسكينة وطمأنينة إمبراطورياتنا وجب احترام النظام العُرقي الذي تتعامل به هذه القبائل..».

ومنذ سنة 1920، اهتم ليوطي بتنظيم هذه العدالة العرفية وبتوضيحها وشرحها، لأنها لم تُستوعب، ولأنها تختلف من قبيلة لأخرى. إن التوسع المتصاعد الذي عرفته التهدة والأمن المترتب عنها جعل البربر في احتكاك متزايد مع باقي سكان البلاد، كانوا عربا أو بربرا! استعربوا أو أوريبيين أو يهودا، فكان من اللازم تحديد الاختصاص والمجال العُرقي بالنسبة للاختصاصات القضائية الأخرى: ومنها القضاء العصري والإسلامي التقليدي واليهودي وذلك لترسيخ مكانته وأخذ الأحكام الصادرة عن المحاكم العرفية بعين الاعتبار. وهذا أمر طبيعي، إذ ليس المقصود هو استعمال هذا الظهير كأداة سياسية تؤدي إلى المواجهة بين البوادي البربرية والمدن والقرى العربية. واستغرقت الدراسات التي أمر بها ليوطي سنوات طوال وأسفرت في الأخير عن مشاريع دقيقة، لكن ارتكبنا آنذاك وللأسف أخطاء جسيمة.

لقد زعم بعض الكتاب والسوسيولوجيين غير المسؤولين والمتهورين، أن على السياسة الفرنسية في المغرب أن تركز على البربر لكونهم أوفياء ولأنهم لا يعيرون الإسلام اهتماما ويكونون العداء لساكنة المدينة، وزعموا كذلك أننا سنجد حتما أمامنا وضدنا العناصر العربية بالمدن والسهول الذين تجرّ فيهم الإسلام. وإذا لعبنا ورقة التفرقة اعتمادا على الحزازات العرقية سنضمن لأمد طويل سلامة مؤسستنا. وباختصار نادى هؤلاء باستعمال المقولة الرومانية: "فرق تسد!!"، وهي رؤية خاطيرة، أو على الأقل، تتسم بنوع من الرعونة.

وفي ذات الوقت تعالت أصوات الكنيسة لتزيد الطين بلة، فقد أدلى أسقف الرباط مونسينيور فييل Mgr. Vieille بتصريحات غير لائقة

إذ اعتبر أن المناطق اليربرية بمثابة حقل شاسع لنشاط المبشرين، بينما تروي مجلة الفرنسيين Le Maroc catholique حالات بعض المغاربة الذين اعتنقوا المسيحية مع العلم أنهم شكلوا حالات نادرة وغير مقنعة¹⁶.

وقام بعضهم بترويج نص رسالة مؤرخة بـ 16 يوليوز 1916 ونُسبت إلى الراهب دي فوكو Le père Foucauld، فاطلع على فحوى هذه الرسالة شباب فاس والرباط واستعملوها كذلك استعمالا واسعا وتأكدوا آنذاك من سوء نيتنا بصفة قطعية.

يقول الزاهد الصحراوي: في نظري، إذا لم يعتنق مسلمو إمبراطوريتنا في إفريقيا الشمالية المسيحية شيئا فشيئا، فستعرف المنطقة حركة وطنية مشابهة للتي كانت تركيا مسرحا لها. سوف تنشأ في المدن الكبرى نخبة مثقفة، ورغم أن تكوينها مفرنس أو فرنسي فلن تكون فرنسية الروح والقلب، وسوف تفقد هذه النخبة الإيمان بالإسلام، لكنها ستستعمله للتأثير على الشعب. وفي ذات الوقت، ستظل جحافل الرُّحَل وساكنة القرى تسبح في بحر الجهل والامية، في عزلة عتّا، راسخة الإيمان بمحمد، لا تُكنّ لنا سوى الحقد والضعف انطلاقا من عقيدتها وتعلقها بأوليائها وصلحاتها من جهة، وانطلاقا كذلك من احتكاكها بالفرنسيين (كمثلي السلطة والمستوطنين والتجار)، ذلك الاحتكاك الذي لعب ويلعب لا محالة دورا سلبيا إزاءنا، ولا يُوسّع رقعة المتعاطفين معنا. سوف يكبر الحس الوطني عند تلك النخبة المتعلمة، وحينئذ تستغل هذه المعطيات، لتحريض الطبقات الشعبية الجاهلة من أجل إنشاء إمبراطورية أفريقية مسلمة وحرّة، حينما تواجه فرنسا عراقيل أو صعوبات على المستوى الداخلي أو الخارجي.

إن عدد ساكنة إمبراطورية إفريقيا الشمالية الخاضعة لفرنسا يناهز الخمسين مليون نسمة، وبفضل السلم سيتضاعف هذا العدد في ظرف خمسين سنة، وستعرف هذه المنطقة آنذاك الازدهار واليسر والرخاء

¹⁶ - اعتنق محمد بن عبد الجليل المسيحية في 1929 وهو من عائلة كبيرة بفاس ودخل اختبار المترتبة le noviciat، بينما أصبح أخوه عمر، وهو مهندس زراعي، وطنيا نشيطا وذلك كرد فعل على ردة أخيه.

وستشق مناطقها القاطرات وسيتدرب سكانها على حمل السلاح واستعماله وسوف تفرز مدارسنا نخبة مهمة، فإذا نحن لم نستطع أن نجعل من هذه الشعوب شعوبا فرنسية، فإنهم سيطردوننا، والوسيلة الوحيدة لجعلهم فرنسيين هي أن يصبحوا مسيحيين. وإذا اكتفينا بالاستغلال عوض أن نمدهم (civiliser) سوف نخسر كل شيء وتقلب ضدنا الوحدة التي حققناها لهذه الشعوب.

والآن ومع مرور الوقت تبدو تلك التخوفات وكأنها بالفعل تنبؤات تحققت، لكن الحلول المقترحة آنذاك، أي تمسيح إفريقيا الشمالية كانت طرعا طوباويا من جهة ومخالفا تمام المخالفة لسياستنا والتزاماتنا.

وفي النهاية، لم يكتفِ مُشرّعونا سنة 1930 بتحضير نص يخص الأحوال الشخصية والإرث كمسألتين لا تدخلان في اختصاصات السلطان، فتحت ضغوط القضاة والمحامون الفرنسيون الذين كانوا يرغبون في توسيع مجال أنشطتهم، طال اهتمام المشرعين الأمور الجنائية، إذ اقترحوا أن تتكلف المحاكم العصرية (الفصل السادس من الظهير) بالجرائم المقترفة في بلاد العرف من طرف بربري في حق بربري آخر، أو أي مغربي آخر لا يخضع للقانون العرفي، أو من طرف أي شخص في حق بربري. واقترحوا أن تُنطق الأحكام باسم رئيس الجمهورية الفرنسية واسم السلطان معا. وبالطبع كان هذا مسأ صريحا بسلطة وصلاحيات هذا الأخير، حيث أن جزءا لا يستهان به من رعاياه لن يخضع قط للمحكمة العليا الشريفة.

ورغم أنني عدت إلى القسم السياسي بالإقامة العامة منذ سنة كاملة، فإنني كنت أجهل الكثير عن تحضير هذا الظهير الذي أحيط بسرية فائقة. لقد ارتكب لوسيان سان خطأ عندما صادق على هذا الظهير - المهزلة في غيبة نويس الذي صرّح لي فيما بعد أنه كان يعارض المشروع، فوقع السلطان الشاب سيدي محمد الظهير بخاتمه الشريف لقلّة تجربته ولكونه كان لا يشك في نزاهتنا وحكمتنا.

ميلاد الحركة الوطنية وتطورها

لقد تأثرت الشبيبة المغربية - عصرية كانت أم تقليدية - بالتحولات بصور هذا الظهير. فنظمت حملات احتجاجية ثم اضطرابات لامتناهية

أسفرت عن التحاق الجماهير الشعبية بالزعماء الجدد. وهكذا أصبحت تخوفات ليوطي أمرا واقعا، فاندلعت الاضطرابات بالمدن الرئيسية كفاس والرباط وسلا، ثم المدن الأخرى، وطالت الشرفاء وأتباعهم والمتعلمون بالقرى المحاذية للمناطق البربرية والذين كانوا يطمحون في الحصول على منصب فقيه عند إخضاع القبائل، وتزعم الحركة آنذاك الأشخاص الآتية أسماؤهم:

— محمد بن الحسن الوزاني المزداد في 1908 وسط عائلة كبيرة بفاس. درس بالثانوية الإسلامية Collège musulman، ثم انتقل إلى ثانوية الرباط، فمدرسة اللغات الشرقية ثم المدرسة الحرة للعلوم السياسية بباريس حيث حصل على دبلوم القسم العام سنة 1930، شغل منصب الكاتب العام لجمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين كما كان كاتبا خاصا للمفكر المجادل شكيب أرسلان.

— أحمد بلفريج ولد في 1908 كذلك وسط عائلة رباطية محترمة، تكفل به، بعد موت أبيه، خاله الحاج محمد بن مصطفى جسوس وهو ثري معروف. درس بمدرسة أبناء الأعيان بالرباط، ثم بثانوية غورو Gouraud، وبعد ذلك تابع دراساته العليا بالقاهرة فباريس حيث ساهم في تأسيس جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين، حصل على دبلوم الدراسات العليا بالسوربون وهو كذلك مجاز في الأدب، كما أنه شبيه سابقه ابن روجي لشكيب أرسلان.

— علال الفاسي من مواليد فاس في 1906 منحدر من عائلة عريقة حافظت على التقاليد الخالصة للقرون الوسطى وتميزت بعلمائها في الشريعة والفقه ومنهم من ترأس زوايا دينية، درس بجامعة القرويين واجتاز بامتياز في 14 غشت آخر الامتحانات المؤدية إلى مرتبة عالم لكنه حرم من ذلك بسبب معارضته لظهير 16 ماي.

لقد تم ترديد "اللطيف" في عدد كبير من المساجد رغم المنع الصادر عن المخزن، وبهذه المناسبة تم جلد محمد بن الحسن الوزاني من طرف حراس باشا مدينة فاس السي بوشتي البغدادي وسجن بتازة في يوليوز 1930 كما أُلقي القبض مرتين على علال الفاسي في 18 يوليوز وفتح شتنبر 1930. وتميز أيضا شبابان آخران بمشاركتهما

الفعالة في المظاهرات، إنهما محمد المكي الناصري وتكوينه تقليدي عكس عبد اللطيف الصبيحي العصري التكوين وهو من أقرباء باشا مدينة سلا. وهكذا تقف الشبيبة الميسورة المغربية، التي كان ليوطي يود إشراكها في إنجازات الحماية، ضدنا وتواجهنا أشد مواجهة، فانقسم المستوطنون الفرنسيون إزاء الأمر بين فئتين:

فئة متفائلة لم تحرك ساكنا، إذ كانت ترى أن ما وقع مجرد حركة عابرة ومفتعلة لن تتعدى بعض الدوائر الحضرية المنغلقة، أما البوادي - أي المغرب الحقيقي - فإنها هادئة لن تتأثر ولن تتبالي بما وقع.

أما الفئة المتشائمة، وعددها جد ضئيل، فقد أصبح المستقبل أسودا قائما في عينها. وبقيت إدارة الحماية من جهتها ساكنة هادئة يقضي موظفوها عطلم السنوية في فرنسا وكان شينا لم يكن. أما المخزن فقد فوجئ بما وقع، واستحوذ عليه الفزع والاندھاش. وفي ذات الوقت ذهل السلطان سيدي محمد واحترار في أمره، لكنه لم يتجرأ على معاتبتنا لكوننا ورطناه وجعلناه في موقف لا يحسد عليه. ومنذ ذاك الحين صار يتعامل بحذر وحيطة معنا كلما اقترحنا عليه إصلاحا...

الدعم الخارجي للحركة الوطنية

وجدت الاضطرابات التي عرفها المغرب تشجيعا قويا من الخارج. ولابد من التذكير بأن الظروف لم تكن في صالحنا، إذ صادف إصدار ظهير 16 ماي 1930 تظاهرتين ضخمتين أثارتا، إلى حد كبير، الرأي العام الإسلامي ونبهتاه:

- الاحتفالات الضخمة بالذكرى المئوية للنزول بسيدي فرّوش والاستيلاء على مدينة الجزائر.

- انعقاد المؤتمر الأفارستي Eucharistique بتونس العاصمة في أجواء احتفالية، الأمر الذي دفع على سبيل المثال بورقية إلى أن يقول: «إن مؤتمر قرطاج سبب من الأسباب التي جعلتني أكفح من أجل استقلال بلدي، لقد رأيت أوروبيين متكرين في زي الصليبيين يجوبون أزقة مدينتنا المسلمة بفخر واعتزاز».

لم تكن لدى حكومة الجمهورية أية خلفية، لكن المسلمين رأوا في ذلك نوايا وخلفيات قائمة.

لقد ثارت ضدنا الصحافة الألمانية والشيوعية والعربية بالشرق الأدنى وأمريكا الجنوبية والبرازيل والأرجنتين حيث تقطن جالية سورية لبنانية مهمة. وفي باريس عبر البرلمانيان جان لونغي J. Longuet، حفيد كارل ماركس وبيار رونوديل Renaudel لمحمد بن الحسن الوزاني ولأحمد بلفريج عن تعاطف ومساندة أصدقائهم السياسيين.

ونادى وطنيو المنطقة الإسبانية "إخوانهم" في المنطقة الفرنسية لكي يثوروا، وفي ذات الوقت أكدوا ولاءهم للمندوب السامي بتطوان، ولما سقطت الملكية، سافر الحاج عبد السلام بنونة، "أب الحركة الوطنية المغربية" إلى مدريد لتهنئة رئيس الحكومة المؤقتة الكالا زمورا Alcala Zamora وتسليمه برنامجا متماسكا للمطالب والإصلاحات. وفي 24 شتنبر 1931 بدأ تطبيق هذا البرنامج بالانتخابات المباشرة لأعضاء اللجنة البلدية لتطوان (commission municipale) فتفوق المرشحون الوطنيون بكامل السهولة، ومباشرة بعد ذلك ألحوا على البروليتاريين المغاربة لكي يتقدموا بمطالبهم، وعندها رفض المسؤولون الإسبان أي تنازل جديد بالرغم من المجهودات المبذولة من طرف الجمعية المختلطة (الإسبانية - الإسلامية) التي أسست في 1930.

لكن خصمنا الأساسي، الأخطر والأدهى والأكثر عنادا على الإطلاق كان هو شكيب أرسلان (1869 - 1946) إنه درزي لبناني أصبح سنيا منذ شبابه، فكان لا يرتاح كثيرا في إطار الإسلام التقليدي نتيجة أصله الدرزي، لذا أبدع فكرة الوحدة العربية (le panarabisme)، ففي رأيه، لا يمكن تحقيق الوحدة الإسلامية إلا تحت لواء العنصر العربي الذي نشر الإسلام عبر العالم وهو الضمانة الوحيدة للحفاظ على الإيمان والعقيدة، لكونه العنصر الذي اختير لتحمل الرسالة. إن الوحدة العربية، في رأيه ضرورة مؤكدة لتحقيق وحدة الإسلام، لذلك وجب تعريب الأقليات العرقية كالبرابرة والدروز وبمراهنته على العروبة، يلعب شكيب أرسلان على وتر حساس ويضمن مساندة الصحافة العربية التي غالبا ما كانت آنذاك في أيدي المسيحيين.

وكعدد كبير من ساكنة البحر المتوسط، كانت لشكيب أرسلان ملكة لغوية فائقة، وكان مجادلا ماهرا وبارعا، فساعدته حذاقته وعناده وشغفه

على أن يصبح عبقريا في فن الدعاية، سواءً كان ذلك على مستوى الكتابة أو الخطابة. وبفضل شخصيته القوية أثر طويلا على الصحفيين العرب، مسيحيين كانوا أم مسلمين، كما ساهم في تكوين عدد لا يستهان به من رجال السياسة الذين وصلوا اليوم مرحلة النضج، ومن بينهم المغربيان محمد بن الحسن الوزاني وأحمد بلافريج والجزائري مصالي الحاج. وكانت كل مجهودات شكيب أرسلان منصبة في البداية على المغرب حيث كان يرى أنه متأخر على مستوى الفعل الوطني. وكان هذا الداعي قد استقر بجنيف سنة 1921 حيث أدار مجلة "الأمة العربية" La Nation arabe الصادرة بالفرنسية، وأسس كذلك اللجنة المختلطة السورية - الفلسطينية التي قامت بشن حملة مناوئة لفرنسا. وكان أيضا وراء فكرة المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بالقدس سنة 1931 وترأس لجنته التنفيذية الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، والذي شكل كتنظيم آلة حرب حقيقية هدفها تحرير البلدان المغلوبة على أمرها لأن الاستقلال في نظر شكيب أرسلان «شرط أساسي لتحقيق وحدة الأمة العربية».

كان شكيب أرسلان - الذي قرأ كثيرا فولتير Voltaire - يستعمل الدهاء والبهتان والكذب، إذا كان ذلك يخدم قضيته، فلما عُين بعض القبايليين الذين اعتنقوا المسيحية كتآبا بالمحاكم العرفية المغربية، نجده يكتب من طنجة أو تطوان، أثناء زيارة لهما، «أنهم خمس مائة مبشر يغزون الجبال حاملين الصليب بأياديهم»، فتأثر العالم الإسلامي لذلك وتعلت أصوات التنديد ونظمت المظاهرات أمام القنصليات الفرنسية بكل دول الشرق الأدنى، ولم يصدر رد الفعل في المغرب إلا بعدما وصله صدى ذلك.

وعندما كنا نبين للوطنيين الشباب أن «هذه مجرد أكاذيب وإنهم على بينة من ذلك»، كانوا يردون «إنها الحقيقة، لقد كتب هذا على أعمدة الصحف العربية بالقاهرة، بما في ذلك الصحف التي يملكها أو يديرها مسيحيون».

ونذكر هنا أن شكيب أرسلان والحاج أمين الحسيني كانا يتعاطفان مع الألمان، وخلال الحرب العالمية الثانية، 1939-1945، عملا لصالح الرايخ الهتليري، فلما انهزم، هاجر شكيب أرسلان إلى البرازيل

حيث توفي منسيا سنة 1946 لكنه لم يمّت إلا بعدما تحققت فكرة طالما راودته: إنها تأسيس الجامعة العربية ومقرها القاهرة.

الاقتصاد المغربي في تحليل السيد إيريك لابون

ولختم هذا العرض المقتضب للأحداث البارزة التي عرفتھا مرحلة لوسيان سان، يستحسن أن نلقي في عجالة نظرة على أفكار إيريك لابون، الكاتب العام للحماية. إيريك لابون دبلوماسي المهنة، بروتستانتي العقيدة وليبرالي الفكر والتفكير. اهتم وبشغف كبير بمسألة المناجم والصناعات، وفي نفس الوقت لم يهتم إلا قليلا بتطوير الاستيطان (جلب المستوطنين) الذي اعتبره أمرا خطيرا لأنه يحرم المغاربة من قسط وافر من أخصب الأراضي، وخصوصا عندما بدأ عدد السكان يتزايد نتيجة عودة السلام وبفعل مجهودات أطبائنا، وأصبح ارتفاع عدد السكان هذا يطرح مشكل التشغيل.

وعكس ذلك، فالمغرب الذي لم يعرف تنقيبات كثيرة باستثناء مناجم الفوسفات، يبدو غنيا بالخيرات المنجمية (كالفحم والحديد والرصاص والزنك والمنغنيز والكوبالت وربما البترول أيضا) وبناء على هذا، بالإمكان خلق صناعة حقيقية، وبتدقيق رؤوس الأموال وبفضل المنجزات وما ستنتجه، وبجلب اليد العاملة بأجور مرتفعة، كان من الممكن إقامة شراكة فرنسية - مغربية متميزة من حيث المصالح، إذ كان من المقرر تخصيص مقاعد للنخبة المغربية داخل المجالس الإدارية.

لقد وضع إيريك لابون أسسا قانونية جديدة لاستغلال المعادن ولمكتب الأبحاث والمساهمات المعدنية ووضع اللبنة الأولى لعدة شركات اقتصادية مشتركة ساهمت فيها فعليا الدولة المغربية. ورغم الركود الذي وقع بعد مغادرته المغرب، فالنتائج التي تحققت في جميع الميادين تدل بعد خمسة وعشرين سنة على صحة رؤاه وصوابها، ولو طبقت بحزم ومواظبة، لتمكنت من دعم وتعزيز نفوذ الحماية أكثر من السياسة المكلفة التي تم اتباعها وهي جلب أكبر عدد من الموظفين الفرنسيين.

الفصل الرابع

هنري بونصو والعودة إلى مفهوم الحماية

1936 - 1933

النظرة السياسية لهنري بونصو رابع مقيم عام 1936 - 1933

قدم السفير هنري بونصو، رابع المقيمين العامين، من بيروت، حيث قضى بضع سنوات كمفوض سامي لنا في الشرق. إن التجربة التي اكتسبها في لبنان وسوريا، وهما بلدان جد متطوران بالمقارنة مع المغرب، إذ كانت تنخرهما حركات رأي وطنية جد قوية. لقد جعلته هذه التجربة قادرا على إدراك الأخطار التي ستنتج عن تطور الفكر المناوئ لفرنسا وخصوصا إذا لم نتمكن من قلب موازين القوى.

سبق لهنري بونصو وأن قدم خدمة متميزة للمغرب وفرنسا حينما ساهم في ربيع 1926 في إفشال مؤتمر وجدة، حيث ترأس الوفد الفرنسي، لا لأنه عرقل سير الأعمال، بل لكونه رجل يتميز بالاستقامة ووضوح الرأي والدقة في التفكير. انتقد بتبصر ودون مغالاة، كعادته، أطماع عبد الكريم اللامعقولة، وفضح مناورات خصمنا وجعل حدا بذلك لتدخلات الجنيرال موجان Moujine الذي اغتر بمكر وخديعة القائد الريفي¹⁷.

وكان المقيم العام الجديد يتميز بحبه للعمل وقدرته على التحليل، ويتسم بالرفقة رغم مظهره الخشن، كما كان صاحب حذاقة كبيرة وتفكير عميق، غير أنه كان بطينا شيئا ما في اتخاذ القرار. اطلع بسرعة على

¹⁷ - الحق سطيح العقيد نوغيث وهو آنذاك قائد منطقة فاس - الشمال، بالوفد الفرنسي والتي أحد رجال هذا الأخير بأزرقان قائد الوفد الريفي الذي ضم عبد الكريم ووزيره في الشؤون الخارجية، فكانا إذن على علم بنوايا الريفيين وتصلب موقفهم.

الملفات، وكان من بين مساعديه السيد روجي سيرو (Roger Seydoux).

لقد فهم هنري بونصو بسرعة أن السياسة الفرنسية بالمغرب لا يجب أن تكتفي بالتأكيد الفضايف على الصداقة الوطنية التي تربط البلدين إلى الأبد، بل عليها أن تتحرك في حدود قواعد اللعبة، وفي إطار الوفاء لروح معاهدة 1912، وعليها كذلك أن تحرم الوطنيين المغاربة الشباب من أحسن الحجج وأفضل البراهين إذا ما كانت لها أسسا معقولة. وجه اهتمامه أولا نحو شكل الميزانية، فانشغل بإعادة التوازن بدون اصطدام ولا مغالاة في الفرق بين الميزانية التي يستفيد منها الفرنسيون والميزانية التي تخص المغاربة، واستفاد في هذا الإطار من مساعدة السيد مارانج (Maringe)، المدير العام الجديد للمالية، وفي نفس الوقت أثبت بدون عناء وبالأرقام أن الميزانية المغربية تمول أساسا عن طريق الشعب الفرنسي والمقاولات الفرنسية ولا تستخلص من الشعب المغربي، كما تدعيه من أجل التضليل رئاسة تحرير جريدة "عمل الشعب" لصاحبها محمد بن الحسن الوزاني.

وبإيعاز من المقيم العام تم إبطال الفصل السادس من ظهير 16 ماي 1930 وعوض بظهير 8 أبريل 1934، الذي بمقتضاه أصبحت الجرائم المرتكبة في بلاد البربر من اختصاص المحكمة العليا الشريفة التي كانت تبث في القضايا الجنائية بالبلاد الخاضعة للشرع القرآني. غير أن هذا الإجراء الرصين والصادر عن حسن نية لم يخفف من مناوشات الوطنيين وعدائهم الذي نجم عن صدور ظهير 16 ماي 1930. ونفس الأمر جاء من طرف السلطان الشاب الذي تحفظ إزاء هذا الإجراء، وذلك لأنه ذاق الأمرين من قضية الظهير واستمر يتخوف من تبعاتها. لقد كان يؤاخذ نفسه لكونه لم يكن في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه نتيجة الثقة المفرطة التي وضعها فيها، وكان يخشى كذلك أن يكون قد ضيع التقدير الذي كانت تكنه له الشبيبة المتعلمة والمتنقعة.

لقد كان هنري بونصو يتسم بالرصانة والاستقامة والنباهة، إلا أنه لم يعط لعلاقته مع السلطان المكانة اللائقة بها، كما أن السلطان لم ينتبه - رغم ذكائه ورقته - إلى الخصال الحميدة التي كان يتميز بها المقيم العام

وإلى الحظوظ التي قد يُوفرها هذا الرجل لإخراج الصداقة الفرنسية - المغربية من الوحل الذي أغرقت فيه.

تحول الحركة الوطنية إلى حزب سياسي له صحافته ونشاطه

من مجرد حركة رأي في البداية، تحولت الحركة الوطنية إلى حزب سياسي، وحينما زعمت سلطات المراقبة أن هذا التحول مناف تماما للقانون المنظم للجمعيات، رد زعماء الحركة الوطنية بأن سطيگ «سمح بإنشاء أحزاب سياسية فرنسية في المغرب، فما أبيح للفرنسيين، لا يمكن حظره على المغاربة».

وكان أنشط الوطنيين، آنذاك، محمد بن الحسن الوزاني، القادم لتوه من جنيف حيث كان سكرتيرا لشكيب أرسلان. واقتداء بأستاذه، راهن على نجاعة الصحافة والشأن المكتوب، إذ أصدر في 4 غشت أول عدد من أسبوعيته الناطقة بالفرنسية وهي "عمل الشعب"، وهو ذاته مديرها ورئيس تحريرها، أما صحيفة "الدفاع" الناطقة بالعربية فكانت خاضعة لنفوذه، وصدرت بعد ذلك صحيفتان أخريتان هما "المغرب" بسلا و"الأطلس" بالرباط.

لقد نددت صحافة الحركة الوطنية بالظهير البربري، إلا أننا نستشف من خلالها أن هذا الظهير لم يكن يمثل همها الأساسي، لقد كانت أهم المواضيع التي تناولت تتعلق بالحريات الديمقراطية (حق التجمع وحق تنظيم الجمعيات والإصدارات والمساواة ورفض التنجيم وحق التمدريس والفلاحة)، وشينا فشيئا أفرزت هذه المطالب والمناقشات رأيا واضح المعالم. وبتزكية من أحمد بلفريج ومحمد الفاسي ساندت الجمعيات الطلابية لشمال إفريقيا بباريس وقدماء تلامذة الثانويات الإسلامية بالمغرب، بكل قواها، الحملات التي كان ينظمها محمد بن الحسن الوزاني. وبايعاز من شكيب أرسلان - الذي كان يرى أن الحركة النضالية لن تتجح بفتح جبهات متعددة في نفس الآن تقرب الوطنيون الشباب من السلطان بعدما شجبوا بشدة موقفه في 1930، ومن ثمة حاولوا كسب مساندته أو على الأقل تعاطفه، ودافعوا عنه منددين بوضعية التهميش والانزواء التي يوجد فيها كما عاهدوه على الإخلاص والوفاء، وهو خطاب فاجأ السلطان وسره في نفس الوقت.

وفي سياق هذا التقارب طرحت جريدة "عمل الشعب" فكرة الاحتفال بعيد العرش احتفاء بذكرى جلوس السلطان سيدي محمد على العرش، وهي المبادرة التي فاجأت الإقامة العامة غير أنها رضخت للأمر، وبذلك أصبح للمغرب عيد وطني يحتفل به كل سنة في جو حماسي في الحواضر على وجه الخصوص.

وبعد بضعة شهور لقيت عناوين الصحافة الأمير الصغير مولاي الحسن بـ "أمير الشباب" و"أمير الأطلس" واقترحت أن يصبح رسمياً ولياً للعهد، فاعترضت الإقامة على هذا الاقتراح بدعوى أنه مخالف للأصول. وهو رد معقول جداً وصحيح. أما السلطان فلم يدل بشيء في الأمر غير أنه أعجب بالفكرة لا لأنها تتضمن انتقال العرش لابنه فقط، بل لأنها، كذلك، سوف تساعد على تكوين خلف مدرب لن يجد نفسه في الوضعية التي وجد هو فيها إثر وفاة والده، حيث أن سيدي محمد لم يكن مهيناً للمهمة التي أنيطت به بشكل فجائي يوم 18 نونبر 1927، فلو كان الأمر عكس ذلك لما ختم - حسب ظنه - ظهير 16 ماي 1930 أو على الأقل لما صادق عليه بالشكل الذي صدر به.

وكان الشباب المنضوي تحت راية الكشفية الإسلامية من قراء جريدة "عمل الشعب" المتحمسين¹⁸، كما كان هؤلاء يقولون إنهم عرب ووطنيون يرفضون كل علاقة مع الكشفية الفرنسية خشية الاحتواء أو الإدماج l'assimilation، ولهذا حذوا حذو الكشفية الإسلامية بالشرق الأوسط بإنشاء تنظيمات شبه عسكرية، ففي 27 دجنبر 1933، وافق السلطان على طلب كشفية الرباط الذي يتجسد في أن تنظم هذه الكشفية تحت رعاية الأمير الشاب مولاي الحسن، وسمح لها كذلك بأن يحمل الفرع اسم: "الكشفية الحسنية".

لقد نهج الوطنيون تكتيكاً يكمن في استغلال كل الظروف - مهما كانت - لتعبئة الجماهير من خلال شن حملات وتنظيم مظاهرات في الشوارع وذلك للتعريف بأنفسهم، وقد نجحوا بالفعل في بلوغ هدفهم. وهكذا احتجت "عمل الشعب" بشدة حينما تقرر فصل المغرب عن

¹⁸ - كانت توجد في 1930 ثلاث مجموعات 100 كشفاء بطنجة و 10 بالدار البيضاء و 90 بالرباط وفرعين في طور التأسيس بفاس ومراكش .

التبعية لوزارة الخارجية ليصبح في فبراير 1934، عهد حكومة دالاديي Daladier، تابعا للوزارة الجديدة التي تعنى بأقاليم "فرنسا ما وراء البحار". فكتبت «إن إدماج المغرب ضمن المستعمرات يعتبر مساجديا بمعاودة 1912 وهو كذلك مس بالسيادة، وبشخص السلطان!»، وحينما سقطت حكومة دالاديي - بعد مدة - وألحق المغرب مجددا بوزارة الشؤون الخارجية، تحدثت "عمل الشعب" لغة نشوة الانتصار زاعمة أنها أنقذت الوطن والسلطان!.

حوادث فاس (ماي 1934)

في شهر أبريل قام السلطان وحاشيته المخزنية بزيارته السنوية المعتادة لمكناس واستوفت هذه الزيارة شهرا كاملا، ومن هناك كان سينطلق إلى فاس. وعندما علم مديري السيد بينازي Benazet بالمظاهرات التي ستتظم هناك، طلب مني، بصفتي رئيس القسم السياسي، الالتحاق بمكناس والاتصال بالصدر الأعظم، وذلك قصد الحصول من السلطان على تعليمات دقيقة مفادها الحفاظ على النظام العام بفاس أثناء زيارته لها. فلم أكن في حاجة لإقناع الصدر الأعظم لكونه منحدر من فاس ويعرف أحسن من غيره سكانها المشاغبين والمشاكسين، لذا عملت جاهدا على إقناع السي المعمري أكثر من السي محمد المقري، فأخبرني السيد المعمري أن السلطان على علم بما يحاك هناك، وأنه يريد أن تمر الزيارة في هدوء وسكينة وقد أصدر أوامره لمن يهمهم الأمر. وختاماً يمكنني إذن الرجوع إلى الرباط مطمأن البال مبلغا الإقامة بالإجراءات المزمع اتخاذها.

وفي يوم 8 ماي دخل السلطان سيدي محمد إلى مدينته فاس دخولا احتفاليا وسط هتافات الجماهير الحاشدة، إلا أنه وبدخل الشبيبة انقلبت أجواء الفرح والولاء إلى شغب شعبي، تعالت فيه هتافات، "يحيى الملك ويحيى الإسلام، وليحررنا مولانا" "لتسقط فرنسا!" وتم الاعتداء على باشا فاس وكذا تمزيق العلم الفرنسي، وبعد ذلك مر المتظاهرون أمام مقر القائد العام للمنطقة ملوحين بشعارات مناوئة. لقد اختار الوطنيون الشباب عن قصد - في الواقع - عدم احترام التعليمات لإشعال فتيل الغضب لكي يدان السلطان، وعندما يأتي رد فعلنا تتعالى أصوات التنديد شاجبة الاضطهاد والتنكيل. أما السلطان فكان، في آن واحد، مرعوبا

وساخطاً عما آلت إليه الأمور، ومتضائفاً من الصعوبات التي ستتولد عن هذه الورطة من الجانب الفرنسي، وفي نفس الوقت كان مسروراً وفرحاً بالاحتفاء الجماهيري الذي لقيه بعدما كان يظن أنه غير محبوب أو منبوذ منذ صدور الظهير البربري. آه ما أحلى وما أعظم الإحساس بالنشوة والفرح حينما نعانق الحماس الجماهيري بعدما يئسنا من لقياء. وأمام هذا الوضع لا يسعنا إلا أن نننهر أمام مهارة ودهاء الوطنيين. وفي هذه اللحظة كان هنري بونصو في مهمة بباريس وكان يخلفه مؤقتاً في الإقامة هيلو Helleu، وكان على هذا الأخير أن يرد الفعل ويتحكم في زمام الأمور، فطلب من السلطان الرجوع إلى الرباط، وأصدر الصدر الأعظم المذكرة التالية: «إن جلالة السلطان الذي يريد الحفاظ على الصداقة الفرنسية، سيغادر في هذا اليوم مدينة فاس للالتحاق بالرباط، وذلك استككاراً لأعمال الشعب وتسجيلاً لاستيانه مما حصل".

وإثر ذلك تم حظر جريدة "عمل الشعب" كما منعت مجلة "المغرب" الصادرة بباريس وجريدة "الحياة" ومجلة "السلام" الصادرتين بتطوان من الدخول إلى المناطق الفرنسية.

مدعمو الحركة الوطنية المغربية

كانت الحركة المغربية تتلقى مساندة قوية من باريس، إذ أسس المحامي روبيير جان لونغي ابن البرلمانى جان لونكى مجلة شهرية وثائقية تعنى بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية المغربية، وكان يساهم فيها:

من الجانب الفرنسي: فرانسوا البير وكاستون بيرجوري وجان لونكى وببير رونديل وفرانسوا دو تيسان وإدوار دُبرو، وإيف فارغ وجورج موني وجان بيو وأندري بيرطون وهنري كلير وسيزار كامبيتشى وكابريال كودنى وفيليسيان شالاي ولوي رويو وأندري فيولي وماكدولين باز.

ومن الجانب الإسباني: دو لوس ريوس وزير التعليم بمرديد والصحافي أرخيللا.

ومن الجانب الالمغربي ساهم: محمد بن الحسن الوزاني وأحمد بلعريج
ومحمد اليزيدي و عبد اللطيف الصبيحي وعمر بن عبد الجليل ومحمد
الخطي والمكي التناصري والحسن بوعباد.

وفي 1933 عرض جورج موني، بسداجة، على الوطنيين الانضمام
إلى الحزب الاشتراكي، فجاء الرد واضحا على صفحات "عمل
الشعب" عدد 25 غشت 1933، على لسان محمد بن الحسن الوزاني،
يقول «ألا يعتبر انضمامنا إلى هذا الحزب بمثابة استيعاب أو احتواء؟
ونحن نناهض كل أنواع الاستيعاب والاحتواء». وتجدر الإشارة إلى أن
الفيدراليات المغربية لأحزاب اليسار الفرنسي، اشتراكية أورانيكالية،
كانت ضد كل مساعدة تأتي من شخصيات فرنسية يسارية للشباب
المغربي.

توقفت مجلة "المغرب" عن الصدور شهورا بعد منع دخولها
المغرب، وعوضها روبري جان لونغي في 20 يونيو 1936 بنشرة
"المخبر المغربي L'informateur Marocain" التي لم يصادفها
النجاح.

برنامج الإصلاحات المغربية

ولما اشتدت سوادهم سواء عبر المناقشات والممارسة أو عبر
إرشادات واستشارات أصدقائهم الفرنسيين أو عبر أبيهم الروحي شكيب
أرسلان، أنشأ عشرة شبان "لجنة العمل المغربي" Le comité
d'Action Marocaine، وأعدوا برنامج الإصلاحات الذي طبع
بالعربية في القاهرة في شتتبر 1934، وبالفرنسية في نونبر من نفس
السنة. وقد سلم هذا البرنامج:

- إلى وزارة الشؤون الخارجية بباريس وقدمه البرلمانيون جان
لونغي وجان بيو وبول رونوديل وفرانسوا دي طيسان.

- وإلى السيد هنري بونصو على يد علال الفاسي ومحمد الديوري
ومحمد اليزيدي.

- وإلى السلطان وأوصله عبد العزيز بن إدريس وأحمد الشرقاوي
ومحمد غازي وأبو بكر القادري.

أما الموقعون على ذلك البرنامج فهم:

- عمر بن عبد الجليل وهو من عائلة فاسية عريقة، حرفته مهندس زراعي وهو أخ الفرنسيكاني جان بن عبد الجليل وثقافته فرنسية؛

- محمد الديوري وهو صاحب مصنع ببور ليوطي (القيطرة حاليا) متزوج بفرنسية من السينغال وله ثقافة فرنسية؛

- محمد بن الحسن الوزاني من عائلة فاسية وثقافته فرنسية؛

- عبد العزيز بن إدريس من قدماء التلاميذ، ثقافته عربية؛

- محمد الشراقوي من عائلة متواضعة تسكن الرباط وثقافته عربية؛

- علال الفاسي من فاس وثقافته عربية؛

- محمد غازي كتيبي، ثم مدير مدرسة بسلا وثقافته عربية؛

- محمد المكي الناصري وهو من عائلة محترمة من الرباط، درس في القاهرة لذا كانت ثقافته عربية.

إن هذا البرنامج، الذي سيأتي تحليله في آخر هذا الكتاب، كان جد متكامل مقارنة مع ذلك الذي قدم للأسبان من طرف الحاج عبد السلام بنونة. إنه عبارة عن مزيج بين اتجاهات ديمقراطية وأخرى دينية مستوحاة من السلفية والوهابية الجديدة ومن الإصلاحية الدينية والاجتماعية. يقول هنري بونصو الذي درسه بإمعان، وكان لا يستخف به، إن هذا المزيج يستحق أن يكون موضوع لكتواره في الحقوق.

وفي الختام، فخاصية الوطنيين أصحاب البرنامج أنهم يتحدثون عن الإصلاحات وليس الاستقلال ونستشف من خلال السطور أنهم يتمنون أن تتطور الحماية إلى انتداب Mandat، ولم يتجاوزوا هذا الحد في تلك اللحظة على الأقل، إذ لم تذكر كلمة استقلال إلا أثناء الحرب الكونية الأخيرة.

وبعد هذه المرحلة بدأ تأثير محمد بن الحسن الوزاني يتراجع، بينما تطورت مكانة علال الفاسي، الذي خشي إثر تحركه الكثير مغبة الاعتقال والحبس فسافر إلى إسبانيا حيث لقي حسن الاستقبال. وكنت لا أحبذ فكرة وجوده بالخارج لأن ذلك سيجعله عرضة لكل التأثيرات

وخصوصا تلك التي تحمل بصمات شكيب أرسلان، فلما شاطرني المقيم العام هذا الرأي، أخبرتُ هذا المنفي، باختياره، أن بإمكانه الرجوع إلى المغرب دون خوف ولا خشية، فاقننـع بالفكرة وزارني مرتين ليـشكرني على مبادرتي. ومن جهتي لم أطلب منه أن يكف عن نشاطه بل ناشدته أن يتحلى إزاعنا بموضوعة أكثر مما كان عليه الأمر سابقا، بالرغم من أنني لم أكن أتوخي الكثير من وراء هذا الاقتراح. لقد اتضح أن علـال الفاسي خطير جدا سواء كان في المغرب أم خارجه. وقد انهمك - بسرية ونجاح تامين - في تأسيس حزب وطني تقليدي عربي ومسلم أكثر من حزب محمد بن الحسن الوزاني، الذي تخلى عنه عدد لا يستهان به من أصدقائه.

انحراف الشبيبة المغربية

ومما لا شك فيه، أن الشبيبة المثقفة، سواء التي حصلت على تكوين تقليدي إسلامي، أو تلك التي تعلمت في المدارس والثانويات الفرنسية - الإسلامية، كلها كانت تحت جاذبية الأطروحات الوطنية، فكانت ترى بالطبع الفئات التي سبقتها تعاني من البطالة، إذ حرمت من الوظيف في إدارة الحماية ومن الاشتغال في الإدارة الشريفة. فالوظائف المخزنية المهمة كانت حكرأ على بعض العائلات القوية كالشرفاء العلويين أقرباء السلطان وعائلة المقرري والتازي والحجوي ومولين والناصري وبركاش والصبيحي والگلاوي... فتجاوز الصدر الأعظم محمد المقرري سن الثمانين ولم يفكر بعد في التقاعد، وكذلك الأمر بالنسبة للوزراء الآخرين. ومن ناحية أخرى كانت سلطات المراقبة تعارض توظيف شباب المدن في دواليب السلطة بالحواضر (الباشويات) أو بالبوادي (القيادات)، وذلك بدعوى أن هذا الشباب يستخف بالحماية ويحتقرها، وهكذا سدت كل منافذ التشغيل في وجه المغاربة من العصريين أو الذين كانوا في طريق العصرية، فلا غرابة إذن أن يتسرب الإحباط، وهو مركب نقص خطير في نظر ليوطي، إلى نفوس الشباب ويكبر أكثر فأكثر.

وبعدما ذاق الشباب طعم المرارة واليأس والبطالة، بدأ يتعاطى بنهم إلى قراءة الكتب الفرنسية أو العربية الصادرة عن مطابع الشرق الأوسط. ففي نظرهم لا حل لمشاكلهم سوى الاستقلال، فالحرية كفيـلة

بأن تجعلهم يساهمون بكل كرامة في نهضة الإسلام وإعادة الاعتبار للعروبة التي يطرحها شكيب أرسلان كهدف، والتي قد تتجسد أمام أعينهم على أرض الواقع في بلدان جنوب حوض البحر المتوسط. لقد كان هؤلاء الشباب يؤمنون بقوة الكلمة، لقد كانوا شغوفين لمهمين حتى الإشراق.

وقد انبهر الآباء أمام المعركة التي دخلها أبناؤهم، كما انتابهم، في آن واحد، الذعر والحزن والاعتزاز: فالذعر راجع لما قد ينتج عن مواقف أبنائهم المتصلبة والواضحة، أما الشعور بالحزن فسيبه اضمحلال السلطة المطلقة التي كانت تميز الآباء في الماضي القريب، بينما الاعتزاز راجع لكون هؤلاء الشباب يمارسون الكتابة والطباعة ويناقشون بكل طلاقة قضايا لا يفقه منها الآباء إلا القليل، وزاد من تدمير الشباب المغربي الوضع اللامتكافئ داخل خلية الأسرة التي كانت تتميز بطابع بطريركي تقليدي. فبدأ مشكل الزواج يطفو على السطح: فالشباب المغربي المتعلم لا يرضى أن يتزوج بشابة غير مثقفة أو أمية ولو كانت من شريحته الاجتماعية، بل كان يطمح أن تكون شريكة حياته قادرة على مساعدته وعلى فهمه وأن تقاسمه تطلعاته، لكن وفي غالب الأحيان لم تكن العقلية مهينة لتساند مشاريع تعليم المرأة العصري، فعندما قرر السيد الفاطمي بن سليمان - وهو منحدر من أسرة مخزنية جيدة، وهو أيضا صهر المرحوم الكباص الصدر الأعظم - تسجيل بنتيه كداخليتين بثنائية الرباط للفتيات، اعتبر الأمر بمثابة فضيحة شنعاء. وكان السي الفاطمي، وقتها، يقبع في منصب متواضع¹⁹ كأمين للجمارك في مدينة مازاكان (الجديدة)، وكان السلطان في مثل هذه المواقف يكتفي بالملاحظة دون أن يتخذ موقفا صريحا، فلكونه هو نفسه من فئة الشباب، كان من الطبيعي أن يتعاطف مع تطلعات الشباب مثله لكن السرعة التي كانت تتطور بها الأمور كانت تثقله، فبقي في حالة تردد وحيرة.

زد على ذلك أن الشبان كانوا متشددين، متعصبين لأرائهم وسريعي الغضب فكانت العلاقات معهم جد صعبة وشائكة وميؤوس منها. فقد

¹⁹ - منحت الحماية منحة دراسية لابنتيه، وبعد جهد جهيد استطاعت أن تعينه خليفة لباشا مكلاس، وأصبح بعد ذلك مندوبا للصدر الأعظم في التعليم، وبعد ذلك باشا مدينة فاس، فعاملا على الإقليم.

حاولت الاتصال ببعض الوطنيين، لا للحد من نشاطهم، وإنما للتعرف عليهم ومحاولة فهمهم وحثهم على الاتصال بي بدون حرج كلما دعت الضرورة لذلك أو كلما رغبوا في مناقشة ممثل السلطة الفرنسية. واستقبلت مرات عديدة ،في وقت الشاي ، محمد بن الحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل وعبد اللطيف الصبيحي ومحمد اليزيدي وآخرون أقل شهرة، فكانت المحادثات تمر في جو ملؤه الاحترام، إلا أنها كانت عقيمة. لقد كان محاورى يتمتعون بذاكرة قوية، إذ كانوا يستظهرون فقرات كاملة من برنامج الإصلاحات أو من مقالات من مجلة "المغرب" وكأنهم يتلون آيات قرآنية، وبين الفينة والأخرى ينطق أحدهم في حماس «لقد قال لونكي...»، إذ كانوا لا ينصتون بثأنا لأجوبتي وردودي. ففي مثل هذه الظروف يصبح كل حوار أو تفاهم معهم عقيما وبدون جدوى. ورغم ذلك كله كان بإمكانى متابعة استقبالهم لو لم ينشروا على صفحات مجلة "المغرب" تغطية لحواراتنا بعد تحريفها حيث أريد لي أن ألعب دورا باهتا.

ومن حسن الحظ، كنت قد اتخذت الاحتياطات اللازمة، إذ ارتأيت أن يحضر كل لقاءاتنا القبطان دوبليسوس دي كرينيان لكى يدلي بشهادته إن اقتضى الحال. ولم أفاجا كثيرا لما آلت إليه الأمور، لكن هذه المخالفة السافرة لقواعد اللعبة أجبرتني على قطع الصلة مع محاورى، لقد تعكر الجو العام على إثر هيجان الوطنيين، وهو ما منع هنري بونصو من إدخال برنامج التقارب والتقويم حيز التطبيق.

وفي هذه الظروف اشتد غضب الساكنة الفرنسية وتزايد قلقها، فصارت تعاتب المقيم العام على قلة صرامته وقلة حزمه، وعرفت العلاقات بين الفرنسيين والمغاربة تدهورا خطيرا، أتذكر هنا مقالا لموريس لوغلي Maurice Le Glay صدر، على ما أظن، في جريدة لا فيجي ماروكين La vigie Marocaine، كان على صاحب المقال - عكس ما حصل - أن يلعب دور المعتدل المتعقل نظرا لسنه الموقر ومكانته المتميزة، ففي حوار ساخر له يرد على وطني شاب قائلا ما فحواه «أتريدون الحكم الذاتى؟ فليكن لكن قبل ذلك عليكم أنتم المغاربة أن تتعلموا كيف تضعون الفاطرة حتى لا أكون ملحاحا بطلب المستحيل، بل مجرد إبرة بسيطة، بمعنى آخر عليكم أن تتعلموا كيف تديرون الحديد

حول ثقب صغير، وسلّ بعد ذلك إبرة من معطفه واضعاً إياها باستهزاء - حسب قوله - أمام أعين محاوره المذعور المنبهر...». إنها أنجع طريقة لمحاورة هؤلاء الشباب، كما يظن بعض الفرنسيين، «أنستحق كل هذا الاحتقار والذل، يرد كل المغاربة العصريون بصوت واحد، إنهم يعتبروننا قاصرين لا قدرة لنا على التطور، إننا عرضة لكل هذا ونحن فوق أرضنا، وفي الحقيقة هذا أمر لا يطاق».

وبالإضافة إلى هذه الصعوبات السياسية، واجه هنري بونصو أيضاً صعوبات اقتصادية جمة، حيث أدى الكساد الذي عرفه العالم إلى تدهور الأوضاع بالمغرب. لقد ركذ عالم الشغل وتدنّى حجم الصادرات على مستوى المواد الفلاحية، وعلى إثر ذلك تظاهر المعمرون الفرنسيون احتجاجاً على تراكم ديونهم إزاء الدولة وتجاه الأبنك على وجه الخصوص، وطالبوا مساعدات مالية وتأخير رد الديون إلى أجل لاحق، كما طالبوا أيضاً بإعفاءات ضريبية جديدة، وبهذا قدموا لصحافة الوطنيين حججاً ودلائل سهلة. هكذا كانت مهمة هنري بونصو معقّدة وجد صعبة، وبالرغم من ذلك فهي لم تخل من أمور تدعو إلى الارتياح.

بقي العالم القروي ساكناً سواء كان ذلك في السهول أو الجبال وتواصلت تهيئة المغرب وبلغت نهايتها في أوائل 1934 بإخضاع المنطقة الغربية للأطلس الصغير واستسلام قبائل آيت خباش وآيت حمو. تلك القبائل التي تراجعت أمام تقدمنا المتتالي من نواحي تافيلالت إلى شواطئ المحيط الأطلسي - وكذلك التوصل إلى الربط بين القوات المغربية والجزائرية والموريتانية في ناحية تندوف. ويسخر البعض اليوم من وزارات الجمهورية الثالثة لكونها كانت تابعة للأحزاب، وبالتالي كانت غير قادرة على فرض آرائها، إذ لم ترقى إلى اتخاذ القرار والعمل على تنفيذه. لكن غير القادة عن الوطن تثير صعوبات، وفي أن واحد، تجعل رجالاً من تيارات متعارضة يتحدثون لفترة ما قصد تحقيق أهداف محددة. لقد اقترح السيد ماجينو M. Maginot وزير الحرب والجنيرال وكان Waygand رئيس أركان الحرب، منذ زمن طويل، القضاء على بؤر التوثر والعصيان في المغرب، فقد كان الرجلان ينتميان إلى اليمين، وبالرغم من ذلك بقي البرلمان متردداً بهذا الصدد والحكومة منقسمة. وأمام هذا الوضع، اضطر، في الأخير، السيد

جوزيف بول بونكور، وزير الشؤون الخارجية الاشتراكي وهو المسؤول المباشر عن المغرب، أن يوافق على عمليات سنة 1934 بغرب الأطلس الصغير والهضبة السفلى لواد درعة، ولم يتخذ هذا المنحى إلا بعدما درس هذا الملف دراسة مستفيضة، وبعد استشارة الجنرال كاترو Catroux رئيس جهة مراكش، والتف بعد ذلك زملاؤه حول هذا القرار، وبهذا اختتمت عملية تهذبة المغرب الطويلة والشاقة.

لقد قامت فرنسا أحسن قيام بكل المسؤوليات الملقاة على عاتقها منذ معاهدة 1912، وعانت الأمرين ودفعت الثمن باهضاً، في شكل أموال طائلة ودماء كثيرة، إذ توفي أكثر من 600 ضابط فرنسي، وذلك من أجل إهداء السلطان الشاب سيدي محمد امبراطورية موحدة، مهندنة. إنه وضع لم تعرفه البلاد منذ عهد الموحدين (القرن الثاني عشر)، وبدأ الازدهار مع رجوع للسلم والأمن، وأصبح سكان الحواضر ينتقلون في البوادي دون خوف، كما بدأت التجهيزات العصرية تغزو البلاد، موفرة المنفعة والخير للجميع سواء تعلق الأمر بالمغارية أو بالفرنسيين، وتم استغلال الثروات الطبيعية بسرعة فائقة، كما تم الشروع في القضاء على الأوبئة بفضل جهد وتفاني أطبائنا، وقد فقدنا البعض منهم أثناء مزاولتهم لواجباتهم النبيلة. فمثل هذه الوقائع والأحداث الصريحة والواضحة والملموسة تشفع بكيفية وافرة لكل الهفوات والأخطاء المرتكبة والتي لم نسع إلى إخفائها أثناء هذا العرض.

وحسب تقديرات باريس، لم يكن هنري بونصو - رغم أنه محلل ماهر - الرجل القادر على اتخاذ القرار والرجل الفاعل والملائم لوضع المغرب، كما أن تأثيره على السلطان وعلى الحكومة الشريفة كان جد هزيل وكان عرضة لانتقادات الاستعمار الفرنسي، ونتيجة هذا كله تقرر إيجاد بديل له، فأسفت كثيرا لذهاب هذا الرجل.

تحليل المستويات الرئيسية لبرنامج الإصلاحات المغربية

I- الإصلاحات السياسية

إعادة تنظيم الحكومة المغربية التي تضم الصدر الأعظم ورئيس الحكومة ووزراء الداخلية والعدل المغربي والمالية والاقتصاد والتعليم

العمومي ووزارة الاتصال والأحياس ووزارة الصحة العمومية، ويمكن أن ينضاف تقنيون فرنسيون إلى كل وزارة من تلك الوزارات.

- إعادة تنظيم الإدارة العليا للحماية وتشكل من:

• الإقامة العامة،

• نائب أو مندوب الإقامة *Délégué de residence*،

• الديوان المدني والديوان العسكري والديوان السياسي والديوان الدبلوماسي،

• مصلحة المراقبة العامة ومن اختصاصاتها تمثيل المقيم لدى السلطات المغربية في المناطق المدنية، وكذلك الأمر بالنسبة للمناطق التي تدبر شؤونها السلطات العسكرية،

• المدير العام للشؤون الشريفة يكون مستشارا للحكومة الشريفة، وفي الوقت ذاته صلة وصل بينها وبين الإقامة العامة.

- المساواة بين الموظفين الفرنسيين والمغاربة.

- إنشاء مجالس بلدية للتداول خاصة بالمغاربة (المسلمين واليهود) ومجالس الدوائر والمقاطعات وغرف اقتصادية جهوية ومجلس وطني ينتخب على مرحلتين عبر الاقتراع باللوائح، يرفع هذا المجلس توصياته واقتراحاته إلى جلالة السلطان الذي له واسع النظر في اتخاذ القرارات.

- تمتيع المغاربة بالحريات الخاصة والعامة.

II- الإصلاحات القضائية

- تأسيس نظام قضائي مغربي موحد يشمل تراب الحماية برمته²⁰.

- إعداد قانون مغربي موحد مستوحى من الشرع الإسلامي²¹.

²⁰ - وبالتالي يطال المحاكم العرفية التي تهتم بقضايا القبائل البربرية.

²¹ - نفس الملاحظة سابقة الذكر .

- استبدال تسمية "المحاكم الفرنسية" بالمحاكم الفرنسية - الشريعة لأنها تنطبق بالأحكام باسم جلالة السلطان وباسم رئيس الجمهورية الفرنسية في آن واحد.

- الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية، دون المس بصلاحيات جلالة السلطان²²

III- الإصلاحات الاجتماعية

- التعليم المجاني والإجباري لكل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 6 و12 سنة.

- إنشاء العدد الكافي من المؤسسات الثانوية.

- إنشاء باكالوريا مغربية تعادل البكالوريا الفرنسية.

- تأسيس معهد عالي مغربي يتكون من ثلاثة مسالك (الحقوق - الآداب - الطب والصيدلة).

- إنشاء مدارس ابتدائية للفتيات في كل المدن المغربية، يركز التعليم فيها بالأساس على الثقافة العربية الإسلامية.

- تطبيق المعاهدات الدولية التي تهم الشغل على العمال المغاربة.

IV- الإصلاحات الاقتصادية والمالية

- تأميم المعادن والسكك الحديدية والنقل والطاقة الكهربائية ومؤسسات القرض وبنك الدولة.

- إدماج أكبر عدد من العناصر المغربية في كل المجالس والهيئات المتدخلة في استغلال ثروات البلاد.

- إلغاء النصوص والدوريات التي تعتبر نزع الملكية لفائدة المعمرين نزعا من أجل المصلحة العامة.

22- لم يسبق - حسب معلوماتي - أن أطلق رسميا على المحاكم العصرية اسم المحاكم الفرنسية باستثناء ما كان يرد في الصحافة.

- إعطاء الفلاحين مساحات لا تقل عن 10 هكتارات بورية تكون ملكا مشروعا لهم ولعائلاتهم.

٧- الإصلاحات الخاصة

- إبطال الظهائر والقرارات والدوريات الإدارية المنظمة للعدالة والعدل في القبائل المسماة بالعرفية.

- منع كل حملات الدعاية التي تهدف إلى التبشير في أوساط الساكنة المسلمة بالمغرب.

- اللغة العربية هي اللغة الرسمية للإمبراطورية الشريفة.

الفصل الخامس

مارسيل بيروطون مقيم عام لسته أشهر فقط (1936)

حل السيد مارسيل بيروطون مكان سلفه السيد هنري بونصو، وكان المقيم العام الجديد مقيما عاما سابقا لفرنسا بتونس حيث تعامل مع الأمور بيد من حديد، كما سبق أن شغل منصب الكاتب العام للجزائر، وهذا ما جعل منه رجلا ذو دراية كبيرة بمشاكل وشؤون إفريقيا الشمالية. اشتهر بيروطون باتتمانه اليميني رغم أنه كان صهرا لملافي Malvy الوزير السابق. وعلى كل حال، لقد كان رجلا قاسيا عنيفا مباشرا، قويا يحب المجهود العضلي. ولم تتجاوز مدة إقامته بالمغرب ستة أشهر، حيث ترك منصبه بعد انتخابات 1936 التي أوصلت حكومة الجبهة الشعبية إلى السلطة، فحال ذلك دونه ودون إبراز قدراته في هذا البلد، وأهم ما تميز به كان هو إعادة ربط علاقات متميزة بين جلالة السلطان سيدي محمد وبين الإقامة العامة. إذ بين الفينة والأخرى كان يتصل عبر الهاتف - دون سابق إعلام - مع القصر الملكي للحصول على موعد ثم يصل إلى المشور على متن سيارة يقودها بنفسه ويأخذ معه السلطان في جولة بنواحي الرباط توصلهما أحيانا إلى البيضاء، وأثناء الرحلة - كان يقود سيارته بسرعة فائقة. وكان يخوض مع سيدي محمد في دردشة حرة، فكان السلطان معجبا بانفعاله وجانبه الشاب وسلوكياته التي تتسم باللامبالاة، الشيء الذي ينسبه حفل البروتكول وجمود الرسمية التي ضاق بمرارتها منذ توليه العرش.

أما فيما يخص الوطنيين، فقد تعامل مارسيل بيروطون معهم بصرامة وتساهل في آن واحد، ففي 18 أكتوبر كان من المقرر أن تحتضن مدينة فاس المؤتمر السنوي لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين وافق المقيم العام مبدئيا على المؤتمر، إلا أنه اقترح أن يتم

عقده بالرباط عوض فاس، المدينة الحساسة والمضطربة، فرفضت الجمعية هذا المقترح وحولت الوجهة، حيث انعقد المؤتمر بتطوان بحضور الخليفة والجنيرال أوركاز، المنسوب السامي الإسباني، ولوحظ غياب وطنيي المنطقة الفرنسية.

الفصل السادس

نجاح مهمة الجنرال نوجيس

1943 - 1936

الجنرال نوجيس، طبيعته ومميزاته

الجنرال نوجيس هو سادس مقيم عام لفرنسا بالمغرب وهو مغربي قديم ومن تلامذة المقيم العام ليوطي. استقبل يوم وصوله إلى الرباط بحرارة من طرف جزء هام من الرأي العام الفرنسي.

لقد خلف السيد مارسيل بيروطون بعد ذهابه نوعا من الحسرة والأسف خصوصا وأنه لم يتوفر على الوقت الكافي لإبراز قدراته. وقد عابت فئات اليمين على نوجيس تعيينه من قبل حكومة الجبهة الشعبية، وبما أنه لم يكن من الممكن نعتة باليهودي، فقد لقب بالماسوني Franc maçon وقيل أن في عهده كانت كل التخوفات واردة، وبالفعل كان الأمر مألوفاً؛ إذ كلما أراد وزير يساري تقديم تنازلات على المستوى الوطني، فإنه يكلف شخصا عسكريا بذلك. فبقبوله لهذه المهمة يكون نوجيس قد أخل بشرفه خصوصا وأنه عسكري تكون في مدرسة الماريشال...

لم يكن نوجيس خطيبا، إذ كان يتكلم بصوت رتيب وغير واضح، فيبدو وكأنه جاف بارد وفاتر. أما شخصيته فتعبر عن رجل رصين متعقل متستر وكثوم، وكان هذا الجنرال يعرف ما يريد، فبإمكانه أن يتلاءم ويحاور بكامل المرونة عندما تقتضي ذلك الضرورة، علما أنه يرجع دائما ودون هوادة إلى الهدف الذي رسمه بعدما يسلك كل الطرق الملتوية. لقد كان يتوفر على ثلاث خصال ذات أهمية لرجالات الدولة: المزاج، الشجاعة والنزاهة، إذ كان يجيد بامتياز المحادثات الخصوصية والنقاشات داخل اللجان المصغرة والدرشة حول مائدة الطعام، ففي هذه

الحالات يكون أكثر ارتياحا من حالات مواجهة العموم، وكان يملك القدرة على الإقناع وحمل معارضيته المتشددين على تغيير آرائهم.

كان نوجيس واعيا كل الوعي بالموقف العدائي للساكنة الفرنسية، فعمل جاهدا للتغلب على خصومه دون تملق ولا نفاق لكونه كان يعلم أن على المقيم العام لفرنسا بالمغرب أن لا يذهب ضد مجرى الرياح متعارضا في عمله مع الرأي العام المكون من مواطنيه. وقد نجح في ظرف وجيز في تذويب العراقيل، عن طريق مضاعفة الاتصالات واللقاءات - كلما أتاحت له الفرصة - في الرباط أو الدار البيضاء أو أثناء تنقلاته المتوالية داخل البلاد، لقد كان هدفه هو أن يكسب احترام وثقة أغلب الفرنسيين وبالفعل تمكن من ذلك.

كما رأى أيضا أن لا يكون السلطان مجرد حليف بل صديقا حقيقيا. وفي نفس الوقت لم يهمل أعضاء المخزن، إذ ربط علاقات مع عدد من وجهاء مدينة فاس، العاصمة الثقافية البرجوازية العتيقة، التي لا زالت بالغة التأثير رغم ركودها الاقتصادي، ونجح في هذه المهمة الصعبة التي فشل فيها إلى حد ما جلّ سابقيه منذ ما بعد ليوطي.

وبعد تهيبء المناخ العام، أراد أن يذهب قدما إلى الأمام في إشعاعه لو لم تزعجه، لمدة، اضطرابات وهيجان الوطنيين.

مضاعفة نشاط الوطنيين

في أكتوبر 1936 طالب محمد بن الحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل من السيد بيار فينو P. Vienot نائب كاتب الدولة في الشؤون الخارجية، التطبيق الفوري لمشروع الإصلاحات المغربية، فلم يتلقيا إلا جوابا مهذبا، بغرض المماطلة.

لقد خاب ظن الوطنيين من جراء الموقف المحتشم الذي اتخذه أصدقاؤهم الاشتراكيون، وفي ذات الوقت اكتشفوا أن تحركاتهم وحملاتهم الإعلامية لم تعط أكلها، وعلى إثر هذا قرروا التصعيد والعودة للاضطرابات والهيجان. ونظمت "كتلة العمل المغربية" Le comité d'action marocaine مؤتمرات بالرباط وفاس وسلا، وترأس علال الفاسي إحدى هاته التظاهرات بفاس يوم 2 نونبر، طالب

المؤتمرون بإلحاح التمتع بالحريات الأساسية الأربعة: حرية الصحافة وحق التجمع وتأسيس الجمعيات والحق النقابي. وفي سرية تامة قرر المؤتمر متابعة العمل السري بإنشاء خلايا على نهج الوفد المصري وجماعة الإخوان المسلمين لحسن البنية والكتلة الوطنية السورية. في كل المدن المغربية وكل المراكز القروية وذلك من أجل نشر وترويج أفكار ومطالب وشعارات الوطنيين في كل الأنحاء دون ملل ولا كلل. وكان الأمر يتعلق باستقطاب متعاطفين ومؤيدين، لا من البرجوازية الحضرية وشيبيبة المدارس فحسب، بل من كل الشرائح الاجتماعية.

انعقد أحد المؤتمرات بالبيضاء يوم 14 نونبر 1936 تحت رعاية السلطان. فكان رد فعل السلطان عنيفا حيث سمح باعتقال علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني ومحمد اليزيدي، وأطلق سراح المعتقلين في 17 دجنبر بأمر من الجنرال نوجيس الذي فضل تهدئة الوضع القابل للانفجار على إثّر مظاهرات احتجاجية بالبيضاء والرباط وسلا ووجدة، أدت إلى اعتقالات جديدة ومحاكمات.

وبعد ذلك بقليل توصلت مجموعة من الصحف من الصدر الأعظم بالسماح بالإصدار في يناير وفبراير 1937²³ وهي كالتالي:

- الأطلس، وهي أسبوعية يسير شؤونها محمد اليزيدي (صف علال الفاسي).

- العمل الشعبي Action populaire، تديرها السيدة ك. القادري زوجة محمد الديوري (صف علال الفاسي).

- صوت المغربي، للخلطي، مكان إصدارها باريس وقرأوها العمال المغاربة بفرنسا.

- عمل الشعب، لصاحبها محمد بن الحسن الوزاني والصادرة بفاس.

- المغرب، وهي يومية مستقلة يصدرها سعيد حجي بسلا.

23. صدرت كذلك بعد أبريل 1937 أسبوعية "الدفاع" (La défense)، يسيرها الفاسي عبد الهادي الشرايبي وهو أستاذ سابق بالقرابين وعضو الحركة القومية.

- العمل L'action، وهي أيضا يومية مستقلة يصدرها عبد اللطيف الصبيحي بالبيضاء.

- الوداد L'Amitié، وهي صحيفة جد معتلة أسسها محمد شماعو.

لقد أبرزت هذه الصحافة الصراعات والخلافات الحاصلة بين الأشخاص مما أدى إلى انفصام داخل الحركة الوطنية، ونتج عن ذلك ظهور حزبين بعدما تم حل كتلة العمل المغربية Comité d'action marocaine بموجب القرار الوزاري الصادر بتاريخ 18 مارس 1936 بدعوى تُعارض هذه اللجنة مع ظهور 24 ماي 1914 المنظم للجمعيات، والحزبان هما:

- الحزب الوطني لتحقيق المطالب لعلال الفاسي والذي يناضل من أجل إصلاح قوامه توجه ديني وكان منخرطوه يؤدون اليمين على القرآن.

- الحركة القومية لمحمد بن الحسن الوزاني الذي ينادي بإصلاح اجتماعي.

التحق عدد كبير من الشباب الحامل لثقافة عصرية بعلال الفاسي بينما التحق بعض الوطنيين ذوي الثقافة التقليدية بمحمد بن الحسن الوزاني، ولم تعوض هذه الانخراطات الخسارة التي تكبدها حزبه، ومن هنا عرف هذا الأخير ترجعا ملحوظا.

وفي 27 يوليوز 1937 قدم بلغريج وعمر بن عبد الجليل (الذي لا يصيبه كلال) للسيد بيار فيينو وزير الشؤون الخارجية منكرة حول سياسة الإقلمة العامة بالمغرب فتم طرد الرجلين، فالتجأ إلى الحزب الاشتراكي الذي لم يحرك ساكنا. وخلاصة القول أنهما رجعا إلى المغرب خاويا الوفاض مرة أخرى. وفي الرباط وجدا سلطانا ساخطا على حزب علال الفاسي معاتبا إياه على طابعه السري وعلى كونه اشتراط أداء يمين الولاء على منخرطيه.

أصيب الوطنيون حينئذ بالخيبة على جميع الأصعدة وبدأوا الاستعداد للعمل والفعل المباشرين L'action directe.

حوادث النصف الثاني من سنة 1937، حل الأحزاب ونفي زعماء الوطنيين

في فاتح شنتبر 1937 اندلعت أحداث صاخبة بساحة الهديم بمكناس، وكان سبب هذه الاضطرابات هو استغلال واد بوفكران الذي قيل إن مجرى مياهه تم تحويله لفائدة المعمرين ضدا على أصحاب البساتين والمزارعين المغاربة، وأمام هذه الحوادث اضطرت قوات الحماية إلى استعمال أسلحتها مخلفة عشرة قتلى و50 جريحا من بين المتظاهرين.

وفي 25 شنتبر تم استقبال الجنرال نوجيس والسيد بول راماديي P. Ramadier نائب كاتب الدولة في الأشغال العمومية، بمدينة مراكش، أسوأ استقبال، إذ وجهوا بالصفير والهتافات المناوئة²⁴. ومن 22 إلى 29 أكتوبر وصلت الاضطرابات مدن الرباط وسلا وبور ليوطي والخميسات وفاس ووجدة، حيث أصبح الصناع التقليديون وبروليطاريا مدن الصفيح يشكلون العنصر الأبرز نشاطا وسط المتظاهرين. وهكذا تعالت أصوات الكادحين والمستضعفين منادية بـ"الخبز، والعدالة، والتعليم!". وقد أثمرت مجهودات علال الفاسي لتأسيس جمعية خيرية وطنية بفاس تعنى بمساعدة المعوزين، حيث كانت هذه الجمعية توزع 3000 وجبة طعام في اليوم، بل كانت أحيانا تقدم مساعدات نقدية.

وفي يومي 28 و29 أكتوبر اضطرت الجيوش إلى أن يحتل المدينة القديمة بفاس. وقد تمت عدة اعتقالات عند مخرج مسجد القرويين حيث انعقد اجتماع سياسي. وعلى العموم استعملت المساجد من قبل المتأمرين بصفة متواترة كمقر آمن للنقاش والتشاور وكمكان للتجمع قبل النزول إلى الشارع في مظاهرات، وهو أسلوب استعمل منذ زمن طويل في المدن الشرق أوسطية.

ولم يهمل الوطنيون العالم القروي، بل اهتموا به وخصوصا عندما استقر الأمن. فقد بدأت، آنذاك، البورجوازية تحتل زرهون وبعض المراكز في بلاد البربر؛ مثل صفرو وهرمومو وأزرو، على

²⁴ - المهيج بمراكش هو متقف سوسي يدعى محمد المختار بن علي من زاوية دوكدير من قبيلة إدا وباعقل، ساندته بقاؤه آمن البرابرة.

الخصوص، وذلك بشراء الأراضي عن طريق عقود شراكة مع الفلاحين، وبفضل وسائل المواصلات العصرية (السكك الحديدية والحافلات والسيارات والهاتف والبريد والمذياع) خلقت إمكانيات ربط علاقات من نوع جديد بين المدن والقرى. وبعد هذه الأعمال التمهيدية وقعت بعض المناوشات والمشادة مع اثنين أو ثلاثة قياد - تعودوا على القسوة والغلبة - تم تهديدهم، وباستثناء ذلك بقيت القرى تتميز على العموم بالهدوء.

لقد كان الوطنيون يعتمدون إحداث اضطرابات دامية من أجل تنفيذ اعتقالات ومحاكمات في حقهم لإثارة قلق الحكومة الفرنسية ودفعها بالتالي إلى إقالة الجنرال نوجيس. وكان هدفهم الحصول على الحكم الذاتي *terneautonomie in* إلا أن البعض منهم، كعلال الفاسي، كان يفكر دون شك في الاستقلال دون الإفصاح عن ذلك، فقد كانوا يفكرون في ذلك باستمرار دون ذكره على الإطلاق. ألم يحصل العراق على استقلاله منذ 1932 ومصر منذ 1936؟ وكثر الحديث أيضا عن انتهاء الحماية الفرنسية بلبنان وسوريا، فلن يظل المغرب إذن خاضعا للذل والعار. لكن، كل حساباتهم انكشفت، ف خسروا الرهان على كل المستويات. فلم يعزل السيد ليون بلوم، رئيس مجلس الوزراء، الجنرال نوجيس من منصب الإقامة العامة، وإنما، وبالعكس من ذلك، متعه بكامل الثقة. ومن جهة أخرى أثارت الاضطرابات والهيجان غضب السلطان وبدأ يشعر أن الأمور تنفلت من قبضته، كما أبدى خوفا بالغا من جراءة ووقاحة الوطنييين لحد التفكير في اتخاذ إجراءات صارمة في حق المشاغبين. وعلى صعيد آخر، شجب بعض سكان المدن وقدماء البورجوازية ما قام به الشباب من شغب، أما القرى فقد عبرت في مناسبات عديدة عن تشبثها بالمخزن.

وبناء على الدعم والقبول الذي حصل عليه، من طرف جل مكونات الساكنة، ارتأى السلطان باتفاق مع المقيم العام اتخاذ إجراءات صارمة، أصبحت بمقتضاها الأحزاب، غير المصرح لها بالعمل، غير مشروعة وبالتالي محظورة. وفي 25 أكتوبر، تم إلقاء القبض على علال الفاسي وعمر بن عبد الجليل ومحمد اليزيدي، فأرسل علال الفاسي في 3 نونبر 1937 إلى المنفى بالجابون حيث سيمكث تسع سنوات. أما محمد بن

الحسن الوزاني وآخرون فقد صدرت في حقهم الإقامة الجبرية في مناطق جبلية مختلفة، أو بالجنوب، بينما التحق أحمد بلفريج، بطنجة لأسباب صحية، ثم إلى سويسرا حيث يستقر شكيب أرسلان. وأرسلت كذلك مجموعة الشباب الهائج إلى تافيلالت لتتشنغل بضعة أسابيع في تكسير الحجارة لتعبيد الطرقات، كما أبعد الحسن بو عياد وهو محميّ انجليزي نحو مصر. وفيما يخص الصحف والمجلات، تم منع إصدار جرائد: عمل الشعب والعمل الشعبي والعمل والأطلس والدفاع. وبفضل هذه الإجراءات القوية وخصوصا التعاون القوي بين السلطان والجنرال نوجيس، اللذان جمعت بينهما صداقة حقيقية واحترام متبادل، تمكن الرجلان من إعادة السكنية التامة ولسنوات طويلة.

لقد وجد الموظفون الشباب أنفسهم، بسبب طيشهم وتهورهم في عزلة إزاء المخزن وإزاء نخبة الحواضر وفي عزلة كذلك إزاء الجماهير الشعبية، أما الجنرال نوجيس الذي تمنوا سقوطه وعزله - بعدما سالت الدماء - فقد خرج من هذه الأزمة قويا ومعززا بثقة حكومته وثقة السلطان، وصار لا يخشى مناوشات الساكنة الفرنسية بالمغرب، إذ تأكدت هذه الأخيرة من أنه أتى من أجل إرجاع الأمور إلى نصابها ورد الاعتبار والاحترام للشخصية المغربية أولا، وإعادة الدفء للعلاقات الفرنسية - المغربية التي تؤمن تواجدهم وبقاؤهم في هذا البلد. وباختصار، لقد نجح المقيم العام في مهمته أيما نجاح، إذ تمكن من تقويم الأوضاع في كل المجالات.

العمل البناء للجنرال نوجيس

بعد هذا النجاح الهام، لم يخلد الجنرال نوجيس للراحة، إذ بعد تأمل عميق استخلص الدروس اللازمة من الأحداث الأخيرة، وقرر أن يستغل المهمة المؤقتة التي خلفها حل كتلة العمل الوطني وفروعها وإبعاد رؤسائها، فانكب على دراسة وتطبيق الإصلاحات، وكان عليه أن يتخذ التدابير اللازمة لمواجهة مشاكل النمو الديمغرافي بخلق ثروات جديدة، وذلك من أجل توفير مناصب لتشغيل يد عاملة كانت في تكاثر وتزايد سريعين، وكذا من أجل تحسين المستوى المعيشي للمغاربة. وباختصار أراد أن يظهر أن تحسين وضع المغاربة على اختلاف مشاربهم رهين بالتوافق والتناغم بينه وبين السلطان، وأن العمل الارتجالي لحفنة من

المشاغبين والمحرضين لن يعرف تطبيق برنامج واسع وحافل بالإصلاحات.

وبعد إعادة الأمور إلى نصابها، رجع الجنيرال نوجيس إلى سياسة اليد الممدودة. وفتح بابيه في وجه الوطنيين المعتنلين فالحق بديوانه محمد التازي ومحمد عمر الحجوي وهما صديقان لزعماء كتلة العمل الوطني، كما أدخل بعض قدماء تلامذة الثانويات الإسلامية إلى مجلس شورى الحكومة وتبنى بضعة إصلاحات سبق أن طالب بها خصومنا، وطلب من الصدر الأعظم السماح بصدر أسبوعية "التقدم" الناطقة بالعربية لصاحبها سي أحمد بن محمد النجار، وهو وابن أحد وجهاء مدينة سلا، وأصبح كذلك يتقبل الانتقادات ويُرَّحَّب بها. وبهذا يكون قد استأنف الحوار دون أن يسمح بالمعارضة من أجل المعارضة الناجمة عن سوء النية، كما استحسن العلاقات التي استأنفها السلطان من جانبه مع الوطنيين. وهكذا تمت العودة تدريجيا إلى الطرق التي نهجها الماريشال ليوطي سابقا، وبسرعة تم تحديد النقاط التي اقترح الجنيرال نوجيس على السلطان أن تنصب عليها الجهود فيما يلي: - تنمية وتطوير التعليم الفرنسي - العربي، مع فتح تعليم نسوي جيد وذلك تلبية لرغبة السلطان وتطلعات النخبة من جهة ومواجهة المدارس الحرة سواء الجديدة أو القرآنية والتي عمل بلفريج وأصدقائه جاهدين على مضاعفة عددها عبر ربوع البلاد²⁵.

- إصلاح التعليم بجامعة القرويين.

- مراقبة جودة التعليم في المدارس الحرة، سواء منها العصرية أو القرآنية مع المساعدة المستحقة ومن بينها:

- جرد المناصب التي يمكن تخصيصها عاجلا للشباب المغاربة وتمكين مجموعة أولى من ولوج الوظيفة العمومية بناء على مستواهم التعليمي.

- تجديد سياسة هنري بونصو المتعلقة بتخصيص قسط متزايد الأهمية من مداخيل الدولة للمغاربة.

25- أسس بلفريج بالرباط معهد جسوس كمؤسسة نموذجية.

- تدشين أورش لبناء أحياء سكنية للعمال ومحاربة "مدن الصفيح".
- تقديم مساعدات للنهوض بالصناعة التقليدية وذلك بخلق تعاونيات من أجل تطوير هذا المجال.
- تشييد عمارات تأوي المؤسسات والإدارات الشريفة مع مراعاة الجانب الجمالي والذي يجب أن يضاهي الشكل المعماري الذي شيدت به مؤسسات وإدارات الحماية.
- إصلاح الأراضي الجماعية.
- وضع برنامج هام يخصص بناء السدود وحل معضلة سقي الأراضي الفلاحية، وذلك من أجل:

○ رفع الإنتاج الكهربائي

- سقي أراضي جديدة ومنها على الخصوص الأراضي الخصبة والجافة وبالتالي رفع الإنتاج الفلاحي من فواكه وخضر، وبهذا سيتوفر الشغل لعائلات جديدة حيث أنها ستحصل على أرض تمتلكها.

وفي هذا الإطار تم إنشاء مكتب لمساعدة الفلاحين على الاستغلال المعقلن لخمسين ألف هكتار، من أراضي تادلة السفلى، مسقية بقنوات تجلب المياه من واد أم الربيع. وقد وجد الجنيرال نوجيس في السيد لودوفيك طرون، المدير العام للمالية، المساعد المخلص الذي لا يدخر جهدا ويسخر كل إمكانياته الفكرية والتقنية لتوفير الأموال اللازمة لإنجاز هذه السياسة.

وعشية أحداث فاس، عقد الجنيرال نوجيس اجتماعا مع أعيان المدينة ومن بينهم رئيس جمعية قدماء تلامذة ثانوية مولاي ادريس، وقدم لهم السيد لودوفيك طرون قائلا: «إنه المدير العام للمالية سوف يتفاهم معكم ويجب أن يسود التفاهم علاقاتكم به». وبالفعل ساد التفاهم بين الطرفين، وبعد ذلك بكثير قال لي لودوفيك إن العلاقات التي ربطها خلال تلك الليلة لم تخيب ظنه حتى في أحلك الظروف.

وكانت الحصة التي حددها الجنيرال نوجيس لأنشطته وأعماله وعرضها على مجلس الحكومة في 2 يوليوز 1938 هي التي انتزعت من

شكيب أرسلان اعترافا صدر في الأمة La Nation arabe ماي - غشت 1938، يصف تلك الإصلاحات بأنها «إصلاحات حقيقية وخطوات فعلية إلى الأمام على درب الإنجازات التي طالما نادى بها الساكنة المغربية».

كما كان الجنرال نوجيس يحمل هما يتمثل في فتح آفاق شاسعة أمام المراقبين المدنيين والضباط المكلفين بشؤون الأهالي بالمغرب وإعطائهم الوسائل لتتبع الوضع في الجزائر وتونس وفي باقي العالم الإسلامي. فقد كان يرى، عكس جل فرنسيي المغرب، أن هذا البلد لا يمكنه أن يعيش في عزلة عن العالم وراء الحواجز والممنوعات، فيجب إذن أن يكون على علم بما يدور في البلدان الإسلامية حتى تتمكن من أن تنتبها ونهيء التحولات المتوقعة، حتى لا نفاجأ بها.

وهكذا شجعتني بقوة على أن أواصل إصدار النشرات الإخبارية حول الجزائر وتونس والشرق الأوسط، الشيء الذي لم يكلفني مجهودا كبيرا نظرا لعلاقتي المتميزة مع روبير مونطاني ومجموعة من الأساتذة مثل: أ. ليفي بروفانسال وأندري باصي وج. س. كولان وهنري طيراس وروبير ريكار، وكلهم كانوا يشكلون أسماء لامعة في ميادين التاريخ والسوسيولوجيا والدراسات الإسلامية. وقدم نوجيس، كذلك، المساعدة ل روبير مونطاني على تأسيس مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية ببarris وصار يرسل له منذ 1936 مجموعة من المراقبين المدنيين والضباط المكلفين بشؤون الأهالي والأساتذة والموظفين العاملين بالمغرب والعارفين بشؤونه²⁶.

لقد كان نوجيس متأكدا من قرب اندلاع الحرب بين فرنسا وألمانيا ولهذا اهتم بتطوير القوات المساعدة (الغوم والمخازنية) حتى تتوفر لديه الوسائل الكفيلة بالحفاظ على النظام بالمغرب ويتمكن كذلك من إرسال أكبر عدد من القوات النظامية (من مختلف الأسلحة) إلى فرنسا، وهنا أيضا سار على نهج الماريشال ليوطي في سنة 1914.

26- مؤسسو هذا المركز هم بيار فينيو وشارتولي رئيس جامعة باريس صحبة روبير مونطاني، وتجدر الإشارة أن هذا المركز مازال يعمل تحت إشراف جامعة باريس.

لقد سبق لهنري بونصو أن اهتم بالمسألة، وقرر أن أغلب مجموعات الغوم النشيطة - وكان عددها 51 مجموعة - سوف تدمج لتشكل، في وقت السلم، وحدة أو وحدتين من الغوم الاحتياطي المكون من المتطوعين الذين يخضعون لتكوين يدوم خمسة عشر يوما على رأس كل سنة. لقد تم تهييء أربعة وستين وحدة من قوات الغوم المساعدة قبيل حرب 1939 - 1945م ورأت النور كذلك ست مجموعات من الغوم النشط في فاتح يناير 1939، مما رفع العدد إلى سبعة وخمسين، وفي نفس الوقت حددت مدة التكوين في واحد وعشرين يوما، فكانت هذه الفترة جد كافية لأن هؤلاء الرجال يجيدون فطريا الملاحظة والتمركز والانتشار في الميدان، ولا مجال للتحدث عن قدرتهم الخارقة على المشي.

وفي 1935 وافق وزير الحرب - بعد إلحاح كبير - على صرف المال اللازم لاقتناء السلاح لفائدة المغرب وبمساهمة مالية لهذا الأخير.

كان الغوم الاحتياطي يتقاضى اجرا خلال فترة التكوين ومكافأة مالية سنوية قدرها 50 فرنكا، إضافة إلى بعض الامتيازات. وكذلك الشأن بالنسبة للمخازنية الذين يشكلون شرطة المراقبين المدنيين ومكاتب شؤون الأهالي. واشتغل هذا النظام منذ البداية بطريقة تدعو إلى الارتياح.

وكان القرويون المغاربة يستهزئون من الغوم والمخازنية حيث لقبوهم بـ "الجابونيين" لكونهم لا يكلفون الكثير ولا يطول أمد اشتغالهم مثل البضائع اليابانية التي أغرقت الأسواق.

وهكذا أصبح من الممكن تعبئة 8000 غومي مساعد، مسلحين ومجهزين كما يجب. و4000 مخزني احتياطي و26000 متطوع، أي ما مجموعه 38000 رجل. وقسم نوجيس هذه المجموعات من الغوم إلى كتائب. وكانت الأمور تتم باتفاق مع السلطان، وسميت هذه الكتائب بالطواوير وتألقت تحت هذا الاسم بتونس وإيطاليا وفرنسا وألمانيا. وأسس الجنرال نوجيس كذلك وحدات من المخازنية كشرطة متنقلة تسهر على ضمان الأمن في المدن وكل التجمعات السكنية. ولكي يتأتى ذلك تلقى المخازنية المتنقلون تكوينا خاصا، على غرار التكوين الذي

يتلقاه الحراس المتقلون للدرك الفرنسي. وبالإضافة إلى التأطير المحكم، فإن هذه القوات كانت تتحرك عبر وسائل النقل. وقد أظهرت التجربة أن التقنيين للممرنين يتحكمون في زمام الأمور في الشارع دون اللجوء إلى أي اصطدام دامي.

لقد كان الجنيرال نوجيس يتسم ببعد النظر في كل الميادين والمجالات كما كان يحلم بأشياء كبيرة.

المغرب وحرب 1939-1945

لقد أثمرت سياسة الجنيرال نوجيس أكلها إبان حرب 1939-1945. ففي 29 غشت 1939 سلم وفد من الوطنيين يتكون من محمد غازي وأحمد الشرفاوي وبوبكر القادري وأحمد بن غبريط للجنيرال نوجيس رسالة يؤكدون فيها مساندة الشباب لفرنسا في حالة دخولها في صراع مسلح مع ألمانيا.

وحينما اندلعت الحرب كان المغرب يعرف فترة هدوء وسكينة. وبوصفه أمير المؤمنين والرئيس الروحي للإسلام بالمغرب، أمر السلطان سيدي محمد تلقائيا بقراءة رسالة على كل رعاياه في كل المساجد، فبعدما أعاد إلى الأذهان في تلك الرسالة الوضعية الهشة التي كانت تعرفها البلاد في 1912 قبل معاهدة فاس، وبعدما ذكر بالإنجازات الفرنسية التي استفاد منها المغاربة، حث رعاياه على أن يبقوا بجانب الفرنسيين نقول الرسالة: «إنه لمن واجبا أن نعبر للحكومة الفرنسية عن اعترافنا بالجميل على كل ما قامت به من أعمال لصالحنا، وكل من أخل بهذا الواجب الأساسي والمبدئي فهو غير مخلص لأسلافنا المنعمين، ويكون قد خالف ما أمر به الخالق الذي أوصانا بأن الاعتراف بالجميل واجب، وأن الابتعاد عن ناكره واجب.

فانطلاقا من يومنا هذا وإلى أن تتوج رايات فرنسا وحلفاؤها بالنصر، علينا أن نؤازرها ونضمن لها مساندتنا المطلقة دون أن نبخل عليها بثرواتنا أو بتضحيات أخرى. لقد كنا مرتبطين بها زمن السكينة والرخاء، فعلىنا إذن أن نبقي إلى جانبها في هذا الامتحان العسير الذي تجتاز، ولنا اليقين الثابت أنها ستخرج منه ظافرة كبيرة». وكان الجنيرال نوجيس، أثناء قراءة تلك الرسالة، في مدينة الجزائر حيث كان

يترأس هناك العمليات العسكرية كقائد لقوات منطقة إفريقيا الشمالية، فلم يفاجأ بهذه الإشارة القوية التي صدرت عن السلطان وإن كان لها على نفسه الأثر العظيم.

وهناك حدث آخر يؤكد مدى صدق ووفاء هذا العاهل، ففي أشد الظروف المأساوية لماي ويونيو 1940 التي عرفت تنمر الفرنسيين حتى الأقوياء والمتفائلين منهم، صرح السلطان للسيد م موريث، وهو نائب بالإقامة العامة بما يلي: «لو كانت فرنسا بلدا صغيرا يتكون من خمس أو ست مدن، ولو كان تاريخ الشعب الفرنسي لا يتجاوز الخمسين سنة، لكنت تخوفاتنا على مصير بلدكم مبررة، لكن بما أن بلدكم الذي أعرفه جيدا هو فرنسا الكبرى والغنية، وبما أن تاريخ شعبها تاريخ يفرض على الفرد الاحترام والتقدير، فإن التشكيك في مصيرها والتخوف عليه يعتبر بمثابة جريمة نكراء، فكل الشعوب تمر عبر تاريخها بنكبات قاسية، لكن حيويتها وقيمتها تتجليان في ردود فعلها وتعاملها مع المحن».

وقد أفرزت الحرب وهنة 1940 إكراهات كبيرة، فكان على الجنرال نوجيس أن يواجه صعوبات جمة ومتعددة. ففي الصدارة، كان من اللازم ضمان العيش رغم الحصار المفروض، كما كان من اللازم مساعدة فرنسا - قدر الإمكان - التي كانت تعاني من مصادرة ألمانيا لخيراتها. كان عليه أيضا أن ينكب على إعادة تشكيل القوات المسلحة رغم حضور لجان العدو المكلفة بمراقبة تطبيق الهدنة. لقد كان الكل يأمل في استئناف الكفاح ضد المحتل للتراب الوطني، فكان من الطبيعي العمل في الخفاء سواء تعلق الأمر بالعدة والعتاد أو بالرجال، حيث كان عدد عناصر الجيش النظامي أو الاحتياطي محدد ومراقب، وقد تضاعف هذا الأخير بأعداد تثير الانتباه وذلك بموافقة السلطان ورضاه. ولم يفتن الألمان لحشد هذه القوات وتهيئتها، رغم الحيلة والحذر الذي يتسمون به، كما لم تتعرض لخيانة أو وشاية أي مغربي.

وعندما سمح لي بإجازة (عطلة) بمناسبة الهدنة، صرت أرتدي خوذة الدراجين لأزاول عملي ككاتب عام لجهة مكناس. حيث عينت في أكتوبر 1940 - تحت تسمية مراقب شؤون الأهالي - بعدما غادرت قيادة الطابور السادس الشريف، احتفظت بهذه الوضعية إلى حدود 11 نونبر

1942 حيث استرجعت بكل غبطة قبعتي képi الزرقاء التي تعودت عليها في شؤون الأهالي ورتبتي كقائد طابور، وكان الكوم يتسترون تحت تسميات متنوعة كوحدات العمال أو وحدات العاملين بالفحم...

أما وفاء السلطان فلم يعرف أي خفوت أو تراجع طوال هذه الحقبة الزمنية الحالكة، وما قيل أحيانا عن تورطه مع الألمان لم يكن حسب رأيي إلا إشاعات ومعلومات خاطئة روجها أعداؤنا، أو مجرد تموهيات سياسية. فقد كان تعامله مع فرنسا جد سليم مع العلم أنه كان يحتفظ بحرية الرأي والتصرف، وخير مثال على ذلك هو الحدثان التاليان: فبأمر من حكومة فيشي، طلب الجنرال نوجيس من سيدي محمد تطبيق القوانين المناوئة لليهود loi anti juive والمتخذة من طرف حكومة المارشال بيتان، على المغرب، رفض العاهل ذلك رفضا باتا، فاليهود المغاربة رعاياه كباقي المغاربة المسلمين ولهذا لم يكن مستعدا لتطبيق إجراءات عنصرية جائرة في حقهم.

وصبيحة نزول الأمريكيين، ولما توجه نوجيس إلى فاس لقضاء بضعة أيام حتى يتمكن من الاحتفاظ بحرية القرار، وطلب من السلطان الالتحاق به صحبة المخزن، بقي سيدي محمد بالرباط، بالرغم من أن طبعه لا يتحمل الخشونة والمشاكسة، اختار البقاء وسط رعاياه المهددين بالعمليات العسكرية.

وفي كلتا الحالتين لم يستعمل الجنرال نوجيس أسلوب الضغط والإلحاح، الشيء الذي كان مخالفا لمفهوم الحماية عنده، إذ كان يرى أن القرارات لا تؤخذ إلا بالاتفاق بعيدا عن كل إكراه، إذ في غياب هذا الشرط تفتقد التفاهم والثقة وبالتالي لا مكان هناك للصداقة. ولقد كان بالفعل على صواب.

مشاكل الجنرال نوجيس مع الفيلق الفرنسي للمحاربين

أما على مستوى السياسة الفرنسية الداخلية، فالأمور لم تكن تبعث على الارتياح. فقد كان الجنرال فرانسوا يرأس الفيلق الفرنسي للمحاربين La Légion Française des Combattants (فرع إفريقيا الشمالية) ويدير شؤونه من الجزائر بأسلوب يغلب عليه طابع التحيز والتعصب، وقد سبق لهذا الجنرال أن شغل منصب قائد أعلى

للجيش بالمغرب، وكان بالتالي مساعدا تابعا للجنرال نوجيس، ولهذا بدأ يتهم على هذا الأخير معتمدا على الاتهامات القديمة التي راجت في 1936. فانهاهال الفيلق على حكومة فيشي بالعقاب والانتقادات من قبيل أن الجنرال نوجيس ينتمي إلى الماسونية franc-maçon وأنه من مناصري الجمهورية الثالثة المشؤومة، وهو المسؤول الوحيد عن كل مصائب هذا البلد، وبالتالي فبقاؤه على رأس الحماية يُعد موقفا متخاذلا بالنسبة لحكومة انبثقت عن ثورة وطنية؛ ومن المؤكد أنه سوف يخون النظام الجديد في أول فرصة تتاح له...

وقد وضعت هذه التهمات اللاذعة المقيم العام في موقف حرج، إذ اضطر إلى الذهاب إلى فيشي ليبدلي بتبريراته ويدافع عن نفسه، وعن العلاقات التي كان قد ربطها والتي زادت وضعه تحرجا. وأمام هذا الوضع، تدخل السلطان لدى حكومة فيشي مصرا على أنه يرغب في الاحتفاظ بصديقه نوجيس بالرباط، وبهذا أصبح العاهل المحمي حاميا لقائد الحماية ... وبالطبع لقد تضررت السلطة الفرنسية - التي مارسها الجنرال نوجيس بحزم وثبات - من جراء هذه الدسائس الرخيصة.

لم أكن أعرف أصحاب هذه المكائد باستثناء القليل منهم وفي ليلة من الليالي كنت في مكناس حيث أطلعني عن خبايا الأمور، الجنرال ترانكي الذي عينه الجنرال نوجيس رئيسا للفيلق الفرنسي للمحاربين بالمغرب، لكن هذه المرة لم يكن للفيلق أية علاقة مع فرانسوا، بل أصبح تابعا بصفة مباشرة لفيشي. وللأسف الشديد توفي ترانكي بعد ذلك بقليل، فأصبح الفيلق عرضة لتأثيرات سلبية ومشينة، حيث مورست بإفراط مطاردة اليهود والماسونيين والديگوليين، وهكذا نجد مثلا ضابطا ساميا متقاعدا كان يرأس فرعا محليا للفيلق يطالب بإبعاد زوجة وابن رفيق له - الذين حاربوا منذ البداية في صفوف فرنسا الحرة - إلى المناطق المحتلة وهو ما يعني تسليمهما إلى العدو الألماني، وبالفعل رفض الجنرال نوجيس هذا الطلب، كما تمكن رئيس آخر للفيلق الفرنسي من توقيف معلم من اللورين - متزوج وأب لأربعة أطفال - لكونه تجرأ واستقال من الفيلق احتجاجا على المارشال بيتان الذي لم يحرك ساكنا عندما ألحقت لالزاس واللورين بألمانيا، وفي هذا الصدد، بالإمكان تعداد أمثلة شتى.

وكانت الأحداث تهدد في كل حين الساكنة المغربية، واستطاع الجنرال نوجيس أن يقي البلاد التي تحت مسؤوليته الأخطار، محترما في تلك معاهدة 1912، شكلا ومضمونا، لكنه ونظرا لعبء الواقع وإكراهاته لم يتمكن من تهيين مسالك المستقبل كما سبق وأن فعل.

النزول الأمريكي بالمغرب 8 (نونبر 1942) ودسائس الرئيس روزفلت

لن أطيل في تأويل وانتقاد النزول الأمريكي في 8 نونبر 1942، إذ لم يفهم أحد من قدماء المغرب الذين عاشوا هذه القضية المؤلمة لماذا لم يوقف الجنرال نوجيس - هذا الوطني الصريف المناوئ للألمان - العمليات في أول يوم من الصراع؟

وهذا السؤال لا يطرح بالنسبة للمهتم بالعلاقات الفرنسية - المغربية. نحن نعلم أن روزفلت وتشرشل عقدا باتفا (الدار البيضاء) في يناير 1943 مؤتمرا حضره بصفة منقطعة الجنرالين دوغول وجيرو. وأقام روزفلت حفل عشاء دعا إليه السلطان وابنه مولاي الحسن والصدر الأعظم سي محمد المقرى، بالإضافة إلى تشرشل والجنرال نوجيس، ولكن قبل ذلك استقبل بعد الظهر العاهل المغربي في سرية تامة. وعرض رئيس الولايات المتحدة على السلطان آراءه بكل صراحة. فيما أنه كان دائما مناهضا متشددا للاستعمار، فضلا عن كونه لا يُكَنّ لفرنسا التقدير اللازم، وصف الحماية كنظام متجاوز ويجب أن يحصل المغرب على استقلاله الكامل في أقرب وقت ممكن وفي أبعد الأجل بعد انتهاء الحرب، وأن الولايات المتحدة مستعدة لمساعدته على تحقيق تطلعاته المشروعة نظرا لعبقرية شعبه وماضيه العريق والمجيد. ونحن نعلم الآن كل ما مر في هذه الجلسة بفضل الكتابات التي تناولت هذا الحدث: إذ كتب عنه روم لانداو الإنجليزي وجان لاكوتور الصحفي الفرنسي وجورج فوشي الكاتب السويسري وهاري هويكينس المستشار الخاص لروزفلت وكذلك إليوط روزفلت ابن الرئيس الذي روى كل ما دار في هذا اليوم، ولنتركه يتحدث²⁷: «كان أبي يلعب بالشوكة fourchette

27- جان لاكوتير: خمسة رجال وفرنسا، ص. 192، 193، 194.

ويتحدث في نفس الوقت عن الوضع الذي سيتغير جذريا بعد الحرب خصوصا في ما يتعلق بالاستعمار... تتنحى تشرشل محاولا تغيير موضوع الحديث، لكن السلطان طلب من والدي يعني بـ"التغيير الجذري"، تابع والدي قائلا إن رجال المال الفرنسيين والبريطانيين أسسوا شركات هدفها هو استنزاف خيرات المستعمرات فبدأ القلق على محيا تشرشل... قال أبي: يمكن للسلطان أن يطلب المساعدة من الشركات التجارية الأمريكية التي قد تساعد على إنجاز برنامج استغلال، وذلك بثمان جزافي أو بنسبة مائوية، وبهذه الطريقة يمكن لحكومة العاهل المغربي مراقبة جزء واسع من ثروات البلاد والتحكم، طال الزمن أو قصر، في اقتصاده... وكان حفل عشاء ساهر... ولما انتهت الوليمة أكد السلطان أنه سيطلب مساعدة الولايات المتحدة عند انتهاء الحرب... وكانت عيناه تلمعان».

وانطلع على ما قاله الحسن الثاني ابن سيدي محمد لجورج فوشي بهذا الصدد: «كان ذلك أول سر دولة عهد به إلي. كان يوم جمعة، ذهب صحبة أبي على الساعة الثالثة إلى البيضاء بدعوى تنشين مدرسة هناك، كنا نحن الاثنين فقط على متن سيارة، لم أحضر المحادثات التي أجزاها والذي مع روزق، لكن في المساء كنت مدعوا لحفل العشاء الرسمي والذي حضره تشرشل. إن المحادثات التي أجزاها السلطان مع روزق كانت جد هامة، لقد تكلمنا بصراحة تامة، ولو لم يمت روزق قبل الألوان لكان قد لعب دورا رائدا في اعتناق وتحرر المغرب والقارة الافريقية بأكملها»، أما رأي جورج فوشي الذي تلقى ما صرح به الحسن الثاني في حوار حر بإفراڤ فلا يقل وضوحا: «إن الأقوال التي نطق بها الديمقراطي الأمريكي الكبير أمام تشرشل ونوجيس (نقلها ابنه إليوت روزق في كتابه) لم تكن هدرا ولا استخفافا بل نابعة عن قصد وتعبر عن موقف حقيقي، فطن السلطان سيدي محمد بذلك، لذا "لمعت عيناه". لم يخن فرنسا ولم يتنكر لصادقته الشخصية للجنيرال نوجيس، وإنما تصرف أولا كمغربي، استشف من بين القوى السياسية التي ستتحكم في عالم الغد، فكرة أساسية وقوية هي الحق في تقرير المصير. إن هذه الفكرة القوية الشعبية في الولايات المتحدة، ستقوم النظام الاستعماري وما الحماية إلا شكلا من أشكاله».

إن مذكرات روبير مورفي، المساعد الدبلوماسي الخاص للرئيس روزفلت بإفريقيا الشمالية والتي نشرت الفيكارو Le Figaro littéraire مقتطفا هاما منها (في العدد 97 الذي يصادف الأسبوع الممتد من 26 نونبر إلى 2 دجنبر 1964) تؤكد المعطيات سالفة الإشارة. فروبير مورفي كان حاضرا لهذا العشاء التاريخي كباقي المدعويين وعلى رأسهم إليوط روزفلت وهاري هوبكينس، كما حضره السيد هارولد ماكميلان والسي المعمرى والجنيرالين مارشال وباطون.

وعلى هامش هذه اللقاءات المباشرة بين الشخصيات الهامة تم تسخير عدد من السوريين واللبنانيين القاطنين بالولايات المتحدة - وظفتهم الإدارة الأمريكية كمستشارين سياسيين ومترجمين يعملون بتناغم مع المخابرات- للاتصال بقدماة كتلة العمل الوطني، وكان لنشاط هؤلاء مخلفات سلبية بالنسبة لنا.

فقد كانوا يشيرون إن فرنسا المنهارة والمهانة والضعيفة المنفتحة على نفسها لن تعارض لزمن طويل تحقيق أمنية مشروعة تتمثل في الاستقلال الشامل للمغرب، ولكي يتحقق هذا الحلم في أقرب الأجل وفي أحسن الظروف وجب على الوطنيين التقرب من السلطان، فبدون مساندته لن يحصلوا على أي شيء، وبالتعاون معه يبقى كل شيء وارد وممكن، وبعد الحصول على الاستقلال، من الممكن تحديد مستقبل النظام السياسي المغربي. فيما أن هؤلاء لبنانيون وسوريون فهم مناوئون للملكية، فهم إذن جمهوريون حتى النخاع ولن يهتمهم مصير السلطان العلوي، وطبعاً لن يزعج هذا التصور أصدقاء محمد بن الحسن الوزاني الذين يحملون تكويناً غربياً ونزعة ديموقراطية تجعلهم يناهضون الملكية المطلقة أو النظام التيقراطي التقليدي.

لم يزعزع السلطان نزول الأمريكيين، كما لم يتغير شعوره إزاءنا، والدليل على ذلك الكلمة التي خص بها الجنرال نوجيس في 18 نونبر 1942 بمناسبة عيد العرش: «إن الصداقة الفرنسية - المغربية دخلت اليوم بوابة التاريخ، يحررنا الشعور بالشرف وتشبثنا بالقيام بالواجب، فشعبنا يستحقان أمجادهما وتاريخهما، إنهما يعملان معا دون تلكؤ ولا تردد مستفيدين من إيجابيات التعاون والشرابة لتشبيد صرح الصداقة الفرنسية - المغربية التي ستصبح مستقبلاً قدوة لكل من هو تواق لالتحام

واتحاد الشعوب من أجل ما فيه سعادتها، فأينما وضعتهما الأحداث معا، تجدهما بيدلان قصارى جهدهما في تنافس شريف للقيام بواجبهما بكل ما أوتيا من قوة وإمكانيات، وها هما سرعان ما أفلحا وجنبا للنتائج المتوخاة من كل مجهوداتهما. إن خيرات هذا البلد المتزايدة باستمرار والرخاء الذي تتمتع به ساكنته حتى في القرى البعيدة لخير دليل على منافع وإيجابيات هذا الاتحاد المبني على الصداقة الحميمة والمتبادلة التي تضرب بها المثل للجميع.

وعندما حلت بنا المصيبة الأخيرة لمتنحناء، أعطى الفرنسيون والمغاربة أحسن مثال في التفاني والكد والمقاومة. وسواء في زمن السلم أو الحرب سيقون كما هم لا يتغيرون، فبفضل مثابرتهم وثباتهم وكذلك احترامهم لمبادئهم الراسخة واجهوا وسواجهون السراء والضراء».

إلا أنه وبعد لقائه مع روزفلت، بدأ سيدي محمد مُساءلة نفسه وضميره، إنه يتعاطف كثيرا مع فرنسا وترابطه صداقة كبيرة بممثلها في الرباط، ويعلم كذلك أننا جد مفيدون بالنسبة للمغرب وأن هذا البلد مدين لنا بالكثير. لكن عندما سيغادر نوجيس المغرب، هل سيعرف خلفه كيف يعدل في الميزان ويحافظ على مصالح كلا البلدين. ألن يرجح من جديد، كما وقع ذلك في الماضي، كفة فرنسا تحت ضغط الاستعمار؟

وإضافة لكل ذلك، إن السلطان لن ينسى كونه المغربي الأول، فهل له الحق إزاء رعاياه وسلالته (الملكية) أن يضيع فرصة الحصول على الاستقلال؟ ألم تحصل كل بلدان الشرق الأوسط المسلمة على استقلالها باستثناء سوريا ولبنان اللذان وعدتهما فرنسا بذلك بعد التحرر؟ ألا يتضمن الميثاق الأطلسي بندا يخص حق تقرير المصير؟ وباختصار، لقد خلص السلطان إلى ما يلي: إذا لم يفتتم هذه الفرصة، فسوف يخون بلده وسيخاطر بروحه وسوف يعرض كذلك سلالة العلويين لخطر أكيد.

فيجب إذن محاورة الوطنيين واستخدامهم، والعمل على التخفيف من حدة مطالبهم وتهنئة تسرعهم وجعلهم ينتظرون عودة السلام لطرح مطالبهم بالاستقلال واستغلال هذه المهلة لإقناع الحكومة الفرنسية بقبول هذا البرنامج.

وهكذا يكون لقاء أنفا قد سجل منعطفًا حاسمًا في تاريخ العلاقات الفرنسية بالمغرب، وانطلاقًا من هذا لم يصبح الأمر يتعلق بالإصلاح ولا بالحماية أو الانتداب فحسب، وإنما يتعلق بالاستقلال دون أي شيء آخر. وسوف يُنطق بهذه الكلمة علانية وقبل أن تضع الحرب أوزارها.

إن التدخل الأمريكي السافر هو الذي سرع من وثيرة هذا المسار وبالتطور الحتمي للمسألة.

ذهاب الجنرال نوجيس

في ربيع 1943 اضطر نوجيس إلى مغادرة مهامه واعتزل بالبرتغال، وبذهابه انقطعت خيوط المودة بين السلطان والإقامة العامة، وكان ذلك بتزامن مع اللحظة التي عرفت فيها الحركة الوطنية المغربية صحوة خطيرة، مستفيدة من التدخلات المباشرة لرجال المخابرات الأمريكية وغير المباشرة للعملاء الألمان، وكان هذا الحدث بمثابة الطامة الكبرى حسب التعبير الشخصي للسلطان سيدي محمد.

وفي ربيع سنة 1946، حضيت بمقابلة الرئيس ليون بلوم الذي كان في ضيافة السيد فيليكس گوان بقصر اللوكسمبورغ، وفي نهاية الحديث الذي دار برمته حول إفريقيا الشمالية، طرح علي الرئيس السؤال التالي: «لقد عملتم طويلا في المغرب وتعرفتم على الجنرال نوجيس، قل لي بكل صراحة: أكان اختياري تعيينه بالمغرب في 1936 صائبا أم لا؟». فأجبت بأن الجنرال نوجيس كان، حسب رأيي، أحسن مقيم عام لفرنسا بالمغرب منذ ليوطي. فأجاب محاورني والابتسامة تبدو على محياه: «كنت أعلم ذلك، لكنني سعيد لسماحك تذكده، ولحد الآن إن بعض أصدقائي الاشتراكيين يعاتبونني على هذا التعيين، إن أصدقائي، هؤلاء متعصبون متحيزون أحيانا».

ولكي تكتمل الصورة لابد من استحضار الحركة الوطنية في المنطقة الإسبانية، والتي كانت باستمرار تلعب دورا طلائعيا بفضل المساندة اللطيفة التي وجدها على الدوام لدى السلطات الإسبانية، تلك السلطات المعذبة بالغيرة والحسد من الحماية الفرنسية، والتي كانت

أيضا تنقسم بالنزعة الجرمانية (الألمانية)²⁸. فبعدما انتظر وطنيو المنطقة الشمالية منحهم الاستقلال من طرف الجمهوريين، استعطفوا، بعد 18 يوليو 1936، فرانكو دون الحصول على شيء يذكر. وقد شجع العقيد بيغيير، المندوب السامي الوطني على تأسيس أحزاب سياسية، وحرص على أن لا يخلو الجو من خلافت بين زعمائها. إذ تلك الخلافت ستمكنه - حسب رأيه - من استقطاب وتجنيد مرتزقة مغاربة لتطعيم الحرب الأهلية الإسبانية. وهكذا لوحظ إنشاء الأحزاب التالية:

— حزب الإصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق الطريس البرجوازي الأصل الذي خلف المرحوم الحاج عبد السلام بنونة، له ثقافة شرقية، جعل منه بيغيير لمدة زمنية وزيرا للأحباس، وكان الحزب يتوفر على أداتين للإعلام، هما مجلة "المغرب الجديد" (1937) وأسبوعية "الريف" التي أدار شؤونها للتهامي الوزاني، وبما أن هذا الحزب كان مواليا للألمان ومعاد لفرنسا، فقد نظم مليشيا مغربية سماها بـ "الأقمصة الخضراء".

- حزب للوحدة المغربية ويرأسه المكي الناصري الذي طرد من المنطقة الفرنسية، إنه أقل ميولا للألمان من سابقه، لكنه كذلك مناوئ لفرنسا ومن دعاة وحدة المغرب حول سلطان الرباط "سجين الفرنسيين"، أداة إعلامه تتكون من جريدتين: "الوحدة المغربية" الناطقة بالعربية والتي تصدر مرتين كل أسبوع، و"أنيداد مروكي" الأسبوعية الناطقة بالإسبانية، لعبد السلام التسماني.

- الحزب الإصلاحى الوطنى المغربى لأحمد غيلان الذى يدافع عن برنامج يشبه برنامج المكي الناصري، لسان الحزب هو جريدة "الحرية".

²⁸ - لقد كان جانب هام من الرأي العام الإسباني مناوئا لفرنسا، وهذا راجع إلى عداء تعود جذوره إلى نابليون الأول وإلى مرارة حديثة العهد. كانت إسبانيا تعتبر أن ناحية وهران والمغرب تخضعان لتاريخا وجغرافيا للنفوذ الإسباني، فأتى المستعمر الفرنسي مؤخرا إلى إفريقيا الشمالية واستحوذ على وهران ونواحيها بالإضافة إلى الحيز الأعظم من المغرب، تاركا لإسبانيا البقايا أي الريف ومنطقة جبالة، وخلال حرب 1914 - 1918 قال ألفونس الثالث «لا أحد سواي والأوليش يتعاطفون مع فرنسا».

- حزب الأحرار لياشا العرائش مولاي خالد الريسولي الذي رأى النور بإيعاز من بيغيدير.

وبالإضافة إلى مجموعة صغيرة موالية للألمان ترعرع عرع "مكتب الدفاع الوطني" بقيادة المسمى إبراهيم الوزاني اللاجئ من المنطقة الفرنسية.

وطبعا لم يكن بإمكان هذه الأحزاب انتفاذ إسبانيا بشكل من الأشكال، لكنها كانت تتلقى التشجيع الحار على توجيه هجماتها نحو فرنسا، ورصدت لها من أجل ذلك، مساعدات مادية.

وقد اتجه العقيد بيغيدير، كذلك، نحو مصر لتكوين الشباب المغربي المنحدر من منطقة النفوذ الإسباني، وعين المكي الناصري مديرا لمعهد الخليفة مولاي الحسن بن المهدي الذي أنشئ بتطوان، فعين المدير الجديد بصفة استعجالية ستة أساتذة مصريين ليدرسوا بالمعهد، في يناير 1939، وكان شقيقه اليماني الناصري يدير دائما بالقاهرة دار المغرب التي تتجسد مهمتها في إيواء الطلبة المغاربة المسجلين بجامعة الأزهر، وهكذا أصبحت المنطقة المجاورة لنا موقعا طلائعيا بالمغرب وتعود وطينيو المنطقة الفرنسية على الذهاب إلى تطوان وطنجة للاطلاع على ما لا يوجد بفاس والرباط وسلا.

وفي الأخير، بدأ الإسبان ينزعجون من الكراهية التي يكنها الطريس للأجانب (xénophobie)، ولما صدر رد الفعل من طرف المندوب السامي الجديد، الجنرال أسانسيو وخلفه الجنرال أوركاز تجذرت فيه روح برلين لزمن ما (1941).

وفي 18 دجنبر 1942، وقبل مؤتمر أنفا، وقع الطريس والمكي الناصري اتفاقا بين حزبيهما ونشرا بيانا مشتركا ينص على النفط التالية:

الاستقلال - الملكية (سلالة العلويين) - وحدة المغرب - استرجاع السيادة الكاملة على المستوى الداخلي والخارجي للبلاد - رفض المشاركة في أي اتحاد استعماري كيفما كان نوعه. وكانت أول مرة صدرت فيها كلمة "استقلال". لم ينزعج الإسبان كثيرا من ذلك، لأسباب

كثيرة، منها إن منطقتهم صغيرة وساكنتها قليلة (900.000 نسمة)، أما النخبة الحضرية فهي جد ضئيلة ولا توجد إلا في تطوان، وفي المقابل تتوفر إسبانيا في عين المكان على ما يعادل 90.000 من رجال القوات النظامية أو غير النظامية، أي بمعدل عسكري أو شرطي لكل 10 من السكان رجالا كانوا أم نساء أو أطفالا، فهل يحتاج الأمر إلى توضيح أكثر؟²⁹

كانت للإسبان إذن الوسائل اللازمة للحفاظ على النظام، إلا أن هذا النوع من الغرور خطير! فحينما تطمح أمة للحفاظ على الأمن والنظام اعتمادا على قوة البنادق، تكون نهايتها قريبة لا ريب فيها، إنها حقيقة مؤكدة سواء تعلق الأمر بالفرنسيين أو بالإسبان.

²⁹ - في المنطقة الفرنسية، لم يكن يوجد في نفس الوقت أكثر من 80.000 جندي مقابل ما يعادل 8.000.000 نسمة.

القسم الثاني

الحوار المستحيل

الفصل السابع

السيد غابرييل بيو والمهمة الصعبة

1946 - 1943

تعيين السيد بيو بالمغرب (يونيو 1943)

كان السيد غابرييل بيو، سابع مقيم عام لفرنسا بالمغرب دبلوماسيا سابقا، كما عمل في فترة من الفترات كاتبا عاما للحماية بتونس، وفي سنة 1940 كان مفوضا ساميا لفرنسا في المشرق، وسرعان ما انتقل إلى معارضة حكومة فيشي.

وقد كان رجلا يتسم بالرقة والرصانة وقوة العزيمة، صاحب دراية كبرى بمشاكل العالم الإسلامي وحوض البحر المتوسط، إضافة إلى أنه كان يعرف معنى الكرامة والحذر وكذلك الشجاعة والإقدام عند الاقتضاء، بمعنى أنه كان يتوفر على كل الصفات المساعدة على النجاح في مهمته بالمغرب وفي حقبة زمنية عادية، إلا أنه ولمسوء حظ، صادف هزات عنيفة في البلد جراء تقلبات السنوات الأخيرة، لقد استيقظت الحركة الوطنية وجاء الأمريكيون وبمعيّتهم مصالحهم الاستعمارية وعلى صعيد آخر تدخل البريطانيون في لبنان وسوريا، فصارت صورة فرنسا تفقد بريقها في جميع بقاع العالم.

ومما زاد في عمق المشاكل، كون السيد غابرييل بيو جاء بعد الجنرال نوجيس الذي عرف نجاحا لا يستهان به في علاقته مع السلطان والطبقة المغربية الحاكمة، ولم يكن السلطان راضيا على ذهاب الجنرال نوجيس حيث تأسف على فقدان صديق أمين ومرشد متبصر ورجل صارم عند الاقتضاء، فلا غرابة إذن إذا تعامل مع خلفه بنوع من التحفظ.

يقول ميثاق الأطلسي الصادر في 4 غشت 1941 إن للشعوب الحق في اختيار شكل الحكم الذي تريد العيش تحت ظله، ويضيف التصريح أن للشعوب حق استرجاع سيادتها واسترجاع الحقوق التي سلبت منها،

وكل هذا كان يبعث على الارتياح والتفاؤل، ثم جاءت تصريحات الرئيس روزفلت لتؤكد ذلك.

ازداد تخوف السيد تشرشل - الذي لم يكن راضيا عما صدر من ملاحظات غير لائقة في قمة أنفا - كما ازداد تخوف القيادة العليا للحلفاء، فعبروا في واشنطن على أن كل اضطراب سابق لأوانه في شمال إفريقيا سوف يعرقل لا محالة مجهودات الحرب المشتركة، وأنه لا داعي لإثارة قلق الشريك الفرنسي الذي ساهم إيجابيا في حملة تونس رغم تواضع أسلحته وتجهيزاته كما وكيفا³⁰.

وقد صرح روزفلت بأن إفريقيا أمانة بين أيدي الأمريكيين - إنه تصريح غامض - واعترف كاتب الدولة السيد هول كورديل أن حق الشعوب المستعمرة في الاستقلال رهين بقدرتها على ممارسة الحكم بطريقة سليمة، لكن في رأي الحركة الوطنية فإن القدرة متوفرة لا ريب في ذلك...

استعدادات الوطنيين

في غياب علال الفاسي المنفي ومحمد بن الحسن الوزاني الموجود تحت الإقامة الجبرية، أخذ بلافريج المبادرة وترأس العمليات بعد مشاورات طويلة مع عبد الخالق الطريس والمكي الناصري، فقد كان إلى جانبهما في تطوان عند توقيع الميثاق بين حزبي الإصلاح الوطني والوحدة المغربية، وبعدما سُمح له بالرجوع إلى طنجة ثم الرباط في أوائل 1943، جمع مناضلي الحزب الوطني وأصدقاء محمد بن الحسن الوزاني في سرية تامة، وهيا معهم بتان شديد إنشاء حزب سياسي موحد، كما فعل ذلك أصدقاؤهم في المنطقة الإسبانية، واختيرت كلمة "الاستقلال" كتسمية لهذه التشكيلة الجديدة، إنها تسمية صريحة لا غموض فيها، ولم تستعمل قط من قبل.

وفي نفس الوقت، كانت تونس هادئة لكونها في قبضة من حديد، تخلى الباي منصف عن الحكم بشهور قبل ذلك وعوض بباي من

³⁰ - يقول الأمريكيون: «إذا أرادت فرنسا أن تحصل على السلاح المصري الذي تنفد إليه، فليها أن تستحقه وأن تكون جديرة به».

معسكر الأمين. أما في الجزائر فقد نشر الصيدلي فرحات عباس - السياسي المنحدر من مدينة اصطيف - بيانه المشهور في 10 فبراير والذي دفع الجنرال كاترو الحاكم العام الليبرالي للجزائر إلى اتخاذ إجراء الإقامة الجبرية في حقه بالجنوب، واتخذ نفس الاجراء في حق السايح عبد القادر نائب رئيس الوفود المالية³¹.

وفي نفس الوقت قام الحكام بلبنان وسوريا بإيعاز من أعضاء رسميين من الحكومة البريطانية بمجموعة من المظاهرات المعادية لفرنسا³² كان الغرض منها التشويش، فتسرعا وسقطنا في الفخ حيث تم اعتقال رئيس الدولة اللبنانية بشارة الخوري وهو ماروني واعتقال رئيس المجلس الحكومي رياض الصلح المسلم وثلاثة وزراء. وقد أجبرنا البريطانيون على التراجع الفوري، الشيء الذي جعلنا في وضع غير مريح، وعاد بشارة الخوري وزملاؤه في هذه المحنة العابرة إلى مهامهم متوجين بهالة خاصة (نونبر 1943)³³.

وبسبب هذه الوقائع نودي على السيد هيلو، ممثلنا في بيروت، وعوض بالجنرال بيني. وكان الوطنيون المغاربة، باستمرار، على علم بسير الأحداث في كل البقاع الإسلامية الموجودة تحت النفوذ الفرنسي، كما كانوا يعتقدون بأن المساندة الأمريكية لهم في عداد المضمون، لهذا ظنوا أن الوقت قد حان للدخول بدورهم إلى حلبة الصراع.

ففي آخر دجنبر 1943، راجت إشاعة قوية حول إمكانية تنظيم مظاهرات بفاس ومدن أخرى وذلك من أجل التمهيد إلى طرح برنامج المطالب السياسية، فأخبرنا قنصل الولايات المتحدة بالأمر، فكان رده - لأحد مساعدي غابرييل بيو - أن الرأي العام لبلده قد يكون مناونا لفرنسا انطلاقا من ميثاق الأطلسي، وعكس ذلك أعلم القنصل العام لبريطانيا

31 - وبخصوص هذا البيان، يعتقد شارل أندري جوليان أن السيد مورفي- ممثل الرئيس روزفيلت - والسيد أوستين بيرك- مدير شؤون الأهالي- اعتبرا هذا البيان بمثابة خطة طريق نحو التحرر.

32 - نذكر على الخصوص الجنرال سيرس عضو البرلمان ووزير بريطانيا العظمى ببيروت وصديق شخصي لتشرشل.

33 - لم يُخبر الجنرال كاترو الذي كان في آن واحد الحاكم العام للجزائر والمفاوض لشؤون المسلمين، بهذه الاعتقالات، فأرسل الجنرال لوكول الجنرال كاترو إلى بيروت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فقام هذا الأخير بالمهمة أحسن قيام وعرف نجاحا كبيرا في دمشق.

الوطنيين بأن بلاده لن يسانداهم. وبهذا يكون الموقف البريطاني في الرباط مخالفاً للذي اتخذ في بيروت، الأمر الذي يجد تبريره في كون لندن اعتبرت دائماً أن الشرق الأوسط محمية بريطانية وأن وجود الفرنسيين به مجرد تطفل سافر، إلا أن البريطانيين يحترمون في، الآن ذاته، معاهدة الاتفاق الودي (l'entente cordiale) التي أبرمت مع ديلكاسي في بداية القرن، والتي جعلت لندن تعترف باستمرار بمشروعية الوجود الفرنسي بأفريقيا والمغرب على الخصوص³⁴.

عريضة المطالبة بالاستقلال (11 يناير 1944)

في 11 يناير نشر حزب الاستقلال عريضة تحمل توقيع ثمانية وخمسين شخصية من الأوساط البورجوازية والشعبية أيضاً، ومن بينهم نجد، جنباً لجنب، موظفين من المخزن وعلماء ومحامين وأساتذة ومديري المدارس ومعلمين وتجاراً وبعض الفلاحين، ومن هؤلاء من يحمل ثقافة عربية فقط ومنهم، عكس ذلك، ممن تكون بثانوياتنا.

تقول هذه العريضة:

حيث إن السلطات الفرنسية حولت نظام الحماية إلى إدارة مباشرة تعسفية استبدادية تخدم مصالح المعمرين الفرنسيين، إنها إدارة تكتض بموظفين سوادهم الأعظم لا فائدة من وجوده. فهذه السلطات لم تستطع التوفيق بين مختلف مصالح مختلف الأطراف.

وحيث إن الاستعمار الفرنسي اعتمد هذا النظام ليحتكر كل السلطات ويستحوذ على خيرات البلاد ضدًا على الساكنة الأصلية، وبناء على أن العالم يمر من ظروف مغايرة لتلك التي أقرزت الحماية، فإن حزب الاستقلال يقرر ما يلي:

أ - بخصوص السياسة العامة:

1- يطالب باستقلال المغرب بكامل ترابه تحت رعاية صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف نصره الله.

³⁴ - في المقابل اعترفت فرنسا بهيمنة بريطانيا على مصر.

2 - يطلب من جلالتة أن يأخذ المبادرة للتفاوض مع الدولة المعنية قصد الاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه مع تحديد المصالح المشروعة للمقيمين بالمغرب في إطار السيادة الوطنية.

3 - طلب انضمام المغرب إلى الميثاق الأطلسي ومشاركته في مؤتمر السلام.

ب - بخصوص السياسة الداخلية:

الطلب من صاحب الجلالة أن يأخذ تحت رعايته السامية الحركة الإصلاحية الكفيلة بضمان الوضع الجديد للبلاد ولصاحب الجلالة واسع النظر في اختيار نظام ديمقراطي يشبه النظام المتبع في البلدان الإسلامية بالشرق والذي يمكنه ضمان حقوق كل العناصر وكل الطبقات المكونة للمجتمع المغربي مع تحديد واجبات الجميع.

الاضطرابات الخطيرة ورد الفعل الفرنسي

كنت آنذاك مع صديقي روبري مونطاني³⁵ في ديوان الجنرال كاترو بالجزائر العاصمة.

وبدأت الأخبار القادمة من المغرب تدعو إلى القلق، اكتسح الهيجان المدن وعم الاضطراب كل الشرائح الاجتماعية على اختلاف مشاربها: البورجوازية والشبيبة والصناع التقليديين والبروليتارية، أما السلطان فإنه لم يحرك ساكنا فحسب، بل ظهر وكأنه مرتبط بحزب الاستقلال، وأصبح يقال أخيرا إن الولايات المتحدة تساند مطالب الوطنيين، وأن الجيوش الأمريكية المرابطة بالمغرب سوف تتدخل لمنعنا من اتخاذ التدابير اللازمة للحفاظ على النظام، شأنها شأن القوات البريطانية في لبنان وسوريا، ورغم خطأ هذه المعلومة، فقد كان لها وقع لا يستهان به. ويعد محادثات طويلة مع تشرشل الذي كان بمراكش، أعطى الجنرال ديغول تعليماته بهذه المدينة إلى السيد غابرييل بيو في يناير سنة 1944.

35 - بعدما غادر روبري مونطاني البحرية، اشغل على التوالي كأستاذ بمعهد الدراسة العليا المغربية وأستاذ مكلف بالدروس بكلية الآداب بالجزائر، ثم مدير المعهد الفرنسي بدمشق، فمدير لمركز الدراسات العليا الإدارية الإسلامية، ذلك المنصب الذي بقي فيه بعد انتقال المركز إلى الجزائر.

ومباشرة بعد رجوعه إلى الرباط، استقبل المقيم العام لجنة من الموظفين السامين للمخزن تتحدث باسم الوطنيين اقترحت عليه الاعتراف باستقلال المغرب، فطلب منهم أن يقترحوا عليه خطة للإصلاحات وأخبر بذلك الجزائر. وفي الوقت ذاته، قام الوفد نفسه بزيارة مماثلة لقتصلي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وهذا أمر غير مقبول إطلاقاً، لهذا أصبح اللقاء بالسلطان يطرح نفسه بالحاح.

وفي 14 يناير التقى السيد بيو سيدي محمد رأساً لرأس في حديث دام 45 دقيقة، فشرح للسلطان أن الوطنيين لن يتلقوا أي سند من الأنجلوسكسون الذين لا يسعون إلا لعرقة مجهوداتنا الحربية وطلب منه أن يأخذ موقفا صريحا «هل هو مع فرنسا أم ضدها؟». وفي 17 يناير صدر البلاغ التالي الذي صيغ باتفاق مع القصر: «إن فرنسا ستواصل مخططاتها الإصلاحية وأن السلطان يرغب أن يتطور المغرب في إطار الصداقة الفرنسية وفي ظل احترام المعاهدات».

وفي 18 يناير، تم استقبال وفد عن موقعي العريضة من قبل السي المعمرى وسيدى محمد بن العربي العلوي وزير العدل (منذ زمن بعيد)، وفضلا عن كونه متعاطفا مع الوطنيين فهو أستاذ سابق بالقرويين، تتلمذ على يده علال الفاسي - والسي أحمد بركاش ممثل الصدر الأعظم في التعليم، وأبلغت هذه الشخصيات السامية الوفد أنه بأمر من السلطان عليهم تحاشي كلمة "استقلال" مستقبلا.

وبهدف طماننتنا كتب بلفريج إلى سيدي محمد في نفس اليوم أن «التعاون مع الفرنسيين والحفاظ على مصالحهم ممكنين في إطار الاستقلال والأمر لا يتنافى بئنا مع ذلك». وفي 19 يناير أوضح حزب الاستقلال أن عدم عرقلة جهود الحرب يشكل هاجسا من هواجسه، لذا فإنه ينوي تحقيق هدفه دون اللجوء إلى استعمال العنف. لكن هذه التصريحات - غير الصادقة إلى حد ما - أتت جد متأخرة حيث تواصلت الاضطرابات في السر وهددت بالتفاقم السريع، لقد راج أن السلطان كان متفقا مع الوطنيين رغم كل التصريحات الرسمية التي فرضها عليه الفرنسيون، فصاحت شوارع المدن القديمة: "لنسقط فرانساً"، "عاش الملك"، "عاش الاستقلال"، "لنخرج فرنسا". وكالعادة، في هذه الظروف يتجاوز شارع المتظاهرين القادة، فوجب

بالطبع التحرك قبل أن يستفحل تأزم الوضع، وبتوافق مع الجنرال كاترو، أجرينا في 17 يناير - أنا وروبير مونتاني - حوارا مع غاستون بالوسكي مدير ديوان الجنرال ديغول وعلى إثره انتقلنا إلى مفوضية الشؤون الخارجية حيث شاركنا في تحرير التعليمات لكابرييل بيو، والتي وقعها المفوض روني ماسيغلي في نفس الجلسة، وطلب من المقيم العام - على الخصوم - الاتصال من جديد بالقصر وتلاوة نص معاهدة 30 مارس 1912 على السلطان مع التأكيد على أن الحكومة الفرنسية التزمت بكل التعهدات التي أخذت على عاتقها، لقد أعادت السلطة إلى السلطان وأمنتته ضد كل المناورات المناوئة لسلالته ولهذا تطلب منه الآن أن يعلن عن سخطه تجاه من ندد بوجود فرنسا في المغرب خصوصا وأن هذه الأخيرة في فترة حرب. وكان كذلك على المقيم أن يطلع السلطان أننا لن نسمح للمشايخين بمواصلة الاضطرابات وإذا اقتضى الحال فسوف تتدخل القوات الفرنسية للحد من ذلك.

شجب السلطان للمطالبة بالاستقلال

أنجز كابرييل بيو مهمته الصعبة لدى السلطان في 19 يناير، وكان هادئا، دقيقا ومحترما. ولرقتة فهم سيدي محمد أن المسألة أخذت طابعا بالغ الجدية، فحدد موقفه للمخزن وأفصح عنه يوم 21 يناير في بلاغ يشرح في ثلاث نقط البلاغ الصادر في 17 يناير:

1 - طبقا لمعاهدة الحماية، فإن فرنسا ترغب في إنجاز برنامج إصلاح في المغرب.

2 - يجب ألا ينطق بكلمة الاستقلال.

3 - يجب ألا يخل بالنظام وفرنسا الوسائل الكفيلة للحفاظ عليه.

توصل الباشوات والقياد بقرارات السلطان عبر رسالة من الصدر الأعظم، وفي 28 يناير استقبل السيد روني ماسيغلي المفوض في الشؤون الخارجية من طرف السلطان بعناية فائقة، فأظهرت حرارة الاستقبال والمناخ العام الذي دارت فيه المحادثات أن العلاقات بين القصر والحكومة الفرنسية جد عادية، ورجعت الأمور إلى نصابها.

اعتقال بلافريج

لكن وفي ليلة 28 إلى 29 يناير ألقى الأمن العسكري القبض على أحمد بلفريج وعبد العزيز بن إدريس ومحمد بن الهاشمي وعبد الرحيم بوعبيد بتهمة التهييء إلى الكفاح المسلح بتنسيق مع الألمان، وجرت هذه العملية دون علم السيد غاربييل بيو³⁶، الأمر الذي وضعه في موقف حرج، فقد كان قد عاهد السلطان في لقاء أجرياه معه، هو والسيد روني ماسيگلي، في نفس الظهيرة بأن لا تتخذ أية إجراءات زجرية. وبوضوح كان الأمر يتعلق بموقعي عريضة 11 يناير، فاعتبر سيدي محمد اعتقال الزعماء الوطنيين بمثابة إخلال صارخ ومقصود بالوعده. وإثر ذلك أصيب بخيبة كبيرة وحصلت لديه قناعة بأن سوء النية خاصة يتميز بها المقيم العام خصوصا عندما لم تفضي التهم الموجهة لأحمد بلفريج إلى أي متابعات قضائية³⁷.

إن هذا الحدث المؤسف والذي لم يكن السيد بيو مسؤولا عنه أثر كثيرا كما سنرى على العلاقات بين القصر والإقامة العامة، حيث إن الأمن العسكري لم يكن خاضعا له، ولم يصدق السلطان بثبات أن آلات العزف كانت متناثرة لدى الجانب الفرنسي في حين كانت مثيلتها المغربية متساوية متناغمة.

اضطرابات ومظاهرات (29 يناير - 8 فبراير 1944)

وبعيد هذا الاعتقال المشؤوم، اندلعت اضطرابات صاحبة في الرباط وسلا ذهب ضحيتها أربعة فرنسيين، احتل المتظاهرون أگدال القصر بالرباط حيث نكلوا بشخصيات مسلمة معروفة بصداقتها مع فرنسا وانهالوا بالضرب على السي المعمري نائب مدير البروتوكول، وفي

³⁶ - يبدو أن السيد بونيفاس، مدير الشؤون السياسية، "نسي" أن يخبر في حينه المقيم العام بهذه المسألة.
³⁷ - وبالطبع كان لأحمد بلفريج علاقات وطيدة مع وطني المنطقة الإسبانية ذوي الميولات الألمانية كما رأينا ذلك سابقا، ولا غرابة أن يكون الأمر قد حيك من طرف الألمان، فقد تكون هذه المعلومات المغرضة تسربت عن قصد لتوريط الزعماء الوطنيين وللدفع بنا نحو رد فعل تكون نتيجته إفساد العلاقات المغربية - الفرنسية، إنها وسائل تقليدية للمناوشة والتشويش على الخصم. ويمكن كذلك أن بعض عملاء المخابرات ادعوا ربطهم علاقات لا وجود لها مع الوطنيين أو حاولوا تضخيمها. وتجدر الإشارة إلى أن محمد اليزيدي، وهو من موقعي العريضة لم يمس أي أذى لكونه لم يتورط في قضية بلفريج، لكنه اعتقل عند أول اضطرابات بدعوى أنه حرض على اندلاعها.

الوقت ذاته وبالقرب من هناك حاج تلامذة ثانوية مولاي يوسف وتعاملوا بوقاحة مع أساتذتهم، إذ أصيب السيد رو مدير الثانوية بكسر في يده، وعرفت الدار البيضاء ومراكش مظاهرات عارمة.

أما فاس حيث كان رهن الاعتقال محمد الفاسي نائب عميد جامعة القرويين ومحمد الزغاري رئيس جمعية قداماء تلامذة المدارس الإسلامية، فدخلت المدينة القديمة في العصيان والتمرد من 29 يناير إلى 8 فبراير مما أسفر عن 40 قتيلًا و100 جريح.

وفي الأخير نزل الغوم من الجبل وفي أعقابهم الفيلق الأجنبي، فتم احتلال المدينة القديمة حيث أُلقي القبض على المئات من الشباب المتعصبين عند خروجهم من المسجد الذي تجمعوا فيه. لقد كان هذا التدخل قويا، أخبرني بعد ذلك القبطان هويو، وهو ضابط ممتاز في شؤون الأهالي والقائد المكلف بالغوم أن هؤلاء أصيبوا بصدمة في هذا التدخل وأن مثل هذه التجربة لن تتكرر.

وأتخذت بموازاة ذلك إجراءات زجرية هامة، منها إقالة وزير العدل السي محمد بن العربي العلوي، وإقالة نائب الصدر الأعظم في التعليم السي أحمد بركاش وابنه السي عبد الرحمان بركاش باشا مدينة الرباط، من مناصبهما، كما تم كذلك عزل بعض الموظفين وتوبيخ آخرين، وأُلقي القبض على 1805 شخص وصدر 1063 حكما من بينها 450 في حق مدينة فاس وحدها³⁸، وأغلقت أبواب جامعة القرويين والثانويات الإسلامية وتم حل جمعيات قداماء التلاميذ. أما أحمد بلغريج فأبعد إلى المنفى بكورسيكا.

وقد أظهرت هذه الأحداث، التي فاقت خطورة أحداث 1937، جليا حجم التطور النوعي الذي عرفه الحزب الوطني المغربي منذ ذلك التاريخ، وخلص السلطان إلى أن هناك قوة جديدة لا يمكن تجاهلها بل أصبح من الضروري التعامل والتفاهم معها، فبات يهمل، أكثر من أي

³⁸ - لقد استفاد المعتقلون السياسيون من عمليات العفو التي دامت طيلة الفترة المتراوحة ما بين مارس 1944 إلى غاية يونيو 1945 لقد أفرج على وطني فاس الأحد عشر الأكثر تورطا في 14 من يوليو/بأكتوبر حيث سجنوا. وفي أواخر 1945 لم يبق النفي ساري المفعول إلا في حق علال الفاسي (الخابون) وبلغريج (كورسيكا). كما بقي بعضهم تحت الإقامة الجبرية في المغرب.

وقت مضى، وزراءه المسنين - بقايا وآثار الماضي العتيق - ليشكل شيئا فشيئا مجموعة من المستشارين الخاصين والذين اضطلعوا بكل القضايا داخلية كانت أم خارجية، ونذكر من هؤلاء أحمد باحنيني وعبد القادر الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد (محامي) والمهدي بن بركة (أستاذ مادة الرياضيات)، وتجدر الإشارة إلى أن هذين الأخيرين ينحدران من وسط جد متواضع.

وكان الوطنيون يعلمون أن السلطان كان مجبرا ومكرها حينما شجب نشاطهم، لذا لم يؤاخذوه إطلاقا على ذلك، بل عملوا، بخضوعهم لأوامره، على توطيد العلاقات التي تربط الآن بينهم وبين القصر، وصاروا يسمعون لنصائحه المعتدلة بتوعدة وصبر، لقد فهموا أن من الواجب عليهم أن لا تستثني دعاياتهم القرى وعلى وجه الخصوص في المناطق البربرية التي تعد حليفة لفرنسا ضد ساكنة الحواضر، فكان عليهم إذن دراسة الوسائل الكفيلة لتخطي هذا الحاجز المنيع في انتظار تحطيمه كليا.

لقد لفتت فتن الحواضر أنظار ساكنة العالم القروي التي لم تستغرب كثيرا لذلك، لكونها تعلم أن البورجوازية والطلبة والحرفيين كانوا سابقا يتنمرون ويثورون أحيانا على سلطة السلاطين وخصوصا عندما تتسم هذه الأخيرة بالتذبذب، ويساعدون كذلك الطامعين في الاستيلاء على الحكم ضد الأمير الشرعي، واعتقد البربرة المعروفين بسذاجتهم أن خلايا الوطنيين التي تشكلت حول الجبال وبالمراكز الصغرى من أتباع زاوية دينية جديدة تسمى "بالطريقة الوطنية"، إذ لا أحد من بينهم يعطي معنى لمفهوم "الوطن" ذلك المفهوم الغريب بالنظر لنظامهم الاجتماعي والسياسي.

ورغم تبرئة ساحة أحمد بلفريج وزملانه، تواصل نشاط المدن في سرية على نهج الأحزاب الشيوعية الذي أعطى ثماره والذي تبناه الوفد المصري وجماعة الإخوان المسلمين على أساس خلايا داخل الأحياء أو المقاولات يقودها شخص مطلع متعلم يتكلف بالتكوين السياسي للمناضلين.

أخذ الحزب الشيوعي في المغرب المبادرة بشكل علني - حينما اضطر الوطنيون التزام الحيلة والحذر - بإصدار منشائر باللغة العربية، دون أن يناهض أحمد بلفريج محتواها، وبالرغم من محدودية هذه المنشائر فقد كان لها وقع يدعو للقلق.

وقد أيقظ إنشاء الجامعة العربية بالقاهرة سنة 1945 والاستعدادات لأول دورة لمنظمة الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو، آمالا جديدة لدى الوطنيين المغاربة، وهو ما دفع مستشارين خاصين للسلطان إلى لعب ورقة العالمية للضغط على فرنسا، فوجه محمد اليزيدي باسم اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال طلب انضمام المغرب إلى منظمة الأمم المتحدة، إلى رئيس مؤتمر سان فرانسيسكو ورؤساء الحكومة الفرنسية والأمريكية والبريطانية والصينية.

وبتاريخ 26 نونبر 1944 رأى النور مخطط للإصلاحات انكبت على إعدادها لجن مختلطة فرنسية - مغربية، همت هذه الإصلاحات تحصين ملك الأسر وجعله غير قابل للتصرف والحجز، وهو مطلب طالما طالب به الوطنيون لفائدة الفلاحين، وتحسين أوضاع طبقة الفلاحين والمساواة بين أجور الموظفين الفرنسيين والمغاربة وتطوير التعليم وإعداد القانون الجنائي وإنشاء منصب خليفة قضائي لدى محاكم الباشوات، فعبر الوطنيون علنيا عن استخفافهم بهذا المشروع الذي أصبح الآن، حسب رأيهم، دون جدوى³⁹.

فبالنسبة للوطنيين أصبح «الاستقلال هو الشرط الأساسي لفتح أي حوار مع القوى الحامية ولن يقبل كذلك أي إصلاح في ظل المؤسسات الحالية».

وقد أثرت برودة العلاقات بين سيدي محمد وگابرييل بيو، بطبيعة الحال على كل الدوايب الإدارية، فكانت إدارة الشؤون السياسية ورئيس شؤونها السيد بونيفاص على الخصوص غير مرغوب فيه في القصر، ومن جراء ذلك بدأت العلاقات بين المغاربة والفرنسيين تتدهور شيئا فشيئا.

39- لقد اعتمد المغرب المستقل هذا البرنامج وطوره ابتداء من سنة 1956

ولما وعى السادة روني ماسيگلي والجنرال كاتروا وگاسطون باليوسكي صعوبات هذا الوضع، فكروا في تعييني كمستشار للحكومة الشريفة ومدير للشؤون الشريفة وذلك لتحريك هذه الأداة المهمة وجعلها تلعب من جديد الدور الذي أنشأها من أجله المارشال ليوطي. وأخبر الحاج التهامي الغلاوي باشا مراکش بهذا المشروع (لا أعلم كيف)، فعمل على أن لا يتم هذا التعيين لكونه كان يعرفني حق المعرفة ويعرف كذلك أنني لا أشاطره الرأي في كيفية تسييره للأمور، وكانت النتيجة هي وضع هذا الأمر جانبا. ونظرا لما آلت إليه الأمور، أظن أنني كنت سوف أفضّل في هذه المهمة ومع ذلك كنت على استعداد كامل لأجرب حظي وأحاول إخراج علاقاتنا مع السلطان من النفق.

سفر رسمي للسلطان إلى فرنسا (يونيو 1945)

في ربيع 1945، قام السلطان بسفر رسمي إلى فرنسا، فحضر إلى جانب ديغول بساحة لاكونكورد لاحتفالات 18 يونيو حيث تم توشيعه بلقب رفيق التحرير. وقد شعر بافتخار واعتزاز كبيرين، وبعد ذلك قام بزيارة الجيوش المغربية المرابطة بجنوب ألمانيا والفرنسا (بريغنز)، وبهذه المناسبة نظم الجنرال لاطردي طاسيني، قائد الجيش الفرنسي الأول لمنطقة الراين والدانوب بحنكته المعهودة حفلات وتظاهرات عسكرية بكانستاس وبريغنز ولاندر وسيعمارانجن وستويغارت، لقد كانت حفلات بذكرى عهد الملك - الشمس (لويس الرابع عشر)، وبصحبة السلطان والمقيم العام رأيت من جديد وبتأثر عميق لاندو - الميناء الصغير - حيث سُجنت من طرف الألمان لبضعة أيام في غشت 1914 واستطعت في آخر المطاف الالتحاق سرياً برومانشورن بسويسرا. لقد كان سيدي محمد مرتاحا يتعامل مع مضيفه باحترام ولطف إلا أنه أظهر برودة لا مثيل لها تجاه المقيم العام بيو، الشيء الذي أخرج كل الحضور.

وخلال تواجده في باريز حيث كان يقيم في قصر روز Palais Rose لصاحبته لاديثاس دي طاليران (سابقا ماركيز بوني دي كاسطيلان)، طرح على ديغول مسألة تعويض غابرييل بيو، وقيل إنه

حصل على وعد مفاده أن الحل سيأتي مطابقا لرغباته لاحقا⁴⁰. وكانت هذه أول مرة اتخذ فيها سيدي محمد مبادرة من هذا القبيل. ولم يعر وقتها أحد الاهتمام اللائق لهذا الحدث، ومن ثمة أصبحت الرباط تتعامل مع المقيم العام كموظف سامي محلي (عادي) تتناول معه الشؤون والقضايا الجارية، أما المسائل المبدئية فتُحل في باريز بين رئيسي الدولتين.

تموقف سياسي للسلطان

لكن على المستوى السياسي، لم تكن أول مرة تدخّل فيها السلطان، لقد حدد موقفه فيما يخص توجه العلاقات بين المغرب وفرنسا أثناء حديث مطول أجراه مع الجنرال كاترو في 19 يونيو 1945، دون أي شاهد عدا السي المعمري⁴¹.

اشتكى سيدي محمد بشدة من إدارة الشؤون السياسية التي تعودت على العمل "بسيادة" مطلقة، وعلى تهيين القرارات دون عرضها أولا على المخزن قصد تدارسها، ودون منحه أجالا لتفحصها قبل المصادقة عليها، وباختصار شديد فليس له إذن إلا سلطة وهمية، ولا أحد يجهل ذلك من بين رعاياه وما التزمزيم العميق الحاصل لدى الرأي العام إلا نتيجة لهذه التصرفات.

وبعدما طرح مجموعة من المشاكل الثانوية، شجب التهميش الذي يعرفه التعليم الإسلامي على اختلاف مستوياته وخاصة الوضع الذي يوجد عليه تدريس العربية، وهكذا تحرم الفئات المتوسطة من المغاربة من تطوير مستواها في لغتها الأم، كما قال بأنه من المفروض أن تدرس الإصلاحات مع الشباب المثقف الذي يجب تكوينه وتدريبه على قضايا وشؤون بلاده حتى يتمكن من تقدير الفرق الكامنة بين التنظير والواقع «وأن لا تطرح الإصلاحات على دواب مسنة، جاهلة ومطبعة وصلت إلى أواخر عمرها»، كما عبر بالحاح على الخيبة والمرارة التي يشعر بها الشباب المتطور وذلك لإبعاده عن تسيير شؤون بلاده، ولمّح إلى أن

⁴⁰ - في الواقع بقي السيد بيو في منصبه إلى حدود مارس 1945، إذ لم يوضع حد لمهامه من قبل ديغول وإنما على يد حكومة گوان.

⁴¹ - كان آنذاك الجنرال كاترو سفيراً في موسكو، وكان السلطان يعرفه منذ زمن طويل ويكنّ له فائق التقدير، أما أنا فكانت حينها كاتباً عاماً للجنة الوزارية المشتركة لأفريقيا الشمالية.

سفره إلى فرنسا لم يكن غاية في حد ذاته بل استجابة لهدف سياسي دقيق، وهو مقابلة الجنرال ديغول رئيس الحكومة المؤقتة والسيد جورج بيدو وزير الشؤون الخارجية من أجل الحصول على سلطات فعلية. وإذا لم يتحقق هذا الهدف، فإنه يخشى الرجوع إلى المغرب خاوي الوفاض وأن نفوذه أو سلطته ستزداد ضعفا، ولم يفصح عن الموقف الذي سوف يأخذه حينئذ، لكن الجنرال كاترو استنتج أنه سيدخل في قوقعة الشجر والاستياء، لقد أخبر الجنرال كاترو الجنرال ديغول والسيد جورج بيدو بكل ما قيل أثناء هذا الحديث في مذكرة مرقونة من تسع صفحات.

وقد عبر كذلك السلطان إلى الجنرال ديغول عن رأيه فيما يخص نظام الحماية قائلا إن هذا النظام يمثل صيغة انتقالية بين الماضي والمستقبل وأن هذا المستقبل يجب أن يأخذ شكل مغرب حر متماشيا مع ظروف الحياة العصرية، لقد أحس أن الوقت قد حان ليخطو خطوات في هذا الاتجاه.

أجاب الجنرال ديغول محاوره أن هذا المفهوم التطوري الارتقائي والمطابق لفطرة المارشال ليوطي، هو نهج فرنسا نفسها، وأضاف ملاحظا أن الاستقلال في العالم المعاصر ليس استقلالا كاملا شموليا كيفما كانت قوة وعظمة الأمة. إن المغرب كان في حاجة إلى مساعدة خارجية وسيمضي كذلك إلى أمد بعيد، ولا يوجد بلد أحسن من فرنسا سيوفر إليه هذه المساعدة بعفة ونزاهة، فافتتح السلطان بسهولة.

وفي الختام أشار الجنرال ديغول إلى أن الاتفاق المبدئي قد حصل أما التطبيق فيحتاج إلى دراسة دقيقة تهتم بـ «حيثيات التعاقد بين البلدين على المستوى الاقتصادي والدبلوماسي والثقافي والعسكري». أما فيما يتعلق بالتاريخ المناسب لافتتاح المباحثات المتعلقة بهذه المسألة فقد يحدد - حسب رأيه وحسب ما جاء في مذكراته - صبيحة يوم المصادقة على دستور الجمهورية الرابعة⁴².

42- مذكرات ديغول الجزء III، الخلاصة، ص241، انظر كذلك الجزء II، الوحدة ص127، ملاحظاته على السلطان الذي كان يكن له التقدير.

كان غابرييل بيو يعلم أنه مهدد بالإبعاد، وبالرغم من ذلك واصل عمله المتجسد في الإصلاح والتجديد، فقد أنشأ جمعية نائبه في الإقامة السيد ليون مارشال أولى القطاعات العصرية في المجال الفلاحي والتي سهر على تنظيمها المراقب المدني السيد جاك بيرك، كما أعد برنامجا خماسيا للأشغال العمومية يضم بناء سد كبير وهو بين الويدان بالأطلس المتوسط. وفيما يتعلق بالمجال السياسي، هيا مشروعا يتم بمقتضاه إنشاء مجالس الأحياء وجماعات الدواوير، وحظي هذا المشروع بالموافقة المبدئية للجنة الوزارية المشتركة لشمال إفريقيا في 9 غشت 1945. ومن ناحية أخرى واجه بحزم مخلفات المجاعة المفزعة الناتجة عن نقص المحصول الزراعي لعدة سنوات متتالية، لقد بدأ شبح وباء التيفوس يلوح بإلحاح، فسخرت كل الإمكانيات بمساندة الحكومة الفرنسية - كانت فرنسا تخضع لتحديد صارم لحصص المؤن - لإنقاذ ملايين المغاربة من الموت، وتم شراء القمح من أمريكا وبعثاء كبير تم كذلك الحصول على بواخر الحلفاء لنقل الحبوب. وفي الوقت ذاته، تفانيت الفرق الإدارية والصحية في القيام بالواجب غير مبالية بالأخطار التي تحدق بها، ونتيجة ذلك لم يكن عدد الضحايا مرتفعا كثيرا.

وفي مقالة نشرت في صحيفة لوموند الصادرة في 11 مارس 1954، كتب روبير مونطاني وهو بصدد تقييم نشاط غابرييل بيو:

«غداة الحرب، قام السيد كابريل بيو، المقيم العام من جانبه بدراسة مخطط إصلاحي واسع، فلو أتاحت له الفرصة أن يعمل سنتين إضافيتين لمنح للأمبراطورية الشريفة - التي أنشأها ليوطي - المؤسسات الضرورية التي تحتاج إليها. لقد اعتمد مؤسس المغرب العصري على أهمية التقاليد الأصيلة والتي باتت مثبتة قوية في زمنه، لكن بعد عشرين سنة بدأت هذه الأخيرة تضمحل وتتلأشى. ومن سوء الحظ أثبتت الحكومة أن تضحي بهذا المقيم العام وترضخ لميولات السلطان الاستبدادية، وبهذا بقي الجزء الأهم من مشاريعه في رفوف مكاتب الدراسات حيث لا تثير اهتمام أي أحد».

الفصل الثامن

إيريك لابون و«انقلاب طنجة»

(1946 - 1947)

أفكار السيد إيريك لابون، ثامن مقيم عام بالمغرب

خلف السيد إيريك لابون السيد غابرييل بيو في مارس 1946، وقد سبق له أن شغل منصب الكاتب العام للحماية بالرباط من سنة 1926 إلى سنة 1928، كما عمل مقيما عاما بتونس وسفيرا بموسكو. صاحب تفكير جد أصيل متفرد وحده، يمتاز بعقيدته في المجال الاقتصادي وعلى وجه الخصوص في مجال الصناعة والمعادن، إنه رجل جريء، سخي، عنيد عند الاقتضاء، يحب التكلم والمراسلة، وكل هذا يجعل منه رجلا من عيار فريد، لم يكن "استعماريًا"، إذ كان يسخر من المتخصصين في شؤون الأهالي ويعتبرهم كائنات في طريق الانقراض.

كانت له القدرة على النقاش والتفاهم مع السلطان ومع زعماء الوطنيين متبقة بأنه قد يجعلهم يقتسمون معه أطروحاته الليبرالية. كان ينوي ضمان رخاء لم يسبق له مثيل لكل ساكنة المغرب: نخبة وطبقات أخرى معتمدا على الاستغلال الجدي للموارد المعدنية وتحويلها في المغرب، وعلى التطور الصناعي الذي سوف ينتج عن ذلك.

كان يحترق الفلاحة وينعتها "بالفن البدائي"، كما كان حذرا إزاء المعمرين الفرنسيين، تلك "الأيادي الملوخة بالتراب"، منتجي الجوع والحبوب والعنب والفواكه الغريبة الصفراء والحمراء ذات المذاق اللذيذ والمنسمة بالحوامض. وكان يستخف أيضا بالتكنوقراطيين ولا يحب الموظفين لكون هؤلاء يشغلون كاهل الدولة ويكلفون الخزينة جزءا هاما من الميزانية التي من الأفضل، حسب رأيه، تسخيرها في البحث

والتنقيب عن البترول والماء والحديد والرصاص والنحاس والمنغنيز والأورنيوم الخ.

إنه رجل طويل القامة، نحيف، جاف وخشن، يغلب على هندامه اللون الأسود والرمادي، وكانت له ملامح الزهاد أو أنبياء الإنجيل، وكهولاء الأنبياء كان يعبر عن آرائه بأسلوب شاعري يغلب عليه المجاز والاستعارة.

محاولات التقارب مع الوطنيين وفشلها

حظي السيد إريك لابون باستقبال جيد من لدن السلطان الذي كان يعرفه من قبل، وربط الاتصال بالوطنيين حيث قبل أن يتسلم من محمد اليزيدي مذكرة تحت عنوان: الأزمة المغربية، وهي عبارة عن عريضة تناولت شكايات وحجج واقتراحات حزب الاستقلال، فصدرت عن المقيم العام الجديد عدة إشارات تدل على حسن نواياه وتهدف إلى تهدئة الأوضاع. إذ أعاد علال الفاسي من منفاه في 1946 وكذلك الشأن بالنسبة لأحمد بلقريج ولمحمد بن الحسن الوزاني الذي سمح له بالرجوع إلى فاس. ومباشرة بعد رجوعه، أسس هذا الأخير "حزب الشورى والاستقلال" وجريدة "الرأي العام" الناطقة باسمه. وكان الجديد لدى هذا الحزب السياسي هو الدعوة إلى الحصول على الاستقلال عبر عدة مراحل وذلك في إطار مؤسسات ديمقراطية يتم إنشاؤها تدريجيا، أما الهدف من هذا فهو تجنب أخطار كالدكتاتورية والفوضى، ولم يكن هذا الطرح يخلو من صواب.

أما حزب الاستقلال، فقد استأنف نشاطه بكل قوة وحزم بعدما رجع أعضاؤه من المنفى، وأصبح يعمل في واضحة النهار عكس ما كان عليه الأمر في السابق، وتحولت الخلايا السرية إلى فروع تخضع هي نفسها للجان محلية أو جهوية، حيث نجد في القمة المجلس الأعلى الذي يتشكل من أغلب الموقعين على بيان 11 يناير 1944، وقد أصدر الحزب مؤخرا يومية "العلم" الناطقة بالعربية وأسبوعية "رأي الشعب" بالفرنسية.

وقد أبى السيد إريك لابون إلا أن يعدد اللقاءات مع الوطنيين، فصار يستقبلهم حول مائدته في إطار لجن صغيرة ليتحاور معهم كمعنيين في

جو تسوده الثقة، دون أن يؤدي ذلك لأي تحسن. وقد اندهش محاوروه في البداية لهذا التعامل ثم استحسنوه وفي الأخير اعتبروا ليبراليته وحسن نواياه ضعفا. كما فكر المقيم العام في إقناع الشخصيات البرجوازية المرموقة والمتطورة لكي تساهم في تطوير المغرب وتنميته فأدخلهم إلى المجالس الإدارية لبعض الشركات القديمة أو الجديدة، إلا أن تحركاته وعروضه لم تنتج سوى الرفض. ذات يوم قال لي شاب مغربي في باريز وكأنه يستودعني سرا: «لماذا تريدون أن نكتفي بجزء من الكعكة بينما بإمكاننا أن نحصل على الكعكة بأكملها إذا نحن تشبثنا بالاستقلال؟»، لقد كانت وجهة نظر ساذجة. وقد سبق لجان لا كوتور أن وصف بدقة عقلية الوطنيين والكل يعلم أن لا كوتور ليس استعماريا رجعيا، يقول هذا الأخير: «يتساءل حزب الاستقلال بعدما استحسن أطروحة المقيم العام واندشش لها في آن واحد، إن هذه المبادرة إيجابية بالنسبة للمغرب وإن السيد إيريك لا بون يدفع المملكة الشريفة على درب التقدم في المجال الاقتصادي والاجتماعي، أليست هذه محاولة لإلحاق المغرب بفرنسا؟

أما على المستوى السياسي، فأين يريد الدفع بهم؟ هل المخرج هو التدبير المشترك في إطار تشارك حر بين بلدين مستقلين أو بسيادة مشتركة؟ لقد قال لنا علال الفاسي وأصدقائه إنهم قد استشفوا نوايا من هذا القبيل من خلال أقوال وأفعال المقيم العام. إن هذه "الحماية الجيدة" هي بمثابة باب مفتوح نحو وحدة فرنسية مغربية، وهنا يكمن الخطر والنوايا المبيتة. لذا لعب حزب الاستقلال سياسة المزايدات المجانية وانضم للأوساط المالية والاستعمارية والجناح المحافظ من الإدارة العليا لضرب إيريك لا بون ونسف نزعة الإصلاحية الجريئة»⁴³.

لقد كانت ليبرالية المقيم العام تقلق بعض أهم مساعديه، بينما أصبح الفرنسيون، عسكريون ومعمرين وتجار وصناع وموظفون يعبرون عن انزعاجهم واستيائهم من الاستقبالات التي كان إيريك لا بون يخصصها للوطنيين، وبدأ أصدقاؤنا المغاربة - وهم كثيرون - يتخوفون من تفوق الوطنيين، فصاروا ينجazon بالطبع إلى أعدائنا. أما السلطان

⁴³ - جان لا كوتور، ص 200.

فقد كان معجبا بإيريك لابون، يكن له التقدير، لكنه لم يتمكن من فهمه كما كان الأمر بالنسبة للجنرال نوجيس.

وفي 22 يوليو اقتراح المقيم العام على مجلس شورى الحكومة أن « تزرع في نفس الشعب المغربي والشباب، ذكورا وإناثا، الثقة والشعور بأن الحياة في كل المجالات ترحب بعملهم وبقدراتهم الفكرية والذهنية...».

وأعلن بالتالي عن تدابير هامة تخص:

- الاقتصاد: التصنيع، التنقيب عن المعادن، خلق شركات اقتصادية مشتركة.

- التعليم: توسيع التعليم على اختلاف أسلاكه: الابتدائي - المهني - الثانوي - العالي، شن حرب ضد الأمية مع خلق شبكة مكثفة من المدارس يقوم بتنشيطها فرنسيون من ذوي النيات الحسنة.

- الإدارة: ولوج المغاربة مختلف المناصب مع تشجيع اللامركزية لصالح الجهات.

- في المجال الاجتماعي: منح الحق النقابي للمغاربة المستخدمين في المقاولات ذات الطابع الصناعي أو التجاري.

- المجال السياسي: تشكيل مجالس منتخبة.

إن الجزء الكبير من هذه التدابير مأخوذة من برنامج العمل لأفريقيا الشمالية الذي سبق أن طرحته على الحكومة أواخر 1945 والذي جعلني أحظى برضى وثناء إيريك لابون.

ولكن ابتداء من 24 يوليو عبر زعماء الوطنيين للسلطان عن أسفهم واستيائهم، إذ بينما كانوا ينتظرون إعلانا يجعل حدا للحماية، ها هم يجدون أنفسهم أمام «برنامج يعمل على تمكين ركائز السياسة الاستعمارية التي أبانت تجربة دامت أربعاً وثلاثين سنة على عدم نجاحتها»، وأصبحت الوضعية جد واضحة: لقد بدأ الوطنيون يرفضون التباحث مع فرنسا طالما لم تلغ معاهدة 1912 وطالما لم تشكل حكومة مغربية حقيقية تعين من طرف السلطان، وصار فرنسيو المغرب

ينددون في باريس بما سموه فشل سياسة المقيم العام وبدأوا يطالبون بإبعاده.

الوضعية الصعبة للسلطان

رغم كون السلطان أبدى ثقة كبيرة في السيد إيريك لابون ورغم أنه أراد بكل قواه مساعدته في مجهوداته، فإنه لم يحث الوطنيين على القبول بمواصلة التجربة الجديدة والتي لن يخرج منها المغرب إلا رابحا في كل الأحوال، وهنا يكمن بيت القصيد. إن التطور الذي عرفه حزب الاستقلال والتأثير المتزايد له وهيمنته على الأحزاب الأخرى وتعصب زعمائه - ونذكر على وجه الخصوص علال الفاسي - وعنف خطابه، كل هذا كان يزعج السلطان ويخيفه، لقد كان بشكل من الأشكال سجين حزب الاستقلال، ولم يكن بإمكانه الاعتماد على حزب الشورى والاستقلال لضعفه العددي وظهور حساسية جمهورية عند بعض أعضائه.

فإن كان قد أبدى إزاءنا الحزم والصرامة في المفاوضات والنقاشات، وفي كل الظروف، فإن الأمر لم يكن كذلك عندما يتعلق الأمر بمحاور حازم كلال الفاسي مثلا، إذ في هذه المواقف يكون دائما متأرجحا متذبذبا فكان يفضل التسوية عن طريق التفاهم والمنورة والمراوغة، أي ما يسمى بالعربية بـ"السياسة". وكان يظن دون شك أن من الخطورة بمكان التعامل بحزم وصرامة مع حزب الاستقلال، لذا كان يبذل كل ما في وسعه لإرضائه على الأقل جزئيا دون أن يجرج الإقامة العامة كثيرا فلم يستعمل مع الوطنيين كما كان منتظرا قوته الاعتدالية وبالتالي تخلص من دوره كحكم بين مختلف تيارات الرأي العام المغربي.

سفر طنجة المفجع (أبريل 1947)

أثار عدم حصول المغرب على مقعد في الأمم المتحدة خفيضة سيدي محمد والوطنيين معا، وخصوصا لما أصبحت العربية السعودية بلد البدو واليمن البلد المتوحش عضوان في هذه المنظمة الدولية ناهيك عن دول الشرق الأوسط الأخرى، وبما أن فرنسا خالفت الصواب وعزمت على إبقاء المغرب تحت سيطرتها، وبما أنها تنكرت لوعود الجنرال

ديغول، يجب إذن البحث عن طريق آخر لطرح مشكل المغرب أمام الرأي العام الدولي.

ومنذ زمن بعيد كان السلطان قد أبدى رغبته في الدخول رسميا إلى طنجة التي هي جزء من مملكته، لكنها تخضع لوضع خاص ذي طابع دولي، فعجل بذلك تحت تأثير مستشارين أمريكيين ومستشاريه الخاصين من الشباب، فكلاهما كانا يظنان أن حلول السلطان بهذه المدينة سوف يجلب أنظار العالم برمته ويسلط الأضواء على قضية المغرب، كما أنه سوف يؤكد وحدة المغرب. وقد وافق إيريك لايون على هذا السفر الذي كنت من أكبر معارضيه، كما أسريت للمقيم العام أنه سيجمل في طياته أخطارا كثيرة، فمن طنجة كان على سيدي محمد أن يتوجه - حسب ما قيل لي - إلى العالم الإسلامي وإلى الرأي العام الدولي مطالبًا باستقلال بلده في أسلوب واضح نوعا ما.

وفي أكتوبر 1946 كنت قد توصلت من جورج بيدو، رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية بأمر تأخير هذا السفر إلى تاريخ لاحق، آملي أن يمكن هذا التأخير من الحصول على تهدة الوضع، وبعد ذلك غادرت مهامى ككاتب عام للجنة إفريقيا الشمالية التي عهد لي بها في يناير 1945 من طرف الجنرال دوغول وانتقلت إلى قيادة الفوج الأول للقناصة المغاربة (les tirailleurs) بفيل فرانش سور مير Ville franche sur mer.

ومن المعلوم أن سيدي محمد دخل إلى طنجة مصحوبا بإيريك لايون، واستقبل هناك استقبالا حارا مصحوبا بهيجان وبآلاف التهافتات "عاش الملك، يحيى الملك". وقد تمكن المقيم العام من الاطلاع على نص الخطاب الذي كان من المنتظر أن يلقيه السلطان بهذه المناسبة. وفي هذا الصدد لا بأس من الوقوف على ما كتب السيد جورج فوشي مملى عليه من قبل الملك الحسن الثاني ابن سيدي محمد⁴⁴.

«إنها ملحمة وليس خطايا سياسيا فحسب، إنه تعهدٌ تحدث خلاله سيدي محمد كإمام وقائد روعي، قبل أن يتكلم كوطني وعاهل دولة

44- تحت أشجار الأرز ببيهران، محادثات حرة مع الحسن II ملك المغرب، من 132 إلى ص 153.

منقسمة إلى ثلاثة أجزاء. لقد كان عازما على استرداد وحدة الوطن وتحقيق الاستقلال والدخول إلى المنتظم الإسلامي الذي يتجسد في الجامعة العربية».

في هذا النص المتحمس، لم يُذكر اسم فرنسي ولا إسباني. وحصل السيد إيريك لابون من السي محمد المعمري، نائب مدير البروتوكول على تفسير مفاده أن الفقرة التالية أضيفت إلى الخطاب.

«القوا نظرة على العالم المتحضر واستلهموا من العلوم واسلكوا الطريق التي رسمها رجال متشبعون بالحضارة العصرية، واعتمدوا على علماء وتقنيي البلدان الصديقة وبالأخص الفرنسيين الشغوفين بالحرية والذين قادوا البلد نحو الرفاهية والتقدم» كان الثناء جد هزيل وفضفاض، لكن إيريك لابون اكتفى بذلك وسلم النص مسبقا للصحافة.

في أبريل اندلع شجار في حي بيزناوي بين بعض المغاربة وبضعة قناصة من اللفييف السينغالي، فرجع هؤلاء إلى قاعدتهم العسكرية في حالة يرثى لها واستحوذوا على أسلحتهم ونزلوا مدعين بزملائهم إلى المدينة حيث أطلقوا الرصاص على المغاربة الذين صادفهم، فأسفرت هذه الحادثة على العديد من القتلى والجرحى قبل أن تعود الأمور إلى نصابها. وقد فسر هذا الأمر المؤسف تارة كمناوشة من الوطنيين وتارة أخرى كفعل مدبر من طرف السيد بونيفاص، رئيس جهة الدار البيضاء. أما في الحقيقة، فالأمر يتعلق بحلقة جديدة من العداء القديم بين السينغاليين - وينعتهم المغاربة بالعبيد- والمغاربة الذين مارسوا إلى عهد قريب الرق والمتاجرة في العبيد.

وبعيد ذلك بقليل، وجدت نفسي أمام مشكل مماثل في نيس. إذ تعرضت مجموعة متنقلة من القناصة المغاربة المنتمين إلى كتيبتى الأولى إلى تصرفات جد مشينة وتعسفية من طرف بعض السينغاليين، وكان ذلك اليوم، يوم أحد، وكانت المجموعة تحت قيادة ضابط فرنسي، وقد دخل الفيلق الأول بأكمله في حالة هيجان وغلجان شديدين، وفي غياب الأسلحة، تاهب للخروج والانتشار في المدينة مدججين بالفؤوس والهراوات والسكاكين، وصلت حينذاك إلى مكان إقامتهم مصحوبا بعشرة ضباط، فلم أستطع كبح جماح المتظاهرين وإدخالهم إلى تكتاتهم،

لقد كان المناخ ساخنا والنفوس هانجة إلى درجة أنني فكرت لحظة في أن كتيبتني على وشك الإفلات من قبضتي، الأمر الذي ليس بالهين على قائد جيش، ولم يتورط بالطبع لا فرنسيون ولا والي منطقة الألب البحرية في الحادث.

وعلى أية حال، فحينما ألقى السلطان خطابه يوم 10 أبريل، في جو مفعم بالحماس نسي أو تناسى قراءة الفقرة التي دسها السي لمعمري في الخطبة بايعاز من المقيم العام، ولم يفه ولو بكلمة واحدة في حق فرنسا. ولم تقف الأشياء عند هذا الحد، بل توجهت الأميرة لالة عائشة بنت السلطان، بدون حجاب، بخطاب إلى حضور ضخم مطالبة بالتعليم الإجباري للبنات وبتحرير المرأة كشرط أساسي لانعتاق شعب تواق إلى الحرية، وفي سياق حديثها تكلمت عن مصر قائلة: «إن مصر هي البلد الشقيق والموطن الثاني لكل العرب، إن بإمكان هذا البلد الحبيب أن يتطلع إلى توجيه الشعوب العربية وقيادتها نحو المجد والغد الأفضل الزاهر». إنها كلمات متهورة ما فتئت أن عاتبت سموها نفسها عن قولها في سنة 1964 !

أما ولي العهد فقد تناول موضوعا مماثلا أمام الكشيفية الإسلامية قال فيه: «إن العالم العربي هو وطننا والعربية لغتنا وركيزة من ركائز شخصيتنا، والعرب أشقاؤنا الخ».

وأخيرا، وفي ختام حفل الغذاء الذي أقامه على شرف الهيئة الدبلوماسية، صرح سيدي محمد لمجموع الصحافة الدولية بما يلي: «إن المغرب يسعى إلى ربط علاقات أخوية مع كل الدول التي دافعت عن الحرية والتي مازالت تدافع عن قضيته. وإن المغرب يرغب بحرارة شديدة في الحصول على كل حقوقه، ولا حاجة إلى التذكير بأن المغرب بلد عربي تربطه أواصر متينة بالدول العربية بالشرق، ويود توطيد تلك الروابط خصوصا بعدما أصبحت الجامعة العربية أداة تلعب دورا هاما على المستوى السياسي العالمي. ولنا اليقين أن العلاقات الثقافية ستساهم لا محالة في تحقيق هذا الهدف. ولهذا الغرض، ها نحن نبذل عن تنوير عقول المغاربة بخلق معاهد للتعليم العالي تكون مقرراتها مشابهة تماما للمقررات المعمول بها في مصر وسوريا ولبنان والعراق..»

إن هذه المواقف الواضحة المعالم والناتجة عن تفكير عميق تجعل السلطان وأسرته يتموقعون بجانب الوطنيين. لقد أصبح الآن "ملك الاستقلال" (*)، هذا ما صار يقال في جميع الأوساط.

كتب جان لاکوتور في هذا الباب يقول: «إنه السلطان صديق السيد إيريك لابون هو الذي سيُجَلُّ بفشل وذهاب الرجل الذي ارتبط به بصدق وإخلاص بعد نوجيس، إنه هو الذي فعل ذلك وليس المعمرون الرجعيون ولا الوطنيون قليلو التبصر، إنه هو الذي سيجعل المواجهة واستخدام القوة أمراً لا مفر منه»⁴⁵.

وتأثرت بالفعل الحكومة الفرنسية كما كان ذلك منتظراً، وحملت مسؤولية هذا الحدث "المدوي" على الساحة الدولية لإيريك لابون وتم تعويضه بالرباط بجنرال الجيش السيد ألفونس جوان القائد العظيم للقوات الفرنسية المرابطة بإيطاليا، اعتباراً منها أن شخصية هذا الأخير ستؤثر على السلطان وستطمئن المعمرين بعدما أصيبوا بالهلع.

مخلفات أحداث طنجة

لقد ذاق السلطان نشوة الاستقبال الحار ونكهة الهتافات الشعبية المتأرجحة بين الأهواء الصوفية والهستيرية، من لم ير حشود المسلمين وهي تدخل في حالة هزة وجدبة، لا يمكنه أن يفهم كيف ينسلخ الرجل من ذاته وشخصيته وينسى الحذر ويتخذ موقفاً حاداً وواضحاً متناقراً تماماً مع مزاجه وتفكيره، إلا أنه ومهما كانت التجاوزات، لابد أن نجد تفسيراً لما وقع. فمن المؤكد أن السلطان حضر بحزم قبل مغادرته للرباط وبمعية مستشاريه الشباب الخاصين وكلهم من الوطنيين موضوع خطابه بطنجة مسرح فعلته التي طرحت قضية المغرب على المستوى الدولي. وعندما استجوب صحفي من باريس - بريس (صحافة باريس) علال الفاسي بعد أيام طنجة، قال هذا الأخير: «إن هذا الموقف ليس بجديد، لكن إلى حد الآن كان صوت عاهلنا خافتاً يعاني من الخنق والمضايقات». وبهذا يكون سيدي محمد قد رفض عن طواعية الانفتاح الذي طرحه عليه رجل صادق ذو استقامة شديدة، طالما نادى بالتطوير

⁴⁵ - جان لاکوتور، سبق ذكره ص. 200.

السريع للحماية والدفع بها نحو الحكم الذاتي الذي سينتهي بالاستقلال في آخر المطاف.

وعندما انحاز السلطان إلى جانب الوطنيين وعائق أطروحتهم تبين أنه يرفض فكرة التطور التدريجي ويطالب بالاستقلال الفوري، وعندما نادى أيضا بالعروبة وبالجامعة العربية فإنه يشير بوضوح إلى أن الحرية المسترجعة سوف تأخذ طابع الرفض للتحديث الفرنسي.. لقد جعل بذلك الحوار مستحيلا بين فرنسا والمغرب.

من جهة أخرى، أصبح أبنائه ومن أول ظهور (جماهيري أو عمومي لهم) بمثابة عناصر قيادية للشباب الوطني الذين نقل أعمارهم عن العشرين سنة.

من البديهي أن الإرادة المؤثرة للمقيم العام وحسن نيته قوبلتا بالاستخفاف وعدم الاعتراف بالجميل، فاستخلص بعض العقلاء بفرنسا -والذين ليس بالإمكان نعتهم بالمستعمرين- الدرس اللازم استخلاصه من أيام طنجة المشينة، لقد أثبت السلطان ومستشاريه سوء نيّتهم، وأن انقلاب طنجة قد حمل في طياته الانقلاب الذي سيحصل على مستوى رأس الدولة سنة 1953 وفي الأخير يمكن القول إن المغرب فقد في شخص السيد إيريك لابون اختصاصيا كان ينوي تسخير قدرات البلاد وكفاءاتها ليضع هذا المغرب على قاطرة الرخاء والازدهار أو على الأقل خلق فرص الشغل على نطاق واسع وبأجور لا يستهان بها.

ومما لا شك فيه، أن السيد إريك لابون خرج مرفوع الرأس من هذه المغامرة، إذ لعب الأدوار الطلائعية حتى النهاية، لكنه لم يفه أبدا بعد ذلك بكلمة سوء في هذا الشأن، بل اكتفى بالقول أن هذه القضية كانت مأساة بالنسبة لفرنسا وكانت أفظع من ذلك بالنسبة للمغرب.

الفصل التاسع

اللحظات الصعبة للجنرال جوان

1951 - 1947

التعليمات التي حملها الجنرال جوان، ومشروعه الليبرالي

قبل الالتحاق بمنصبه في الرباط تلقى الجنرال جوان تعليمات من السيد بول رامادي رئيس الحكومة ومن السيد جورج بيدو وزير الشؤون الخارجية. فبعدما حصلت الحكومة الفرنسية على معلومات دقيقة وثابتة حول كل ما دار بطنجة، قيمت سلوك سيدي محمد تقيما قاسيا، حيث أصبحت لا تثق فيه وقررت التعامل معه بصرامة. وفي هذا الإطار أوصت الجنرال جوان بأن يتحلى بالليبرالية، وأن يعمل على تنقية الأجواء وجعل السلطان يساعدنا «وفي حالة رفض القصر» أو تعامله المتكرر بسوء نية فعليه (أي جوان) أن يهيء «إما تنازلا طوعيا عن العرش وإما تدخلا من قبل السلطة الفرنسية نفسها لخلع السلطان»، وتضيف المذكرة الحكومية «أن السلطة مستعدة منذ الآن أن تتحمل عواقب هذا الإجراء ومن المستحسن أن يحس السلطان بذلك».

في البداية مرت الأشياء بسلام، استقبل السلطان الجنرال جوان بحفاوة، وواصل هذا الأخير سياسة سلفه. ففي عدة خطب عمومية لم يخش التصريح بأن معاهدة 1912 مازالت قائمة وعلى المغرب أن «يصبر نحو الاستقلال الداخلي الذي سيضمن لكل طرف مصالحه وذلك عبر سلسلة من الإصلاحات، وربما لن يكون هذا سوى الخطوة الأولى على درب الاستقلال الكامل، كما دعا النخبة المغربية إلى التعاون مع الإقامة قصد تحقيق هذا الغرض الذي يحتاج إلى الحكمة والجرأة. وبتصرفه هذا لم يخرج عن الخط السياسي الذي رسمه المارشال ليوطي -وقد كان مساعدا سابقا له- فحسب بل تجانست سياسته مع الموقف الذي اتخذته الجنرال ديغول في محادثاته في جوان 1945 مع سيدي محمد. ولم يصدر المقيم العام الجديد أي تهديد في حق حزب

الاستقلال، فبقيت صحيفتي العلم ورأي الشعب تصدران بصفة عادية، إلا أنه واصل عمله الدؤوب لتفخيخ كل التجمعات (عبر التجسس) سواء كانت في المدن أم في المراكز القروية الكبرى وكذلك الأوساط الحرفية والعمالية.

وفي جوان 1947 وافق السلطان على ختم ثلاثة ظهائر هامة:

- يتعلق الظهير الأول بإحداث منصب ممثلي الصدر الأعظم لدى الإدارات الشريفة التي تدير شؤونها فرنسا ومنها المالية والفلاحة والأشغال العمومية والتجارة والصناعة والبريد والصحة العمومية والشؤون الاجتماعية؛

- ويقر الثاني بوجوب اجتماع مجلس الوزراء برئاسة السلطان كلما اقتضى الأمر ذلك؛

- أما الثالث فيتعلق بإنشاء مجلس يجتمع فيه الوزراء والمديرون مرة كل شهر برئاسة الصدر الأعظم لتدارس القضايا ذات المصلحة العامة، وبهذا تكون أخيرا قد أنشئت أداة ربط هامة بين الفرنسيين والمغاربة كانت تنقص في الماضي.

لكن النصوص التشريعية لا قيمة لها إذا لم يتم تفعيلها، فقد أزعجت لبيرالية الجنرال جوان الساكنة الفرنسية التي كان سوادها الأعظم يجهل تماما وضع المغرب والتطور الفكري الذي عرفه مجموع العالم الإسلامي، كما أن نداءات المقيم العام لم يكن لها صدى في أوساط الوطنيين، إذ كان هؤلاء يقولون «لا يمكن التفاوض من موقع ضعف ولا من موقع الحماية الذي نحن فيه، نحن نرفض كل تعاون والحل الوحيد هو الاستقلال، إذ ذاك يمكننا أن نتحاور على قدم المساواة»، وانطلاقا من ذلك أصبح الحوار مستحيلا.

أما السلطان، فقد قلق وتأثر كثيرا لما أخبره المقيم العام بفحوى التعليمات الحكومية التي تتعلق به، فأصبح من جديد منشغل البال نافرا من كل شيء، إذ بعد انفراج وجيز، تعكر الجو وعم الضباب الكثيف...

انطباعات متجول وحيد في أواخر 1947

مع بداية شتبر 1947، عُدت من فرنسا مع الكتيبة الأولى للقناصة المغاربة وأصبحت قائدا لحامية بور ليوطي، فكنت أذهب أحيانا إلى فاس ومكناس ومراكش والرباط حيث استقبلني مرارا الجنرال جوان بحفاوته المعهودة، وكنت أجد بجانبه صديقا قديما من المجموعة القديمة لليوطي وهو الجنرال دوروزوي. كانت البلاد تبدو هائلة، لكنني لاحظت أن الساكنة الفرنسية تعيش في مدنها الجديدة دون ربط أي علاقة تستحق الذكر مع المغاربة، وأغلب هؤلاء كذلك منكمشين في مناهم القديمة، أصبح الفرنسيون الآن مجرد جار غريب، وبدا لي أن كفاءة موظفي شؤون الأهالي أقل جودة عموما مما كانت عليه قبل الحرب.

كان السلم يعم بلاد البربر التي عُرِفَت قبل عشرين سنة بالاضطرابات والشراسة، لازلت أتذكر أمسية قضيتها في والماس تحت خيمة القائد أحرصان الكبيرة السوداء والذي كان له ابنا ضابطا في كتيبتي، كان قد تخرج من المدرسة العسكرية للدار البيضاء وكان في علاقة خطوبة مع شابة فرنسية من عائلة جد محترمة. لقد وجدت هناك جو الثقة والطمأنينة الذي ألفته في السابق، وتبين لي أن الضابط المحجوبي أحرصان كان غير مرتاح مضطرب وقلق، كان رجلا محترما رقيق الإحساس يعرف معنى الصداقة⁴⁶.

لقد شاهدت في قاعة السينما ببور ليوطي عدة أفلام عن تحرير باريز ومقاومة السككيين الفرنسيين للاحتلال الألماني. إن عرض مثل هذه الأفلام - التي تمجد التخريب واغتيال المحتل الألماني وتؤكد أن بإمكان رجال عزل هزم جيش قوي محتل - لا يمكنه إلا أن يذكى الشعور الوطني في مغرب بدأ يُظهر علنا عداؤه إزاء القوة الحامية.

46- لقد عين قائدا بعد موت أبيه وأبعد بعد ذلك وأصبح أحد قادة جيش التحرير المرعي المغربي، وفي أواخر 1955 اشتغل كعامل على الرباط وأبعد كذلك من هذا المنصب تحت ضغط حزب الاستقلال، عندما اتخذ أحرصان موقفا مناوئا لهذا الحزب الدكتاتوري. إنه من أحد نشطاء الحركة الشعبية التي تستمد قوتها من العالم للفروي والساكنة البربرية. شغل كذلك منصب وزير الداخلية بعدما كان لمدة ما وزيرا للفلاحة.

وبالفعل، لقد كان المغاربة ينتبهون باهتمام كبير مثل هذه الأفلام التي لقيت نجاحا لديهم.

التقيت يوما بمشور دار المخزن بالرباط برجل عمره أربعين سنة كنت أعرفه جيدا، كان رجلا ذكيا وطنيا مقربا من القصر، كان يتعاطف مع الفرنسيين بحكم تكوينه إذ يجد نفسه أقرب إليهم من غيرهم، وكان يتكلم لغتنا بأناقة فائقة. تحدثنا عن السلطان، فشرح لي بأن سيدي محمد ليس عدوا لنا، لكن ليس بإمكانه الآن أن يعارض حزب الاستقلال، ولن يقبل أحد من السلطان أن لا يطالب بالاستقلال الفوري لبلده، إن كل شيء عنده مهدد: حياته، عرشه ومستقبل سلالته، فلماذا لا نتفاوض معه بشأن هذا الاستقلال من أجل أن يصبح حقيقة بعد سنتين أو ثلاث سنوات؟، لو أننا فهمناه كما وقع ذلك مع الجزائر ديغول والجزائر كاترو لأصبح موقف السلطان قويا تجاه متطرفي حزب الاستقلال ولسانده معتدلون كأحمد بلفريج، ولو تم هذا لوجدت فرنسا ضالتها. لقد كان حديث الرجل مليئا بالحقائق.

سألت محاورى لماذا يسمون السلطان بالملك مع أن المغرب كان دائما امبراطورية شريفة؟

فأجابني «بأن كلمة "ملك" تستعمل في الشرق الأوسط وبالطبع فإن النور كالشمس يأتي من الشرق. وبالإضافة إلى ذلك فإن كلمة "امبراطورية" لها وقع سيء في أذاننا، فهناك الإمبراطورية البريطانية وهي استعمارية، وكذلك الإمبراطورية الفرنسية التي لا تقل عنها استعماراً، أما نحن فكلنا ضد الاستعمار، وأضاف، وهو يتكلم هذه المرة بجدية: كل إمبراطور هو دكتاتور، أما الملك فهو دستوري وبالتالي فهو ديمقراطي، خذ كمثال على ذلك انجلترا وهولندا وبلجيكا والدول الإسكندنافية...».

وبقيت أتأمل في هذا الحوار لقد كنا نحن الاثنين نتحدث نفس اللغة ونفس الكلمات إلا أنها تحمل دلالات مختلفة لكل واحد منا. وفكرت بأن آباء الثورة الفرنسية لو سمعوا هذا فقد يستغربون للفرق "الذكي" بين المستبدين: فالإمبراطور سيء رديء والملك طيب جيد أو على الأقل مقبول.

بعد هذه الحقبة عينت بباريس بمركز قيادة الجنرال لاطردي طاسيني، وغادرت المغرب بصفة نهائية في أوائل يناير 1948 وأنا مضطرب البال فيما يخص مستقبل هذا البلد. وبالطبع لم تتكون لدي صورة على ما سيحدث لاحقا في هذا البلد، لكن كان لدي إحساس عميق بأن الحركة الوطنية تطورت بشكل كبير الشيء الذي لم يفتن له بتاتا أغلب الفرنسيين لقد أصبح التحفظ، في الأخير، هو السلوك البارز في تعامل السلطان وهو ما صار يدعو إلى القلق.

عودة التوتر السياسي، مسألة المنشور المناوئ للسلطان

غادر علال الفاسي المغرب من جديد متوجها لباريس ثم القاهرة، كما سافر أحمد بلافريج هو الآخر، وأثناء غيابهما بدأ الجنرال جوان يجس نبض حزب الشورى والاستقلال المتكون من عناصر تغلب عليها الفردانية. استقبل في 10 شتنبر محمد بن الحسن الوزاني الذي أجابه بعد عشرة أيام بمذكرة تخص النقاط التالية: إبطال الحماية، الاتفاقات الحرة مع فرنسا - مجلس وطني منتخب، دستور - الملكية الديمقراطية، ودون انتظار أي جواب، ذهب زعيم الشورى والاستقلال صعبة لجنة من أصدقائه عند الصدر الأعظم، لكن لما أخبر السلطان بالخطوات التي قام بها الحزب، أغاضه الموقف المنفرد للحزب وغلظته وانعدام مراعاة جانب العرش في الوقت الذي كان حزب الاستقلال يتعامل معه بالتقدير والاعتبار، فعمل على أن لا يتواصل الحوار بين الإقامة العامة وبين محمد بن الحسن الوزاني.

وفي أواخر سنة 1947 وأوائل 1948 ظهرت إلى الوجود تشكيلتين صغيرتين لا تأثير لهما على الساحة لكنهما، حسب ما قيل، من حبك إدارة الشؤون السياسية، إنهما:

- الحزب الديمقراطي المغربي للرجال الأحرار لمولاي إدريس بن عبد العالي وهو فقيه (قرآني) وأستاذ الموسيقى الأندلسية بمعهد الموسيقى بالرباط، وهو كذلك مؤسس الزاوية الدينية للعالية des Aliyah والتي تم حضرها من طرف السلطان في 1946.

- حزب الشعب المغربي لعبد القادر الزمراني ابن القائد سي البشير الزمراني وهو من قدماء تلاميذ ثانوية بايميرو بمكناس.

في بداية 1948، راج في المدن الكبرى منشور باللغة العربية يسيء كثيرا لشخص السلطان، لقد تناول مجددا اقتراء سبق أن أشيع قبل 1927 من طرف شخصية مهمة من المخزن، لقد شكك هذا الاقتراء في مشروعية نسب سيدي محمد وبالتالي في مشروعية تربيعة على العرش، وإثر ذلك تقدم العاهل بشكاية إلى محكمة الرباط وعين قاض فرنسي للبت في النزلة.

وبعد هذا الحدث، وبينما كنت أتناول الغداء صحبة السيد جورج بيدو ووزير الشؤون الخارجية بمدينة أنتيب، حيث كنت في عطلة، سلمني الوزير هذا المنشور - الذي لم يكن لي علم به - وطلب مني التعرف على صاحبه انطلاقا من النص وأسلوبه، فأجبت الوزير بأن صاحب النص لن يكون إلا مغربيا، مطلعا على الإشاعات والقبل والقال المتداول في كواليس القصر، وظننته إذن الشريف السي عبد الحي الكتاني، العدو اللدود للسلطان والذي كان قد أتاني مؤخرا لبور ليوطي طالبا التعجيل بخلع السلطان وتنحيته.

أجابني السيد جورج بيدو «لا لم تصب، إن هذه الفعلة اقترفت في مكاتب صديقك العقيد لوكونت، مدير الشؤون السياسية، وقد أراد الجنرال جوان أن يتستر عليه، لكنني أمرته أن يزيحه من منصبه ويحيله على زميلي في الدفاع الوطني بفرنسا»، فشرح لي أنهم اكتشفوا المحرر وهو فقيه صغير يدعى فرفار Ferfarah، وهو مستخدم يومية السعادة التي تصدر تحت إشراف ومراقبة إدارة الشؤون السياسية، ولما ألقى عليه القبض وسبق إلى القصر اعترف وفضح كل شيء، إن المدير الفعلي هو أحد ضباط شؤون الأهالي المقربين من العقيد لوكونت. وقد أصبت عندها بحسرة بالغة، لقد زادت هذه المسألة في تعقيد الأمور، إذ تعمقت أزمة العلاقة بين الإقامة العامة وبين السلطان.

دخول الوطنيين مجلس شوري الحكومة

خلال سنة 1948، جرت انتخابات جزئية في القسم المغربي لمجلس شوري الحكومة، وكان هذا الحدث بمثابة سابقة ليبرالية، فقد جرت العادة بأن يُختار ويُعين أعضاء هذا القسم دون اللجوء إلى الانتخابات،

وبدا جليا خلال هذه الانتخابات تأثير حزب الاستقلال، فمن بين واحد وعشرين ممثلا انتخب إحدى عشر مناضلا من هذا الحزب وأربعة أعضاء من المتعاطفين معه.

وتتالت بعد ذلك أحداث، منها أحداث فلسطين والنزاع بين اسرائيل، التي لا تتوفر على جيش نظامي ولا على سلاح عتيق، وجيرانها العرب، إضافة إلى الهزيمة التي تلقاها الجيش المصري على يد المتطوعين اليهود المسلحين من قبل بريطانيا العظمى، وكل هذه الأحداث أثارت انتباه العالم الإسلامي، وبقي المغرب طيلة هذه الفترة ساكنا.

غير أن هذا الهدوء لم يكن سوى مرحلة مؤقتة عابرة، وبقيت في الواقع العلاقات بين الإقامة العامة وبين القصر باردة ومشوبة بالحيلة والحذر. لقد كان السلطان متأكدا من مساندة حزب الاستقلال وصار يطمح إلى استرجاع سلطته كاملة وعلى رأسها المبادرة التشريعية التي أصبحت بيد ممثل فرنسا بمقتضى معاهدة 1912، وفي هذا الإطار أنشأ مجالس خاصة لدى الوزارات المخزنية، تتكون من موظفين وأعضاء من حزب الاستقلال وتحدد دور هذه المجالس في الدراسة العميقة لكل نص طرح على أنظارها وإبداء رأيها إزاءه وتحضير مشاريع نصوص مضادة، وباختصار، كان الهدف هو إعاقلة الآلية الإدارية وتأخير صدور الإصلاحات المزمع إصدارها، فكان الشعار إذن هو عرقلة التغيير، فلا إصلاح في ظل التبعية (la dépendance).

وفي نونبر 1949، وفي خطابه الترحيبي بأكاديمية العلوم الاستعمارية بباريز تحدث الجنرال جوان عن "السيادة المشتركة المغربية - الفرنسية" ولم يكن لهذا المفهوم أي سند قانوني، فرأى السلطان في هذا الشأن مسافرا بحقوق المغرب وقرر بالتالي التخلص في أقرب الأجل من الرجل الذي جاء بنيات حسنة قبل أن يتم "تدجينه" من قبل الاستعمار (المعمرين)، هذا ما كان يقال على الأقل بين أوساط مستشاري السلطان.

رسالة فاتح ماي من الجنرال جوان إلى الشؤون الخارجية

في رسالة مؤرخة بفاتح ماي 1950 إلى رئاسة الحكومة (والتي تسلمت نسخة منها) عرض الجنرال جوان على وزير الشؤون الخارجية

رؤيته حول المغرب والسياسة التي يجب نهجها في هذا البلد، ونظرا لما تكتسبه هذه الوثيقة من أهمية قصوى، ارتأيت أن أستعرض منها مقتطفات وافرة⁴⁷.

“انتبه الوطنيون إلى التغييرات التي يعرفها العالم العربي كتهيء مشروع يتم بمقتضاه تمتيع ليبيا بالاستقلال والإشاعات المتعلقة بإحداث إصلاحات بنوية بتونس واستئناف نشاط مصر بإيعاز من حزب الوفد بخصوص استقلال بلدان إفريقيا الشمالية. فبدأت الأحزاب الوطنية تُكثف تحركاتها حتى يكون لها وقع في الخارج وتؤدي إلى تنديد عالمي يجُرنا إلى التخلي عن معاهدة فاس.

وبما أن الساكنة المغربية لم تعر أي اهتمام لهذا الخطاب الذي يدعوها إلى ترجمة إرادتها في «جعل حد لسيطرة القوة المحتلة» إلى أفعال أو على الأقل إلى إشارات رمزية، كرس معارضونا كل مجهوداتهم نحو الخارج، ولقد عبروا عن ذلك في 30 مارس الماضي بمناسبة حلول ذكرى معاهدة فاس. وإن كنت لا أدري نوعية وأهمية المذكرات التي أثقلت حجم الملفات لدى الهيئات الدبلوماسية الأجنبية إلى يومنا هذا، فمن جهتي توصلت بالرسالة الموجودة صحبتته من حزب الشورى والاستقلال حيث يعرض زعميه محمد الوزاني - بأسلوب التفخيم المعهود في عرقه - رأيه حول تطور المغرب...

لقد تخلى محمد الوزاني مؤخرا في مذكرته عن فكرة تحسين وتطوير النظام الحالي وصار يطالب مثل حزب الاستقلال بإبطال معاهدة فاس والاعتراف بسيادة المغرب مع العلم أن اتفاقا تمهيديا قد يُمكن من إعداد هيئة حكومية تتوفر على الصلاحية للتباحث مع فرنسا قصد الوصول إلى اتفاق جديد في إطار الملكية الدستورية.

من البديهي أن تظهر الحماية كوضعية متجاوزة ومتعارضة جدا مع مبدأ حق الشعوب "في التحكم في شؤونها"، لكن هذه الحقيقة ليست كافية لإدخال إصلاحات بنوية عميقة منذ الآن، إذ سؤثر سلبا على

47- كنت قد ألحقت في أواخر 1949 برئاسة المجلس.

عصرنة البلاد وعلى الحفاظ على الأمن والنظام أي على الأمور التي تبرز وجودنا في المغرب.

لنتساءل عن وضعية الوعي السياسي الآن في المغرب؟

فمن بين الحزبين الأساسيين يبقى الحزب القومي (الشورى والاستقلال) الحزب الوحيد الذي يتصور عن قناعة ضرورة اللجوء إلى شكل من أشكال الحكم الجديد الذي أصبح ساري المفعول في بعض الدول العربية في الشرق الأوسط.

أما حزب الاستقلال فإنه يطمح إلى إبعاد فرنسا وإحلال نظام استبدادي مطابق لمبادئ الشريعة، يحتل فيه الصدارة العنصر العربي أي عنصر الأسياد، ولهذا العنصر وحده الحق بالانفراد بالحكم وبسط نفوذه. وبالفعل، فقد تحالف لهذه الغاية مع الإصلاحية الدينية المتمتزة التي مكنت ابن سعود من حماية مجموع ترابه من تأثير حضارات الغرب. ووفاء لهذا التيار، اعتنى السلطان بتحيين وتطوير تعليم اللغة العربية لقطع الطريق على الثقافة الفرنسية، وفي نفس الوقت، كان حزب الاستقلال يرفض الدخول إلى الجمعيات سواء كانت رياضية أو نقابية أو تجارية أو صناعية حتى لا يشجع ذلك على الانخراط في تنظيمات أو جمعيات من مستويات عليا. فكان هذا الموقف ناتجا عن نوايا سياسية وفي ذات الوقت ضرورة دينية نوعا ما.

لقد أصبح الحكام التقليديون من قياد وباشوات يبدون قلقا متزايدا إزاء المكانة التي يحتلها الوطنيون في الساحة السياسية نتيجة الشواهد التي حصلوا عليها من جامعات القاهرة أو باريس، هم الذين لم يفتنوا مبكرا إلى أن مهمتهم لا تنحصر في فرض الاحترام بالقوة، سيفهمون يوما ما أن التعلم والاستحقاق الانتخابي وحدهما كفيين بتأهيل الحاكم.

يقول الجنرال جوان، إن المستفيد الأكبر من الوحدة الفرنسية - المغربية، وهو على صواب، طرف واحد هو الدولة الشريفة.

لقد تم تجهيز المغرب على نمط الدول العصرية، مستفيدا في ذلك من الممولين والتقنيين الفرنسيين ولقد تمكن الآن من تسديد كل ديونه تقريبا. وبناء على ذلك فله الحق في التمتع بكل ما شيد من بنايات وطرق

وقاطرات وموانئ وسدود ومعادن وكل ما أنجزته فرنسا، ولم تخضع القروض لأي رهن وهذا عربون قاطع على النوايا الحسنة التي تكمن وراء كل الأعمال التي قمنا بها.

أما الجانب التشريعي فهو من الصلاحيات الخاصة بالسلطان فهو الذي يدير في آخر المطاف شؤون الدولة، إذ لا يخطئ بتاتا حينما يرفض (توقيع) ظهير لا يتناسب مع تصوراته فيما يخص ممارسة الحكم.

فخلافًا للمظاهر الخارجية، فإن للدولة الشريعة طابعها الخاص وفي الوقت ذاته، فإنها تتمتع بنوع من الاستقلالية. وخير شاهد على ذلك هو ما وقع مؤخرا عندما عارض السلطان دخول باخرة إسرائيلية إلى ميناء مغربي.

وحسب الجنرال جوان، فإن التخلي عن معاهدة 1912 سيُلقي لا محالة بالمغرب في أزمة عسيرة، لذا وجب علينا، في نظره، الحفاظ على الوضع كما هو عليه ومساعدة الدولة المحمية حتى تصبح مؤهلة، قادرة على إدارة شؤونها بنفسها، وقد عمل كل ما في وسعه لإقناع السلطان وجعله يتقاسم معه هذه الرؤى. وفي حالة فشله، فإنه سيعمل على أن تشارك المناطق الداخلية أي القرى في الحياة السياسية أكثر مما مضى، فكان يرى «أن تواجد هذه القوى داخل الجماعات والمجالس أو خارجها أيضا، سيحد من تأثير ونشاط القصر والوطنيين».

وفي الختام، يقدم الجنرال جوان الأفكار الرئيسية التي ستؤطر عملنا كما يلي:

« - الإشراك المتزايد للمغاربة في تسيير شؤون بلادهم،

- التعويض التدريجي للموظفين الفرنسيين بموظفين مغاربة يتوفرون على التكوين الملائم، وبالطبع سيبدأ هذا التعويض من الأسف،

- توسيع الهيآت المنتخبة من جماعات ومجالس حتى نتمكن من إقحام عناصر متعاطفة معنا في هذه المؤسسات التي سنحتفظ لها بدور استشاري فقط حتى لا يتم إقصاء التمثيلية الفرنسية».

زيارة السلطان الرسمية لفرنسا (أكتوبر 1950)

قام السلطان بزيارة رسمية لفرنسا في أكتوبر 1950، ولم يكن لي بهذه المناسبة أي لقاء مباشر بحاشيته، ورغم ذلك لا يمكنني أن أمر مرور الكرام على هذه الزيارة التي لم تسفر عن أي نتيجة تذكر عدا تفاهم الأزمة بين السلطان والممثلين الفرنسيين.

وأقدم هنا ما يقوله جاك ديمان، مدير البروتوكول عن هذه الزيارة⁴⁸:

في 15 أكتوبر.

«لست أدري ما سأكتبه عن زيارة السلطان الرسمية التي تركتني قلقا غير مرتاح ودون سرور.

لقد بدا السلطان أكثر لياقة وحفاوة مع السادة بليشان وشومان مما جعل الجنرال جوان غير مرتاح لكونه يعلم أن حديث الملك وسكوته بين الفينة والأخرى يدور حوله.

انعقدت جلسة حوار رسمية يوم 11 أكتوبر كاد الجنرال أن يفقد فيها صوابه، حيث ظن أن السيد أوريول يريد أن يتحدث مع محمد بن يوسف على انفراد، فأثار المقيم العام الانتباه قائلا أنه وزير خارجية المخزن ولهذا فله الحق في حضور كل حديث يتناول بالدرس العلاقات الفرنسية - المغربية، وبالف في التأكيد على ذلك حيث كان يخشى أن يربط السيد أوريول والسلطان علاقة شخصية مما أثار حفيظة الرئاسة وأذكي انفعال المقيم العام، وبهذا خيم التوتر على الجو العام الذي مرت فيه هذه الزيارة الرسمية. وخلال محادثات 11 أكتوبر فوجئ الوزراء بالإصلاحات الوجيهة المقترحة من طرف السلطان والتي لا تمس بتاتا بمصالح نظام الحماية (في الواقع لم يبق أحد يفوه بهذه الكلمة).

«فهل يريد سيدي محمد بن يوسف⁴⁹ مراوغتنا؟ إن هذا جد ممكن، لكونه لحد الآن لا يختلف معنا حول المشاكل الحقيقية بقدر ما يختلف حول أشخاص، إنه يهدف إلى تحية المقيم العام، ولذلك أبدا نوعا من

⁴⁸ - جاك ديمان، الكي دورسي، 1945 - 1951، منشورات جوليارد، ص. 528 و530.

⁴⁹ - يجب القول سيدي محمد بن يوسف.

الليونة واللياقة إزاء الحكومة، ومن حين لآخر كان يقول «أترؤن كيف يمكننا التفاهم بسهولة حينما ترضون بمحاورتي». وبالرغم من ذلك، لم تهديه الحكومة الفرنسية رأس الجنرال جوان كما فعلت سابقا، عندما ضحت ببيو ولابون»⁵⁰

وفي نفس المساء، تقدم السلطان بذاكرة يطالب من خلالها لا بالاستقلال حيث لم تذكر هذه الكلمة. وإنما بإعادة النظر في العلاقات المغربية الفرنسية برمتها. ولقد توصل برود جد مبهم في 31 أكتوبر يتحدث عن الحق النقابي ونظام الصحافة الخ، فأصدر السلطان بلاغا، مفاده أنه ليس هناك أي شيء يعطي للعلاقات الفرنسية المغربية أسسا متينة وصالحة سوى إصلاحا بنيويا يجعل حدا لنظام الحماية. وفي هذه المرة اتخذ موقفا صريحا وواضحا.

فيذا أتى سيدي محمد إلى فرنسا عبوسا ضجرا فما هو يغادرها خائبا متذمرا، إذ لم يتمكن من أن يجعل النقاش مع الحكومة الفرنسية ينصب على صلب الموضوع وهو إقناعها بتغيير، أو على الأقل، تليين النصوص التي تحدد نوعية العلاقات بين فرنسا والمغرب. ومن الواضح أن باريس سنة 1950 كانت بعيدة بالنسبة لموقف الجنرال ديغول سنة 1945، لذا اضطر سيدي محمد إلى فسح المجال للوطنيين، بل انساق مع هذا التيار وصار يرفض ختم الظواهر التنظيمية⁵¹. وإذا كان يتملص بذلك من الشؤون الجارية، فإنه يرفض أن يأخذ المستقبل باستخفاف

حوادث مجلس شورى الحكومة (دجنبر 1950)

لم يمر وقت طويل، على اتخاذ هذا الموقف، حتى بدأت تظهر عواقبه، ففي 6 و7 دجنبر قام أحمد اليزيدي، وهو ضابط مغربي سابق في صفوف الجيش الفرنسي وأخ لمحمد اليزيدي، ومحمد لغزاوي، وهو صاحب شركة كبيرة للنقل بفاس ورجل أعمال هام، بانتقاد السياسة الفرنسية بالمغرب مدعيان أن عصرة البلاد تمت لصالح الفرنسيين وليس لفائدة مواطنيها، لقد تركهما المقيم العام يتحدثان، وبعد ذلك عقب

⁵⁰ - لم يطح بايريك لابون من أجل السلطان.

⁵¹ - كانت كتلة العمل الوطني - صاحبة مخطط الإصلاحات لسنة 1934 - تعارض بشدة السياسة التي مارسها القياد الكبار منذ 1914 بمراكش ونواحيها.

عليهما ليعيد الأمور إلى نصابها مما أوقد فتيل جدال، تم على إثره طرد محمد لغزاوي من الجلسة فتنحى للممثلون العشرة المنتمون لحزب الاستقلال، والتحقوا توا بعد ذلك بالقصر حيث استقبلهم السلطان رسمياً، وعلى الفور اتخذ بذلك موقفا علنيا ضد الجنرال جوان.

وقد تركت هذه الواقعة أثرا عميقا في مختلف الأوساط فعبّر الحاج التهامي الغلاوي، باشا مراکش، عن استيائه العميق إزاء مناورات حزب الاستقلال التي ليست موجهة ضد فرنسا فحسب، بل تهدف كذلك إلى الإساءة للقياد المغاربة الذين استعملت في حقهم كلمات احتقار من قبيل: الرجعيين والمخلين والمتخاذلين والعملاء⁵²، وتجراً هذا الأخير طالبا من السلطان لوم وانتقاد حزب الاستقلال، فانزعج سيدي محمد من تصرف خادمه القوي والوفع وأمره بأن لا يمثل أمامه ثانية

ميلاد حركة للمعارضة والإصلاح (بداية 1951)

تحت تأثير ما حدث، جمع الغلاوي أصدقاءه وأنشأ بمساعدتهم حركة المعارضة والإصلاحات التي سرعان ما توسعت أهميتها، واتضح عندئذ أن الباشوات والقياد المغاربة قد ملوا من تحرشات حزب الاستقلال وكذلك من التعسفات التي كانوا يعانون منها حين مثلهم بالقصر، إذ كانوا لا ينالون رضى السلطان حسب قولهم إلا بتقديم الهدايا الفخمة أو الأموال الباهضة كلما حلوا بالرباط هدايا للسلطان وأخرى لأبنائه ولحاجبه ولقائد المشور ولعبيده السود أيضا⁵³ يسجل روبرت مونطاني أيضا في كتابه "ثورة في المغرب" أن المصاريف التي طالما حاربتها الحماية قد أصبحت أمرا متداولاً منذ سنة 1940. ودون أن نطيل، لقد بدأت شعبية السلطان تتراجع في 1951.

وقد طلب المعارضون مرة أخرى من السلطان التخلي عن حزب الاستقلال ومن جديد فشلت محاولتهم فبدأوا التفكير بدورهم في المرور

52- عندما يرجع القيا والباشوات إلى ديارهم، فإنهم يسترجعون ضعف الأموال التي أخذت منهم من محكومهم وذلك لسد حاجياتهم الشخصية. وهكذا يتعرض الشعب للتهب المتكرر، و ما يؤخذ عليه الفرنسيون هو عدم التدخل لرفع هذا الظلم الهرمي..

53- عندما يرجع القيا والباشوات إلى ديارهم، فإنهم يسترجعون ضعف الأموال التي أخذت منهم من محكومهم وذلك لسد حاجياتهم الشخصية. وهكذا يتعرض الشعب للتهب المتكرر، و ما يؤخذ عليه الفرنسيون هو عدم التدخل لرفع هذا الظلم الهرمي..

إلى العمل الفعلي. وفي الوقت ذاته يتساءل الجنرال جوان: هل أصبح واردا تطبيق تعليمات السيد رامادي المتعلّقة بخلع السلطان أو إقالته؟ لم يرقه كثيرا هذا الحل، لقد سبق له أن زاول مهمة المقيم العام بتونس لفترة قصيرة بعد استسلام القوات الإيطالية - الألمانية، وتمكن من الوقوف عن كثب على السليبيات الناتجة عن إبعاد الباي منصف.

ولدي شعور -وبالطبع ليس ذلك يقينا- أن الجنرال جوان بدل أن يلجأ إلى هذا الحل المتطرف فضل السماح للمعارضين بتنظيم مسيرة إلى الرباط قصد الضغط على السلطان، وبالفعل بدأت حشود القبائل تتجمع في ضواحي فاس والرباط، وعندما اعتبر أن هذا التهديد وحده كاف، أمر القبائل أن تقض تجمعها علما منه أن حركة تمردية كهاته يمكنها أن تفجر اضطرابات خطيرة، لذا وجب إيقافها في الوقت اللازم، وحينئذ التفت إلى المخزن.

لقد التزم السلطان الصمت إزاء ما حدث، وسمح للصدر الأعظم بأن يشجب رسميا النهج الذي سلكته بعض الأحزاب... وباستعماله لصيغة الجمع توارت شحنة التوبيخ التي كان يتضمنها هذا التدخل، وأخيرا ارتأى سيدي محمد أن يوقع بخاتمه مشاريع ظواهر كانت قد تراكمت، وبالطبع لم تكن هذه الهدنة سوى وقفة مؤقتة. فخلال مقابلته مع الصحفي المصري محمد عزمي في أبريل، أعلن السلطان أنه بالفعل اتخذ بعض القرارات منذ شهرين مضت، تحت الضغط والإكراه.

وحينها وعندما تأكد الجنرال جوان أن إخراج السلطان من قوقعته أصبح أمرا مستحيلا، ولما بات مقتنعا أن الوطنيين لن يكفوا عن رفضهم لكل الإصلاحات التي يجب تمريرها في إطار معاهدة 1912، قرر اتخاذ الإجراءات التي تضمنتها رسالته المؤرخة بفتح ماي 1950 والتي تناولت مشروعا مفاده فسخ المجال أمام الساكنة القروية حتى يُسمع صوتها هي الأخرى.

وهنا تجب الإشارة إلى أن الأمر لا يتعلق، كما قيل فيما بعد، بإعادة التعامل بما يسمى بالسياسة البربرية (لسنة 1930) والتي توحى بالواجهة بين المدن والقرى، بل كل ما في الأمر هو جعل حدٍ لهيمنة الوطنيين الذين احتكروا لأمد طويل حق التكلم بمفردهم باسم المغرب

برمته، وأمام حزب منغلق على نفسه يدعي الكونية، تُستحسن الإشارة إلى أن هناك أصوات أخرى لها آراء جد مختلفة. وإذا كان هناك تشكيك في نوايا المقيم العام في هذا الشأن، فتحيل المتشككين على المقطع الموالي من رسالة فاتح ماي 1950: «ليس من صلاحياتنا أن نحرر تلك القوى المناوئة⁵⁴ سياسيا- بهدف إحباط ادعاءات الوطنيين ودعماتهم الخارجية».

وبعد تردد طويل، ختم السلطان في 6 يوليوز 1951 ظهورا تنشأ بمقتضاه على امتداد المغرب، بالمدن والقرى، مجالس الأحياء والدواوير حتى تتمكن الجماهير الشعبية من إسماع صوتها وتتعلم بطريقة ملموسة تسيير شؤونها بذاتها، بينما رفض بإصرار واستمرار الإصلاحات البلدية التي تمكن الساكنة الفرنسية من إقامة هيئة تمثيلية منتخبة.

لكنني أعلم من مصادر موثوق منها أنه كان بإمكان السلطان قبول تعيين بعض الفرنسيين بالبلديات من طرف الإقامة وذلك من أجل الاستشارة على الأقل لكونهم يتميزون بالكفاءة والحكمة، فرفضت الإقامة مناقشة هذا الطرح.

الحركة الوطنية والشبيبة العصرية

لكن ليس ذلك هو المشكل الحقيقي. وإنما المشكل يكمن بالأساس في سلوك الشبيبة المتعلمة، والذي أصبح يدعو إلى القلق، فدون أي ريب، كان الشباب على اختلاف شرائحهم الاجتماعية وراء الزعماء الوطنيين، وهذا أمر خطير عندما يتعلق الأمر ببلد غير متطور نصف ساكنته لا يتجاوز عمرها عشرون سنة⁵⁵. فمن المؤكد أن شبيبة القرى لم تكن تابعة للحركة الوطنية لكنها كانت جاهلة وغير منظمة، وبالتالي غير قادرة على إسماع صوتها والإدلاء برأيها مما جعلها غائبة على المستوى السياسي، وإذا تابع شاب قروي دراسته في إحدى الثانويات،

⁵⁴ - تتشكل هذه القوى المناوئة من الزوايا والقبيلة القديمة

⁵⁵ - كانت ساكنة المغرب تتشكل آنذاك من 45 % من السكان تتراوح أعمارهم بين 20 و60 سنة و5 % تتجاوز 60 سنة. وفي الوقت ذاته كانت ساكنة فرنسا كما يلي: 30 % أقل من 20 سنة و54 % من 20 إلى 60 سنة و16 % ما فوق 60 سنة.

فسرعان ما يصبح بدوره وطنيا وهذا راجع للمناخ السائد داخل هذه المؤسسات...

وفي المغرب كباقي الأنحاء، كان الشباب هم الذين يؤثرون في آخر المطاف على الرأي العام، وهذا بالطبع أمر بديهي، فبعدما نكون قاصرين نصل سن الرشد بسرعة فائقة، ويتأثر المرء كثيرا بما عاشه في الماضي القريب وعلى وجه الخصوص إذا اصطدم بواقع اجتماعي ونظام سياسي وعارضهما بشدة.

مشكل الشباب: التكوين والتشغيل

ومن اللائق أن نسلط هنا بعض الضوء على المشاكل المعقدة التي تدخل في نطاق تهيب مهنة ما ومناصب الشغل وأخيرا تطلعات الشباب المغربي إزاء المستقبل الذي ينتظرهم بعد إتمام الدراسة، إن هذه المعطيات جد ضرورية لفهم الأحداث التي سيتمخض عنها بعد بضع سنوات فقط تصريح لا سيل سان كلو في 6 نونبر 1955 والذي حصات بموجبه الامبراطورية الشريفة على الاستقلال.

وسوف أدرج عدة فقرات من دراسة تحمل عنوان "مواطن القوة في المغرب العصري" (Les lignes de forces du Maroc moderne) والذي صدر في العدد الرابع من "السياسة الخارجية" (غشت - شنتبر 1955): «في طليعة النضال الذي خاضه العصريون نجد بالطبع الشباب الذي أنهى دراسته الثانوية بنجاح. ونظرا للشائعات التي كانت تدعي أن الشباب المغربي المتعلم لا يجد منافذ للشغل، فسنفاجئ الكثيرين - ومنهم كذلك من يقطنون في المغرب - إذا كشفنا عن حقيقة الأمر، فشغف المغاربة المسلمين بالدراسة أو التعليم العصري حديث العهد جدا، لذا فعدد الذين اجتازوا البكالوريا بأكملها منذ بداية الحماية هو 530 مع احتساب دورة أكتوبر 1954 (عدد الاسرائيليين 625 والفرنسيين 7353). وفي نفس الوقت كان عدد المغاربة الذين اشتغلوا بالمهن الحرة كما يلي:

- 36 طبيبا (من بينهم 17 اسرائيليا)

- 5 أطباء مختصين في طب الأسنان (منهم 3 اسرائيليين)

- 48 محاميا منهم 21 اسرائيليا

- وما يعادل 30 مهندسا.

ونضيف إلى ذلك 165 مغربيا كأطر عليا تعمل ضمن الإدارات الشريفة الجديدة و650 إطارا أساسيا، من بينهم 450 معلما، وهذه الأعداد كلها جد ضئيلة...

أما فيما يخص منافذ الشغل، فيؤكد صاحب الدراسة أن الأمر ليس بالهين كما يعتقد عموما على المستوى النظري «فالمشكل لا يطرح بحدّة حيث أن ظهيراً صادراً في 1948 ينظم ولوج المغاربة الشباب إلى الإدارة الشريفة الجديدة دون مباراة بل بتقنين الباكالوريا أو دبلوم مغربي يعادلها، وذلك بالنسبة للإطار الأساسي (cadre principal) والإجازة أو دبلوم مغربي يعادلها إذا تعلق الأمر بالأطر العليا. ونظراً لقلة المرشحين، فجل المغاربة الذين يلجون إلى مناصب الأطر العليا مروراً بالمدرسة المغربية للإدارة l'Ecole marocaine d'administration (السلك العالي) ليسوا مجازين بل لم يحصلوا على البكالوريا، ففي 1954، من بين 15 طالب في السلك العالي، لم تحترم قاعدة القبول إلا بالنسبة لأربعة أشخاص، حصل واحد منهم فقط على شهادة الإجازة، وهذا راجع لكون الشاب المغربي الحاصل على البكالوريا لا يرغب في أن يصبح سكرتيراً إدارياً وأن الحاصل على الإجازة لا يود أن يكون محرراً (Rédacteur) أو قاضياً (Magistrat)».

لم يكن إذن المغاربة الشباب الحاملين للشهادات ليرضوا بالانخراط في المناصب الإدارية السفلى وأن يتسلقوا تدريجياً سلالم الهرم الإداري، كما يفعل ذلك الموظفون الفرنسيون، بل كانوا يودون الحصول على مناصب عليا ذات أجر هام ومسؤوليات حقيقية منذ البداية، فكان هؤلاء يرفضون العمل المشرف فقط، نظراً لأنهم يطمحون إلى ممارسة السلطة، وفوق ذلك كله، يرغبون أن يكون تحت أوامرهم موظفون وتقنيون فرنسيون، إنها ردة فعل نابعة عن الإحباط ومركب النقص، كما يقول الفروديون.

فمن البديهي أن مثل هذا التصور لا يتناسب بتاتا مع العادات ومع التقليد الإداري الفرنسي. فوجهات النظر كانت جد متباينة ولن يقبل أي

فرنسي العمل تحت قيادة مغربي. يقول صاحب مَوَاطِن القوة في المغرب العصري: «نخجل من تقديم بعض الحالات كمثّل الضابط المغربي - وهو من قدماء المحاربين - الذي ترشح لانتخابات مكتب جمعية قدماء المحاربين فرع الرباط، فطلب منه أن يسحب ترشيحه لأن المغاربة ينتخبون ولا يُنتخبون».

وكذلك الشأن بالنسبة للمحامي المغربي الذي لا يمكن أن يصبح نقيبا كمثله الجزائري رغم أنه مواطن فرنسي.

مغادرة الجنرال جوان للمغرب (يوليوز 1951)

خلال مزاولته لمهمته في المغرب اصطدم الجنرال جوان، كما رأينا ذلك، بصعوبات جمة ولم تكن له الإمكانيات اللازمة لتخطيها. ففي مجال الإصلاحات التي تجعل المغرب يتأقلم مع شروط دولة حديثة في طريق الديمقراطية، لم يتمكن من لعب دور المنشط الرائد تماشيا مع معاهدة 1912 وذلك لكون محاوريه يفايضون كل إصلاح بمراجعة تلك المعاهدة وإعادة النظر فيها، بمعنى نيل الاستقلال.

ورغم ذلك كله، فلم يكن عمله عديم الجدوى على الإطلاق، بل تمكن من تمرير إجراءات هامة لم تأت أكلها، لسوء الحظ، نظرا للصراعات القائمة والشك والحذر المتبادلين. ونعرض هذه الإجراءات فيما يلي:

- إنشاء المدرسة الإدارية المغربية،
- إعادة تنظيم القيادة (Le commandement) في المدار الحضري،
- إنشاء الحالة المدنية بالنسبة للعمال المغاربة،
- تدارس مشروع يتعلق بالفصل بين السلط في العدل وتمرير القانون الجنائي (code pénal).

وفي يوليوز 1951، عين الجنرال جوان قائدا أعلى للقوات البرية والجوية والبحرية لأوربا الوسطى، وعوضه الجنرال أوغويستان كيوم، وهو ضابط سابق بمصلحة شؤون الأهالي وكذلك مدير سابق للشؤون السياسية أواخر إقامة الجنرال نوجيس، وبذلك يصبح عاشر مقيم عام لفرنسا بالمغرب.

الفصل العاشر

انقلاب غشت 1953

الجنرال كيوم، عاشر مقيم عام

تم استقبال الجنرال كيوم استقبالا حسنا عند وصوله إلى الرباط في 3 أكتوبر 1951، لم ينس السلطان أن كيوم كان مديرا للشؤون السياسية أثناء فترة إقامة صديقه نوجيس. لقد احتفظ السلطان كذلك بذكريات حسنة للاستقبال الذي خصه به الجنرال باشتوتجارت أثناء زيارته المظفرة لألمانيا في جوان 1945. إلا أنه لم يمر غير زمن قصير على وصول كيوم إلى المغرب حتى بدأ المقيم العام الجديد يصطدم بنفس الصعوبات التي عرفها سلفه حيث لم يبق تعويض مسؤول بآخر كافيا لتنقية الأجواء.

وبالرغم من افتقاده لديوانه الشريف - أي مستشاريه الوطنيين - الذي تم حله على إثر الضغوط الملحة للجنرال جوان، فقد بقي سيدي محمد على علاقة وطيدة بالوطنيين⁵⁶، وكان مثلهم شديد التشبث بالمطالب المتمحورة حول فسخ معاهدة 1912. ففي 20 مارس 1952 بعث بمذكرة مطلبية إلى فرنسا مقترحا بادئ ذي بدء تنقية المناخ برفع الحصار عن البلاد ومنح الحق النقابي وتشكيل حكومة تمثيلية عصرية حقيقية مع فتح مفاوضات من أجل تحديد طبيعة العلاقات الفرنسية - المغربية الجديدة. وبعد مضي ستة أشهر لم يتوصل إلا برد سلبي مهذب يلمح بإيهام إلى مفهوم الارتباط المتبادل Interdépendance مع التأكيد على الحفاظ على معاهدة فاس.

لم تكن الحكومات التي تعاقبت بباريز تتوفر على أغلبية برلمانية مريحة، لهذا لم يتمكن أي رئيس حكومة من اتخاذ موقف واضح تجاه

⁵⁶ - كان مدير الديوان السلطاني هو محمد باحنيني الذي سبق وأن نفي إلى وجدة.

القضية المغربية، مخافة فقدان بعض الأصوات الثمينة سواء من اليمين أو اليسار، مما قد يؤدي إلى الإطاحة بحكومته، فظلت إذن السياسة الفرنسية متموجة ومتردة. وكنا نشعر أن الإقدام والدفع بالأمور إلى الأمام شيء وارد طالما نحن أقوياء، وفي ذات الوقت لم تكن الجراءة كافية ليتم الاستغناء عن الأمن الزائف الذي توفره اتفاقيات الماضي، وكان التاريخ لم يعلمنا أن المعاهدات ليست أبدية! وفي إطار الاحتياط للمستقبل أريد منح الفرنسيين مسبقاً بعض الضمانات على المستوى الاقتصادي وعلى المستوى السياسي كذلك، فتم في هذا الصدد اقتراح إصلاح يهم البلديات يمنح الفرنسيين حق المشاركة في تسيير شؤون المدينة التي يستقرون بترابها. ولم يكن تصور هذا قانون إلا تعبيراً صارخاً عن ضمانات مزيفة، إذ يمكن التساؤل عن قيمة نص مثل هذا في فترة ما بعد الاستقلال؟ فباختصار يمكن القول إن الجانب الفرنسي كان قصير المخيلة مفرط الغرور.

وفي المقابل، كان الوطنيون منطقيين مع أنفسهم حيث رفضوا قطعاً قبول كل ما يشبه، ولو من بعيد، اقتسام السيادة، فكان شعارهم الراسخ هو لا للسيادة المشتركة *pas de souveraineté partagée*، ولهذا صار مجلس الوزراء والمديرين الجديد رغم إيجابياتهم عدواً لذوئهم. ومن جهة أخرى، لم يطرأ أي انفراج في العلاقة بين القصر وبين أعضاء "حركة المعارضة والإصلاح".

وبدا القلق والانزعاج ينتاب الساكنة الفرنسية التي أصبحت تطالب بسياسة الرد الحازم وبسياسة التشدد. لقد التقيت مرات عديدة في باريس بصديقي والناطق باسم المعمرين *les colons* السيد أوكوتوري *Aucouturier* الذي يترأس في آن واحد الغرفة الفلاحية بمكناس وفدرالية الغرف للفلاحية بالمغرب، كنت أعرفه منذ أمد طويل وأقدر مكانته. لقد كان رجلاً حي المزاج ينفعل أحياناً ويدافع بكل ما لديه من قوة عن مصالح من وضعوا فيه الثقة ككل بدوي منحدر من وسط فرنسا، لكنه في الوقت ذاته كان يتمتع ببعد نظر وجراءة وإحساس بالمصلحة العامة، لذا كان بإمكانه أن يظهر بمظهر الشخص الرصين المعتدل والعفيف. لم يخف عني أن فرنسيي المغرب بدأوا التحدث عن إمكانية خلع السلطان، وطلب مني إبداء رأيي في ذلك. عبرت له عن

وجهة نظري وأظهرت له لماذا أعارض هذا الرأي. ذكرته بالسابقة التونسية في 1943، ووضحت له أن إجراء مثل هذا سيزيد من شعبية سيدي محمد ويوطدها وسيفتح الباب على مصراعيه لاضطرابات داخلية خطيرة ناهيك عن العواقب التي سيخلفها على مستوى الأمم المتحدة ودول الشرق الأدنى⁵⁷. لقد أصابت هذه الحجج هدفها وجعلت مخاطبي يفكر كثيرا.

ومن خلال هذه المحادثات اكتشفت من جهة أخرى أن الإقامة التي كان لها تأثير قوي على الرأي العام الفرنسي أيام نوجيس أصبحت الآن موضع استخفاف لا يُنصت لها، إذ كانت لا تهتم بإخبار الرأي العام وتثويره وإقناعه، ومن هنا تراجع التواصل بينها وبين ذلك الرأي العام.

في يوليو 1952، أرسل لي الجنرال أولي الذي تعرفت عليه في باريس تذكرة الطائرة ذهابا وإيابا لكي أزور المغرب، كانت لدي رغبة كبيرة في إعادة ربط العلاقة مع هذا البلد الذي قضيت فيه أجمل سنوات حياتي كضابط وكنت أود كذلك التحدث مع أصدقائي الفرنسيين والمغاربة حتى تكتمل لدي الرؤية. أجلت هذا السفر لعدة مرات لظروف خارجة عن إرادتي وفي الأخير، تخليت مجبرا عن هذا المشروع، لكن بعض أصدقائي أخبروني أنني أحسنت عندما ألغيت ذلك السفر. لقد كانت المواقف، حسب رأيهم، جد متباعدة وبالتالي كان من الممكن أن أتعرض للوم من جميع الأطراف، إن هذا ممكن، لكن المهم هو متابعة الأمور ومحاولة فهمها واستيعابها وليس مغالبة طرف من الأطراف.

في 18 نونبر 1952 ألقى السلطان خطابا ساميا هاما بمناسبة عيد العرش، فقال على الخصوص: «إذا نجح نظام الحماية منذ نشأتها في تحقيق نتائج ملموسة على المستوى الاقتصادي، فإنه لم يساير على المستوى الاجتماعي والسياسي روح العصر الجديد ولم يساير تطور الشعب المغربي...» وبناء على ذلك طالب السلطان بتأهيل البلاد

⁵⁷ - هذه السابقة تتمثل في عزل المنصف باي وتعيينه بالأمين باي الذي اعتبر كميل استحوذ على الحكم إلى حدود وفاة منصف على الأقل. لقد تحالف في الأخير مع أعدائنا ليكتسب شيئا من الشعبية ولم يفلح في ذلك. إن احتياله وانعدام كفاءته جعلته حقيرا في نظر كل الأطراف.

وانعتاقها وطالب كذلك بالحريات المدنية والحق النقابي والتعليم ومنح المرأة حقوقها على المستوى المعنوي والمادي والاعتراف بالهوية أو الشخصية الدولية للمغرب la personnalité internationale.

حوادث الدار البيضاء الدامية (نجنبر 1952)

في نونبر 1952 اغتيل النقابي التونسي فرحات حشاد وأشيع أنه قتل على يد أوربيين، فقرر المسؤولون النقابيون على إثر ذلك تنظيم مظاهرات احتجاج بالدار البيضاء واندلعت على إثر ذلك اصطدامات عنيفة بين قوات الشرطة والبروليتاريا، تركزت بالأساس في "مدن الصفيح" بكاريان سانتيرال. لقد قتل العديد من الأوربيين في ظروف جد قاسية وبذلت قوات التدخل الجهد الجهد لإنقاذ وحماية العائلات الأكثر تعرضا للخطر أولا، وإعادة الاستقرار والأمن ثانيا. وخلال هذه المواجهات الرهيبة قتل إثنان وثلاثون أو أربع وثلاثون متظاهرا وجرح العديد منهم، كما اعتقل ثمانون عضوا من حزب الاستقلال والاتحاد المغربي للشغل، اللذان اعتبروا مسؤولين عن هذه الأحداث. ومرة أخرى تم حل حزب الاستقلال الشيء الذي يعد أمرا واحيا⁵⁸.

وقد كانت هذه القضية وراء تحول في المغرب نفسه، حيث تعمق العداء ضد الوطنيين، واقتنع أصحاب "حركة المعارضة والإصلاح" أكثر مما مضى بضرورة جعل حدًا لتصرفات المشاغبين (الوطنيين)، كما عبر العديد من سكان المدن عن استيائهم وضجرهم من الاضطراب المستمر الذي يشعل فتيله حزب الاستقلال، وعبروا عن سأمهم من تهديداته وشعاراته وإضراباته ومقاطعته وحظره للأشياء. وباختصار، لقد ملوا من الطغيان الذي يدعي ممارسته هذا الحزب الديكتاتوري على الحياة اليومية للأفراد والجماعات، لكن السلطان لم يتخذ أي موقف إزاء كل ذلك.

أما على المستوى الخارجي، فلقد كانت انتفاضة البيضاء جد إيجابية بالنسبة لحزب الاستقلال. فقد كان يستقر بباريس في تلك الفترة شاب

58- كان عدد المنخرطين في الحزب آنذاك يقدر بـ 80.000 على صعيد المغرب كله وجليهم منحدرين من المدن.

مغربي يسمى أحمد العلوي مسجل بكلية الطب - في الواقع لم يكن يتابع دراسته - لكنه كان مسؤولاً عن علاقات حزب الاستقلال بالأوساط الصحافية الباريزية⁵⁹. كان رجلاً ذكياً، تفتح في وجهه كل الأبواب بفضل علاقاته مع مختلف الشرائح، فلم يكذب يتم الإعلان عن أحداث الدار البيضاء حتى أخبر كل معارفه وأصدقائه بمساعدة السيد دي بيريتي de Peretti وبعض الصحفيين. وبناء على معلومات خاطئة توصل بها عن طريق أصدقائه بالمغرب، عمل على تنبيه الوعي الفرنسي جاعلاً إياه أمام أشلاء الجثث وشهادات رهيبة تؤكد شراسة الاستعمار وطغيانه، فما لبث أن وصل عدد القتلى إلى ألف قتيل، أما الجرحى فقد صاروا يختبئون حتى لا يلقي عليهم القبض ويتم تعذيبهم، لقد سألت وديان من الدم كما دفنت جثث الضحايا في سرية تامة، وبحث العائلات المكشوفة عن مفقودها دون جدوى. ولم يلجأ أحد إلى مصادر الخبر لإظهار الحقيقة فاندلعت حملة شعواء منظمة. وتزامنت هذه الحملة مع وجود فرانسوا موريك في السويد حيث تسلم جائزة نوبل للأدب من أيدي ملك السويد، فلما سُئِل من طرف أصدقائه المتقنين السويديين عن ردود فعله إزاء البشاعات المؤسفة التي أخبرهم بها متقف مثلهم، هو العلامة علال الفاسي الذي سبق أن زار مؤخراً هذا البلد، انفعل فرانسوا موريك وكتب بدوره مقالات شديدة اللهجة في جريدة الفيجارو.

وبعد مدة قصيرة على الأحداث، قام الجنرال غيوم بزيارة لفرنسا، وقد أخبرني في أثناء تلك الزيارة باستيائه وقلقه إزاء هذه الحملة الشرسة التي لا علاقة لها بتاتا بالوقائع، وسألني: ماذا بإمكانني فعله إن كنت في مكانه؟ فأجبت: بأنني أذهب عند السيد بيار بريسون مدير الفيجارو وأطلب منه أن يهيء لقاء مع فرانسوا موريك، أضفت أن هذا الكاتب المعروف باستقامته الأخلاقية لن يتشبث بمواقفه إذا عرضت عليه الوقائع كما هي ووفرت له إمكانية التحقق منها، وعلى كل حال فلن يكذب كلمة شرف الجندي.

59- شريف علوي من أقارب السلطان، تقلد فيما بعد مهمة وزير الإعلام

لم يستحسن الجنرال غيوم هذا الاقتراح، إذ رد علي بقوله «أنا جندي ولست رجل سياسة، لست أنا الذي سألتقي بفرانسوا موريأك بل على وزير الخارجية أو وزير الدفاع أن يلتقي به، وعليهم كذلك في آخر المطاف الدفاع عني ! وبإمكانك أنت إبلاغ هذا إلى الرئيس جورج بيدو الذي تعرفه حق المعرفة». فأجبت مذكرا إياه أنه ليس ضابطا عاديا بل هو المقيم العام لفرنسا في المغرب ولو تعلق الأمر بالمارشال ليوطي في ظروف مماثلة لاتخذ نفس القرار الذي اقترحته عليك. إلا أن هذا الحديث لم ينفذ في شيء.

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل انضاف إلى الأوساط اليسارية جزء من الرأي العام تمثل في الكاثوليكين الليبراليين والذين تبناهم هم كذلك الأطروحة التي تدين الطرف الفرنسي، ونتج عن ذلك مركب الوعي الشقي الذي يثير الأسف.

ولحد تلك اللحظة لم تطرح فرنسا أي بديل بناء يعارض المخطط الذي قدمه السلطان بمعية حزب الاستقلال والذي يُلخص في منح الاستقلال، وتشكيل حكومة مغربية عصرية. وبعد ذلك، إذا كنا مرتاحين للدولة الحامية سابقا فلنناقش نوعية العلاقات المستقبلية التي ستربط بين الدولتين، ويعني هذا الطرح أن تضعوا «فينا كل الثقة لكي نعمل على ديمقراطية النظام السياسي، وكونوا أيضا واثقين أننا سنؤسس لعلاقات سليمة ومُرضية» بيننا وبين فرنسا. لكن، هنا يوجد الخلل، لقد تزعزعت الثقة وانعدمت منذ خدعة طنجة. أما الأحداث التي تلتها، فلم تزد الهوة إلا عمقا وشساعة. لم تتم المصادقة على رسالتين موجهتين إلى المقيم العام إلا في فبراير 1953، واستطاع المدير الجديد لإفريقيا والشرق، السيد ليون مارشال الحصول على توقيعهما من طرف جورج بيدو الذي ترأس مرة أخرى إدارة وزارة الشؤون الخارجية، وتعرض هاتان الرسالتان الهدف الذي يجب أن نعمل من أجله: إنه ديمقراطية المغرب، فحينما تأخذ الديمقراطية الطريق الصحيح وعندما تبرز مختلف مكونات الرأي العام المغربي وتصبح قادرة على التعبير بكل حرية، فآنذاك يمكننا مناقشة إشكالية العلاقات الفرنسية المغربية واقتراح استقلال أساسه الترابط المتبادل، بمعنى المساعدة والمشاركة المتبادلة بين طرفين.

نشاط حركة المعارضة والإصلاح

لكن في 1953، لم تكن تعليمات الكي دورسي بعيدة كل البعد عن تهدئة الوضع وتنقيته، بل أدت إلى التعجيل باندلاع المأساة الكامنة والخفية منذ أكثر من سنة، وفي هذه الأثناء ترعرعت وكبرت حركة المعارضة والإصلاح التي تلقت التشجيع، حسب ما قيل، من موظفين فرنسيين سامين - ولا أعلم إن كان ذلك صحيحاً؟ - ومن بين الأسماء التي ذكرت آنذاك نجد السادة دي بليسون ممثل أو نائب الإقامة العامة ولا تور دويان مستشار الحكومة الشريفة وقيلاً مدير الداخلية وبونيفاص حاكم جهة الرباط.

لقد أثار موقف الكي دورسي قلق المتأمرين فعملوا باستعداداتهم حتى يضعوا باريس أمام الأمر الواقع. لقد أصيب السلطان بالرعب أمام تطور هذه الحركة وأمام إعلانها عداً مطلقاً ضده، لكنه أصر على أن لا يستسلم لهؤلاء الإقطاعيين أياً كان شأنهم، واقترح على مختلف التيارات الوطنية كحزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال وأتباع المكي الناصري (المنطقة الاسبانية) أن يلتفوا حوله لمواجهة الخطر. إن هذا الالتحام الذي تجسد على المستوى العملي لم يوازن القوى في شيء، بل ضاعف من حزم وثبات المعارضين، ففي 5 مارس 1953 وجه علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والمكي الناصري من القاهرة رسالة إلى فانسون أوربول، رئيس الجمهورية معربين له عن معارضتهم الشديدة لضم المغرب للاتحاد الفرنسي، إنها مقاربة غريبة وغريبة لا أساس لها.

أما في المغرب نفسه، فقد بدأ خصوم السلطان يتحمسون يوماً بعد يوم وكبرت فيهم الجراءة، إذ راجت في 18 مارس عريضة تندد بسلوك السلطان وتطالب بخلع. وفي 4 أبريل، انعقد تحت رئاسة السي عبد الحي الكتاني الشريف الإدريسي مؤتمر الزوايا الدينية لإفريقيا الشمالية وهو مؤتمر شُجبت خلاله تصرفات سيدي محمد التي «تمثل خطراً على الدين»⁶⁰ وفي 11 ماي، حضر المارشال جوان والجنرال كيوم بتيزي

⁶⁰ - للشرفاء الأدارسة، المنحدرين من إدريس الأول وإدريس II مؤسسا مدينتي مولاي إدريس وقاس، نفس الحقوق في العرش كابناء أعمامهم الشرفاء العلويين. طمع الأخ الأكبر للسي عبد

تتريتن الموجودة بين أزرو وتيمحضيت أكبر تجمع لعشرات الآلاف من قدماء المحاربين وجلهم من الغوم سابقا، وهو التجمع الذي اعتبره الوطنيون آخر استعراض للقوات قبل المسير نحو فاس والرباط.

وفي 21 ماي، سلم الحاج التهامي الغلاوي للمقيم العلم عريضة تحمل توقيع 287 باشا وقايد يطالبون فيها بخلع السلطان، وفي 29 ماي صرح للصحافة الباريسية قائلا: «بالنسبة للممثلين الحقيقيين للشعب المغربي وبالنسبة لي كذلك، فإن السلطان قد سقط».

وباختصار، لقد حان زمن المواجهة واستعراض القوة وصرت أنتبع بقلق بالغ مؤشرات من خلال مقالات صحفية. كيف سيكون إذن موقفنا؟ فمعاهدة 1912، والتي يطالب القصر والوطنيون بإبطالها تلزمنا بحماية السلطان وسلالته ضد محاولات كتلك التي بدأت ترسم ملامحها أمام أعيننا، وفي باريس، نهبت وزارة الشؤون الخارجية الإقامة العامة مرارا وتكرارا إلى هذا الأمر... وفي ذات الوقت، ماذا كان بإمكان السلطان أن يفعل، وهو يزن جيدا دقة وخطورة الوضع؟ سافسح المجال لجان لاكوثير لكي يحدثنا عن هذه المرحلة الحاسمة التي كتب عن كل تفاصيلها لارتباطه بالمقربين من القصر:

«لقد تابع محمد بن يوسف المواجهة مع خصمه بطريقة المعهودة التي تتميز بالعناد اللين، حيث تتعاقب التحذيرات والمغازلة. وفي 15 يونيو وبمناسبة عيد الفطر، نشر القصر بلاغا يؤكد فيه «أن رفاهية الشعب المغربي المادية والمعنوية لن تتأثر إلا بالمساعدة الفعلية للسكان الفرنسية بالمغرب والتي ساهمت كثيرا في تطوره الحالي» ويضيف قائلا انه من الواجب ضمان مصالح فرنسا وفرنسيي المغرب. وما يشجع أكثر هو هذا المقتطف من الرسالة التي وجهت لرئيس الجمهورية في 29 يونيو: «فيما يخص الإصلاح المتعلق بالبلديات، فإنه ينسجم مع رغبتنا العميقة في منح مدننا هيئات منتخبة استشارية... لقد تبادلنا بعض

الحي في العرش قبل مجيء الحماية وأمر السلطان مولاي حفيظ عم سيدي محمد بتعذيبه والتفكيك به. كانت هناك حسابات وجب تصفيتها. أما أتباع الزلوية الكتانية، فهم قليلون نسبيا ويفترون بحوالي 15000 وليس بمئات الآلاف كما زعم السي عبد العالي الكتاني. لقد كان لهم بعض النفوذ على برايزة نواحي مكناس وتادلة والرباط

المذكرات مع الإقامة العامة قصد تحديد مدى فعالية هذا الإجراء ومعناه من الجانب القانوني لمشاركة العنصر الفرنسي في تسيير وتدبير الشؤون المغربية»، وأبى السلطان إلا أن يضيف: «إن الاتفاق الشامل حول هذا الإصلاح لا يمكن إنجازه في مناخ مليء بالانفعالات والدساتين».

لكن منذ أواخر يونيو بدأت تروج في المغرب عريضة جديدة وقعتها القياد وتزعمها هذه المرة إبراهيم الغلاوي ابن الباشا الأكبر. وتجدر الإشارة إلى أن الكي دورسي لم يتوصل بهذه العريضة إلا في 27 يوليو. وصدرت كذلك وثيقة أخرى في 2 يوليو ولم يتم تبليغها إلى باريس إلا في فاتح غشت «من المؤكد أن فرانسوا الأول كان يخبر من طرف سفيره في تركيا بكيفية أسرع مما عليه الأمر بالنسبة للسيد بيدو عن طريق السيد بليسون».

لدينا هنا رواية القصر، وقد تكون مقارنتها بنص البرقيات التي تم تبادلها بين الكي دورسي وبين الإقامة العامة من الأهمية بـمكان، لأنه من الصعب على كل حال الإقرار أن السيد بليسون - المشكوك فيه هنا - اتبع أو دعم أو على الأقل سمح بسياسة مناقضة تماما لتلك التي قررتها الحكومة والتي يسهر على تطبيقها رئيسه المباشر. فلاظهار الحقيقة يجب على المؤرخين تسليط الضوء على هذه النقطة الهامة حينما يفعل الزمن فعله وتفتح الأرشيفات السرية في وجه الباحثين، ومن جهتي أظن أن الوقت لم يحن بعد لاستعمال الأرشيفات، لذا لم أستعمل النصوص السرية والمصادر الرسمية التي اطلعت عليها خلال المناصب التي اشتغلت بها.

في 30 يوليو، عاد الباشا الحاج التهامي من سفر قلاده إلى إنجلترا وفرنسا، حيث لقي استقبالا حارا من طرف مناصريه، وفي 11 غشت، وجه السيد جورج بيدو برقية واضحة إلى الإقامة العامة. تقول: «إن تقبل الحكومة أن توضع من أي كان أمام الأمر الواقع ... أطلب منكم أن تقاوموا دون تردد كل ما من شأنه أن يؤدي إلى وضعية تجعلنا أمام الاختيار بين عزل السلطان واستعمال القوة ضد أصدقائنا. نرجوكم بالتالي أن تحصلوا من الغلاوي على قبول بتوقيف جولاته التي أثارت نوعا من الضجيج. إنني لم أفهم معزى تلك الجولات بعد الإطلاع على

التقارير التي توصلت بها. أثير انتباهكم إلى أن المسؤولية الملقاة على الإقامة جسيمة، إذ توجد بين أيديها كل العناصر التي تمكن من إيجاد حل معقول للأزمة».

إنه كلام واضح ووجيه، لكن كلام باريس لم يبق مسموعا. ففي 13 غشت 1953، اجتمع المتآمرون عند الحاج التهامي الكلاوي بمراكش وأعلنوا أن سيدي محمد لم يعد أهلا لقيادة المجتمع المغربي المسلم على المستوى الديني ونصبوا مكانه إماما آخر من قرابته وهو الشريف العلوي سيدي محمد بن عرفة. إنه رجل مسن، متدين ومجهول تماما، إذ قضى حياته كاملة في الظل.

وفي نفس اليوم، وبعدما رجع الجنرال كيوم من فيشي حيث كان في عطلة استجمام، ألح على أن يوافق السلطان على عدة مشاريع ظواهر كانت عالقة، فاستسلم سيدي محمد بل تخلى عن حق الفيئو الذي هو من صلاحياته الأساسية التي طالما دافع عنها بإصرار، فصار يضع خاتمه على كل نص حصل على أغلبية الثلثين في مجلس الوزراء والمديرين⁶¹. بعدما أخبر جورج بيدو بالأمر أرسل برقية أخرى تحمل تحذيرات جديدة ضد المؤامرة خاتما إياها بالجملة التالية: «إن عواقب انقلاب كهذا لا تعد ولا تحصى. إذا كنا معززين بموافقة القصر، فعلينا أن نواجه الفوضى التي هي بمثابة إنكار لنصف قرن من الحضور الفرنسي بالمغرب». وأرسل إلى الرباط ومراكش السيد فيمون المدير المساعد في ديوانه.

لم يفد ذلك في شيء، لقد أصر متآمرو مراكش - مدعمين من عدد كبير من الفرنسيين - على طرد السلطان من عرشه وتنصيب مرشحهم المتدين سيدي محمد بن عرفة والذي تم الاعتراف به كزعيم روحي، وردد أنصاره أن الأمر يتعلق بمسألة داخلية لا تهم إلا المغاربة. لقد توطدت قناعتهم على إثر الأحداث التي اندلعت في 16 غشت بمراكش والبيضاء ووجدة والتي أسفرت عن بعض القتلى: لقد أصبح من الواجب التحرك بسرعة.

61- مع العلم أن المديرين الفرنسيين، بهذا نخرج من نظم الحماية لندخل إلى السيادة المشتركة. لقد كنا إذن مخطئين.

عزل سيدي محمد ونفيه

في عشية 18 غشت، وبينما كنت في المقر العام بزنتة لابروطونري، بأورليون، فوجئت حوالي الساعة 8 مساء بمكالمة هاتفية من رئاسة المجلس. أخبرني مهاتفي - الجنرال صالفي العامل بديوان السيد جولي كاتب الدولة برئاسة الحكومة - أن الرئيس جوزيف لانييل يرغب في مقابلتي في نفس الأمسية في أقرب وقت ممكن. وعموما، قبل العاشرة والنصف، وأن الأمر يتعلق بقرارات خطيرة يجب اتخاذها عاجلا قصد إيجاد حل للأزمة المغربية، فطلبت من صالفي إبلاغ السيد شوفييني كاتب الدولة في الحربية والذي أعمل تحت أوامره كقائد مجموعة أورليون بالأمر، ومن جهتي أخبرت أيضا الجنرال مورليير قائد جهتي ثم توجهت إلى باريس.

عند وصولي إلى ماتينيون أطلعني روبير مونطاني وصالفي على الوضع⁶²، وبأن القبائل بدأت تتحرك في مسيرة نحو الرباط وفاس، وأصبح عزل السلطان يطرح كحل وحيد لإنهاء الأزمة دون إراقة دماء. كان هذا على الأقل طرح مصالح الإقامة بالرباط، ولم يكن روبير مونطاني وصالفي مع هذا الحل الذي قد يخلف عواقب لا تحمد عقباها.

استقبلت بعد ذلك من طرف السيد جولي وطلب مني إبداء رأيي دون مراوغة، فشرحت له أنني لم أت للدفاع عن سيدي محمد، لكن إبعاده وتنصيب سلطان جديد سيؤديان، في أقرب الآجال إلى نتائج وخيمة بدون شك، «فإذا نحن تركنا الأمور تمشي كما هي عليه الآن، وقبلنا بسياسة الأمر الواقع، فإن إقالة السلطان ستفتح عهدا مليئا بالصعوبات ولن نخرج منه ظافرين. وأضفت أنني أخشى أن مقاومة هذه الضربة القوية لا بد وأن تتخذ في القريب شكلا من أشكال الإرهاب. ومن جهة أخرى، فسيكون موقفنا سينا على المستوى المعنوي حيث سيعاب علينا الإخلال بمعاهدة 1912 شكلا ومضمونا، وأخيرا، فلا يعقل ولا يقبل أن يتجرأ قادة مغاربة وموظفون فرنسيون فيجبرون الحكومة على اتخاذ تدابير رغم أنفها. إنها مسألة تتعلق بسلطة الدولة نفسها».

⁶² - كان روبير مونطاني مدير مركز الدراسات العليا للإدارة المسلمة، وكان أيضا آنذاك أستاذا بكلية دو فرانس.

ويبدو وكأن هذه التصريحات الواضحة كان لها وقعها، فبعد دقائق معدودة قمت بإعادة ما قلته للسيد جولي على أسماع العميد فيدال وهو مدير ديوان الرئيس جوزيف لانبييل والسيد صيكاالا، الكاتب العام للحكومة، وحوالي الحادية عشر وصل الجنرال كيوم، بينما كنت أستعد للالتحاق بببتي في باريس، طلب مني روبير مونطاني وصالفي، التأثير على الرئيس جورج بيدو وزير الشؤون الخارجية. إذ يقال إنه كان غير راض على تصرف بعض الموظفين السامين من فرنسيي المغرب والذين يخضعون لنفوذه، وأشيع عنه، كذلك، أنه تعب فصار تظهر عليه ملامح الاستسلام. لذا وجب العمل على أن يستعيد حزمه. رفضت ذلك بوضوح. وأجبت قائلا إنني أتيت بناء على رغبة رئيس المجلس وإبداء رأيي بصراحة لمساعدته المقربين، ولست على استعداد أن أحيك الآن الدساتيس التي لن تزيد الأمور إلا تعقيدا. وبعد التفكير، فهمت أنني أخطأت عندما رفضت هذه المحاولة. فحتى في حالة عدم إثباتها بشيء يذكر، فعلى الأقل أكون قد فعلت كل ما في وسعي لتحاشي مأساة ذات توابع وخيمة بالنسبة للبلاد.

في اليوم الموالي، رجعت إلى قصر ماتينيون واستقبلت من جديد من طرف السيد جولي الذي قال لي «إنك تخشى عواقب خلع السلطان ومعك الحق، إنها ستكون خطيرة بالفعل، لكن الجنرال كيوم ينهنا أن الدماء ستهرق إذا احتفظنا بسيدي محمد وأن تهدئة الوضع أصبحت مستحيلة، توجب علينا إذن إطلاق النار على أصدقائنا لكي نحمي العرش ونحافظ على حياة أمير لا يحبنا. هذه أمور خطيرة أيضا، فكيف ترى الأشياء من جهتك أنت؟

أجبت أنه لم أذهب إلى المغرب منذ سنوات، وأظن رغم ذلك أنه بالإمكان إصلاح الوضع دون إراقة الدماء شريطة أن تتحمل الحكومة مسؤوليتها بوضوح وصراحة، ولتحقيق ذلك اقترحت أن يذهب السيد جولي والسيد شوقيني، كاتب الدولة في الحربية، صحبة الجنرال كيوم إلى المغرب، وفي عين المكان يتخذون التدابير اللازمة اتخاذها وكانت حسب رأيي من قبيل:

- اتخاذ السلطان موقفا واضحا لصالح فرنسا، فرض تصالح "إجباري" بين السلطان والگلاوي،

- تنديد السلطان علنيا بالطرق التي يستعملها حزب الاستقلال: مثل خلق الاضطرابات وعرقلة السير العادي للأمور وليس التنديد بالحزب نفسه.

- الإعلان عن إصلاحات نوعية تهم إنشاء نظام حكم ذاتي داخلي مع التأكيد على أن المفاوضات بشأن الإصلاحات ستتم مع "السلطان وحده".

- الإقالة الرمزية لبعض الموظفين الفرنسيين السامين الضالعين في الأحداث الجارية.

- الدعم الكبير للجيش الفرنسي بالمغرب بعناصر يتم استقدامها من فرنسا والجزائر.

ترحيل السلطان إلى المنفى (غشت 1953)

لقد تم الاستماع إلي بكل اهتمام وشكرت بحرارة شديدة، إذ تقرر عدم العمل باقتراحاتي. لقد تحددت المواقف المزمع اتخاذها: ففي 20 غشت، أي في اليوم الموالي أخذ سيدي محمد وعائلته طريقه نحو منفاه بعدما رفض التخلي عن العرش لفائدة ابنه الأصغر مولاي عبد الله⁶³. وكما يعلم الجميع، فقد مرت هذه العملية - التي تبدو صعبة - دون حديث يذكر. أما من الناحية التقنية، فلقد كان الانقلاب جد ناجح.

وفي اليوم نفسه، اجتمعت الحكومة الشريفة برئاسة الصدر الأعظم وعينت سيدي محمد بن عرفة خلفا للسلطان المطاح به إرضاء لرغبة بارونات البرابرة، وفي اليوم الموالي، أي 21 غشت، صادق مجلس العلماء على هذا الاختيار وبارك السلطان الجديد حسب الشكليات الشرعية إضافة إلى الطقوس المعمول بها في مثل هذه الحالة، ولم يسبق للعلماء أن اتفقوا بالإجماع، في نفس الوقت وعلى نفس الرجل. وفي المساء، تمت مبايعة السلطان الجديد في القصر بالرباط. فوقعت بعض الاضطرابات في الأيام الموالية، لكنها دون خطورة تذكر.

⁶³ - أعطى مجلس الوزراء موافقه على خلع السلطان رغم التحفظات الشديدة لوزيرين هما السيد إدكار فور والسيد ميتيران.

وقد أصبحت وضعيتي عندئذ جد مقلقة، لم يؤاخذني أحد، لكن بين الفينة والأخرى كان البعض يسخر من تخوفاتي وتخميناتي المتشائمة: «أرأيت، لم ترقّ بعض الدماء في المغرب ! ما رأيك؟» صدر هذا الخطاب عن أحد كبار هذا العالم، لم يكن لي رأي في تلك اللحظة، وكنت سعيدا لعدم إراقة الدماء وتمنيت أن أكون خاطئا في كل توقعاتي.

ومن جهة أخرى لقد أقلقني الإطاحة بسيدي محمد بن يوسف إسبانيا، التي لم يتم إخبارها قطعا بنوايانا⁶⁴، فرفض فرانكو، نتيجة ذلك، الاعتراف بالسلطان الجديد، وتبنى خليفة السلطان بتطوان نفس الموقف، رغم أنه كان إلى حد ذلك الوقت يرتبط بعلاقات طيبة مع سيدي محمد بن عرفة إضافة إلى علاقة القرابة.

وكان علينا انتظار العواقب الوخيمة لهذه الوضعية والتي ستجسد في انقسام المعسكر العربي حيث تم انتقاد ما قمنا به انتقادا قويا.

64- يجب الاعتراف بأنه لو تم إخبار إسبانيا لما بقيت العملية سرا، ويجب الإضافة إلى ذلك أن السلطان كان يشك في نوايانا، فكانت المفاجأة على المستوى التكتيكي وليس على المستوى الاستراتيجي.

القسم الثالث

في اتجاه الاستقلال

الفصل الحادي عشر

تطهير - مقاومة - تهديد

(غشت 1953 - أبريل 1955)

تصفية الحسابات بعد الانقلاب

لقد عرفت الإدارة بعد إبعاد سيدي محمد بن يوسف وصعود سيدي محمد بن عرفة إلى العرش عملية تطهير هامة، إذ تم عزل السي الفاطمي بن سليمان، باشا فاس ونائب سابق للصدر الأعظم في التعليم، بينما كان يتواجد في الشرق الأوسط على رأس وفد الحجّاج المغارية الرسمي للديار المقدسة، وكان الفاطمي بن سليمان يتمتع بعقلية حسنة ويعد صديقا لفرنسا، كما قنم السي البكاي استقالته في ضجة وغادر المغرب نحو باريس، لقد كان باشا لمدينة صفرو وصاحب رتبة عسكرية، يوطنون كولونيل سابق في الجيش الفرنسي، وكان لا يحب الكلاوي وبقي مدينا للعاهل المخلوع بالحفاوة التي كان يلقاها من القصر نظرا لرتبته العسكرية وللجرح الذي أصيب به في الحرب العلمية الثانية (1940) بفرنسا والذي أدى إلى بتر ساقه، واستقال كذلك العيادي من منصبه الهام أي قيادة الرحامنة. وإلى جانب ذلك تمت عدة إقالات، أقل أهمية، همت مستخدمى السلطة (باشوات وقياد) أو موظفي الإدارة الشريفة أو الشريفة الجديدة. لقد طال التطهير أعدادا هامة فأضيف ذلك إلى الإجراءات المتخذة ما بين 1951 و1953 ضد شخصيات مثل مولاي حسن الوزاني، باشا بور ليوطي (القنيطرة)، وهو ضابط سابق، والمحجوبي أحرضان، قائد منطقة والماس، وهو ضابط سابق آخر متزوج بفرنسية، وباشا مكناس السي أحمد الجنان وقايد آيت يوسي لحسن بن حدو الذي قتل أبوه في 1924 في صفوف جيشنا، وله كذلك اثنين من الإخوة ضباطين في الجيش ، والشرادي باشا خريبكة وقايد الريش عدي وببهي الموشح بميدالية الشرف لاليجيون Légion d'honneur والحاصل على عدة ألقاب عسكرية... إلخ.

وكان الضلوع في تصفية الحسابات خطأ فادحا لأنه ألقى بالكثير من الرجال في أحضان المعارضة، ولم تكن للعديد منهم أي صلة بحزب الاستقلال ولم يكونوا يوما خصوما لفرنسا.

تسلط مجلس الوزراء والمديرين

في 9 شتنبر 1953 وقع السلطان سيدي محمد بن عرفة ظهيرا يمس بوضوح الصلاحيات التي تخولها له معاهدة 1912، لقد وافق بالفعل على - ما كان قد قبل به في آخر لحظة سلفه قبل ثلاثة أسابيع - أن يقدم له، مجلس الوزراء والمديرين المشكل بالتساوي من موظفين مغاربة وفرنسيين، قصد توقيع النصوص التشريعية التي سبق التداول حولها، وللسلطان حق إرجاع النصوص إلى المجلس لفحصها من جديد كلما بدت له غير ملائمة أو ناقصة أو خطيرة. لكن عندما يُدرس المشروع المتنازع في شأنه ويوافق عليه للمجلس بأغلبية الثلثين فلن يبقى أمام السلطان سوى الرضوخ.

وبهذا يتم تمرير السلطة التشريعية من يد السلطان إلى المجلس الذي يتشكل نصف أعضائه من موظفين فرنسيين. وقد أثار الوطنيون ضجة صاخبة حول هذا المشكل، ونددوا بهذه السيادة المشتركة co-souveraineté التي تتعارض مع معاهدة 1912 روحا ونصا وبهذا نكون قد أضعنا ما تبقى لنا من الأصقاع بالمدن.

وانطلاقا من هذه اللحظة صار واضحا أن السلطان الجديد مجرد لعبة بين يدي الأمراء الجدد والوزراء والمديرين، وبما أن فرنسا خرقت معاهدة 1912، فقد أصبحت هذه المعاهدة لاغية، أما فيما يخص بن عرفة "المغتصب الخائن" فقد أبان عن عدم أهليته قانونيا وسياسيا، وبما أنه غير قادر على الدفاع عن المصالح الحيوية للبلاد، فعليه أن ينسحب في أقرب الآجال من المشهد السياسي.

ظهور الإرهاب

لقد بدأت مقاومة العهد الجديد في الظهور بالمدن، حيث نجا سيدي محمد بن عرفة مرتين من عمليتي اغتيال ملفتتين للنظر، وقعت المحاولة الأولى بالرباط وجرت الثانية بمراكش حيث أصيب بجروح

خفيفة. فقد تشكلت خلايا إرهابية ونفذت بسرعة كبيرة مجموعة من الاغتيالات بالدار البيضاء أساسا، وبدت السلطات عاجزة عن جعل حد لهذا الشكل الماكر والمتستر والخطير من العصيان والتمرد. وكانت الإقامة تعال هذا العجز بكون الدار البيضاء لا تتوفر على العدد الكافي من رجال الأمن، وهذا صحيح بالفعل، فنظرا للأمن التام الذي ساد إلى حد الآن، ونظرا للتزايد السريع للسكان المسلمة بالعاصمة الاقتصادية المغربية، أصبح عدد قوات الشرطة ضئيلا، كما أن هذه القوات لا تتوفر على الكفاءة اللازمة، إلا أن معطيات المشكلة لا تتلخص فقط في الكم والتنظيم والتجهيزات.

وقد يتضح هذا الأمر إذا نظرنا إلى مراكش، منطقة نفوذ الغلاوي بدون منازع. كان الحاج التهامي الغلاوي يمارس نفوذه على المدينة منذ 1912 بدون انقطاع وكان يعرف كل السكان أو على الأقل كل الذين يتمتعون بقسط من الشهرة أو قليل من اليسر والرفاهية، وكان له زبائن وأنصار مهمون، أما شرطته الخاصة فكانت نشيطة وكثيرة العدد وافرة المعلومات والأخبار. وفيما يخص طرق العمل، كانت تلك الشرطة لا تولي اهتماما كبيرا للشرعية والمشروعية، إذ كانت تحبذ الطرق المباشرة العنيفة والسريعة في آن واحد...، ومنذ المؤثرات الأولى للهيجان، قام الغلاوي باستقدام مئات الرجال من الجبال والمنحدرين من قبيلته الأصلية گلاوة، إلا أن ذلك لم يقد في شيء، إذ أصبحت مراكش مسرحا لجرائم وقحة منها محاولة اغتيال السلطان ابن عرفة أثناء صلاة الجمعة بالمسجد، وأخرى ضد الجنرال هوتفيل، قائد المنطقة، وسط ساحة جامع الفناء، واغتيال عدة موظفين فرنسيين سامين ورجال شرطة وعملاء ورجال الغلاوي، كما رمى الرجال المكلفون بالأمن والنظام بالمتفجرات خلال أحد زيارات المقيم العام الجنرال كيوم...

إن هذه الحصيلة الكارثية تلخص نشاط بعض الخلايا الإرهابية التي تجهل بعضها البعض، والتي تتكون كل واحدة منها من أربعة رجال أو خمسة، وبهذه الطريقة تتمكن شرنمة من المشاغبين الحازمين من زعزعة تنظيم قوي متين الجذور في المدينة وهو ما يبين أن الإرهاب يتوفر في المدينة على شبكات واسعة من العلاقات، وهذا المثل يوضح صعوبة مكافحته.

وفي المدن الأخرى التي عرفت اعتداءات كثيرة، تم اللجوء إلى رجال القبائل للحفاظ على النظام، الشيء الذي يجعل سكان المدينة يتذكرون ماض قريب حيث كان يرهبهم برايرة الجبال، فصار هؤلاء كالفزاة، وانتاب السخط والهيجان سكان المدينة. وبعد ذلك، لوحظ بذهول ورعب أن عدوى الوطنية انتقلت إلى هؤلاء باحتكاكهم مع وطنيي المدينة، وكاد الدواء أن يصبح أشد شرا من الداء، فأرجعت إذن هذه المليشيات إلى قبائلها حاملة معها انطبعا مفاده أن بإمكان المغاربة، على عكس طبعهم المشوب بالورع والفرع، التجرد والوقوف أمام الفرنسيين الند للند، وبهذا تكون صورة فرنسا القوية الجبارة قد أصيبت باهتزاز.

وموازة مع ذلك ولما سافر السيد لامارل، موفد الكي دوري، لزيارة العاهل المنفي أسبوعا قبل زيارة محاميه له بمدغشقر (أبريل 1954) أوضح له محمد بن يوسف أنه لن يتخلى أبدا عن العرش لكنه سيمتنع عن كل نشاط سياسي إلى أن يجد حلا لمسألة العائلة المالكة (La dynastie) باتفاق مع حكومة الجمهورية. ومقابل الالتزام بالتخلي عن أي نشاط سياسي طالب السلطان المنفي بنقله إلى فرنسا صحبة أسرته لكي يتمكن من تعليم أبنائه، واشتكى كذلك من السرقة المتكررة التي تعرضت لها أملاكه منذ حلوله بالمنفى ومن سوء تدبيرها، مُرجعا الأمر إلى عدم الكفاءة وليس لنية مبيتة. وكانت الحكومة الفرنسية قد قررت، رغم إلحاح سلطات الرباط، عدم تجريد محمد بن يوسف من ممتلكاته الخاصة التي اكتفت بوضعها فقط تحت الحراسة القضائية في فاتح شتنبر 1953 وصيانتها لتعيين محافظ يعمل تحت رعاية أمين المال العام Le trésorier général للحماية.

وقد زاول المحافظ وهو السيد روير Rouyre مهامه من فاتح شتنبر 1953 إلى فاتح يوليوز 1955، وواجهته صعوبات كثيرة نظرا لأن الممتلكات لم تختم (بالشمع الأحمر)، كما لم يقع جردها مباشرة بعد ذهاب السلطان، بل تركت دون عناية منذ يوم 20 غشت 1953، فبعدما ذكر السيد لامارل بهذه الإجراءات، طلب من سيدي محمد بن يوسف أن يضع ثقته في الحكومة الفرنسية التي ستعمل على رفع الضرر

وستعوضه عن الخسارة، مقابل أن يتخلى السلطان السابق عن اللجوء إلى المحاكم.

وتقديرًا للحكومة وحتى لا يُعرق نشاطها، قبل سيدي محمد بن يوسف إذن فسخ المجال أمام المصالح الرسمية كي تعمل على إرضاء مطالبه المشروعة والتزم كتابيا بعدم الإقدام على أي متابعة قضائية، لا للحكومة الفرنسية ولا للخوارج بدعوى عزله أو بدعوى حيثيات ناتجة عن هذا العزل.

وقد أسفر جرد ممتلكات السلطان المنفي العقارية والمنقولة الذي قام به السيد روبر على ما قيمته ثلاثة ملايين وخمسمائة مليون فرنك، وهي ثروة هائلة بالنظر لقيمة العمارات التي ورثها عن أبيه مولاي يوسف والتي تناهز قيمتها مليارين ونصف فرنك، لقد حقق سيدي محمد خلال ستة وعشرين سنة من الحكم رأسمالا قدره مليارين من الفرنكات، وهو عبارة عن أراضي فلاحية وعمارات، إلا أنه وجب التذكير بأن قيمة تلك الأراضي والعمارات تزايدت بشكل ملفت للنظر ما بين 1935 و1953 واستفاد السلطان كباقي المعمرين الفرنسيين والملاكين المغاربة الكبار من فائض القيمة الذي وفرته هذه الفترة.

ونسجل كذلك أن سيدي محمد نفسه يُقيم الهدايا التي توصل بها بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لجلوسه على العرش بـ 200 مليون فرنك.

ومن جهة أخرى فإن الوعد الذي أعطاه سيدي محمد للسيد روبر فيما يخص امتناعه عن النشاط السياسي لم يكن يعني امتناعا مطلقا، إذ لم يكن يدخل في الأمر أنه سيمتنع عن متابعة الأخبار والأحداث التي تدور في المغرب، فرفضه الاعتراف بالعزل في حد ذاته مؤشرا واضحا على ذلك. وفي 25 ماي أفصح السلطان من منفاه عن رأيه لمراسليه بباريس قائلا: «سنفعل كل ما تطلبه منا فرنسا من أجل مصلحة بلدينا، لأن ذلك من واجبتنا، ولن نفعل أي شيء يضر بمصلحة وطننا، وبناء على هذا، فإذا نحن نقلنا إلى فرنسا، فإننا لا ننوي إثارة الاضطراب، وإنما سنلتزم بعدم القيام بأي نشاط سياسي يسبب الإخلال بالنظام العام بفرنسا أو بالبلدان المنتمية للاتحاد الفرنسي l'Union

française أو للحماية. إن هذا أمر يتناقى مع دورنا كعاهل ومع قناعاتنا السياسية والدينية».

وكتب كذلك: «لقد تأثرنا بالغ التأثير لما صرحتم به، فيما يخص الدور الذي بإمكاننا لعبه مستقبلا في حل المشاكل المغربية، ونحن مقتنعون أن من واجب كل مغربي وكل فرنسي المساهمة روحا وعملا ودون تردد في إعادة الصداقة الفرنسية المغربية التي ضحينا من أجلها بعقود من حياتنا».

تحيضات رجال الأعمال والنقابيين الأمريكيين

طيلة هذه المدة المضطربة، تابع المخبرون الأمريكيون حملتهم النكراء ضد فرنسا والتي بدأت صبيحة النزول الأمريكي في 8 نونبر 1942، كانت قوات عديدة ترابط آنذاك في القواعد الجوية الأمريكية التي تم إنشاؤها بموافقة الحكومة الفرنسية، وبعدها استعملت واشنطن الجنود والمجنسين العرب (من لبنان وسوريا) كخصوم لنا لمناهضة الاستعمار، أصبحت تعتمد في هذه المهمة على رجال الأعمال المدعمين من الغرفة التجارية الأمريكية بالمغرب في شخص رئيسها السيد رودس Rhodes التاجر المستورد (وليس المصدر) الذي ما فتى أن تحول إلى غريما القوي.

يرى السيد رودس أنه من الضروري، لاعتبارات اقتصادية وسياسية، الفصل بين الاقتصاد الفرنسي والاقتصاد المغربي، وأن كل تداخل مع فرنسا في هذا المجال يُعد خدعة واحتيالا لأن سعر التكلفة الباهض يشل الاقتصاد الفرنسي، زد على ذلك، يضيف رودس، أن إلحاق المغرب بالنظام النقدي الفرنسي يؤدي - نظرا للتضخم المزمن الذي تسمح به فرنسا - إلى ارتفاع الأسعار، وبذلك تضعف القوة الشرائية والمستوى المعيشي للسكان المغربية التي سلب منها الرأسمال الفرنسي كل خيراتها الطبيعية، ولقد أصبحت حرية التبادل والمنافسة العالمية في هذه الحالة الوسيلة الوحيدة لتحقيق الازدهار الذي عرفته البلاد سابقا...

فلا يسع الإنسان العارف والعدل إلا أن يهز كتفيه أمام مثل هذه الحماقات والتشويه الصارخ للوقائع والتجاهل المتعمد للحقائق، لقد قامت

فرنسا بتضحيات جسام على كل المستويات من أجل دعم الميزانية المغربية وتسلم قروض ترصد للتجهيز وبيع المواد المغربية في السوق الداخلي عندما يصعب ترويجها في الأسواق الخارجية ومنها الأمريكية، لكن هذه الخرافات الصيبانية كانت تجد بسهولة من يصدقها في أوساط حزب الاستقلال، وذلك عن سوء نية لأن كل ما يخدم "القضية" جائز، بالإضافة إلى الجهل المتفشي في هذه الأوساط عندما يتعلق الأمر بالواقع الاقتصادي والنقدي.

لقد لقيت أطروحات رودس الجريئة دعم الدولة التي طرحت القضية على أنظار محكمة العدل الدولية، وذلك في شأن تنظيم الصرف وصولاً إلى الادعاء بأن الإبقاء على معاهدة فاس 1912 يعد «خرقا للنظام العام»، ونرى هنا إلى أي حد يمكن للسلطان المنفي وللوطنيين أن يستفيدوا من مثل هذا الموقف. وعلى العموم، لم ترق الحجج الأمريكية إلى حد الظفر بالقضية، ومن يرغب في التوسع حول هذا الموضوع نقترح عليه قراءة الكتاب القيم للأستاذ إيف فامشون، المحامي لدى محكمة الاستئناف بباريس، وعنوانه: "المغرب من الخزيرات إلى الميادة الاقتصادية، Le Maroc, d'Algesiras à la souveraineté, ed. Des Relations Internationales, Paris, 1957

وفي كل مناسبة، يذكر رودس أيضا أن النقابيين الأمريكيين يعارضون كل سلطة فرنسية في المغرب في أي شكل من أشكالها، لأنهم من أنصار «حق الشعوب في تقرير مصيرها»⁶⁵، ومن جهة أخرى، يكون رودس قد سلط الضوء على نشاط النقابات الأمريكية الذي كان يجهل عنه الرأي العام الفرنسي كل شيء، لقد تم حجب الحقيقة عن هذا الأخير حتى يستعمل الشارع العلف ضد من يقومون بهذا النشاط ومن يتسامح معهم.

وقد حدد السيد ويليام ف. شنيتزليز William F. Schnitzler، وهو نقابي وازن مواقف أصدقائه في التصريح التالي:

65- لقد عرض السيد رودس أطروحته المأكرة بجلاء على صفحات العلم، لسان حال حزب الاستقلال، أعداد 6، 7 و 8 فبراير 1956 وهذا يؤكد بوضوح ما قلته أعلاه.

«نحن النقبانيون الأمريكيون نعتبر الحرية كإرث مشترك للإنسان أينما كان ووجد ... إننا نعرف أن الكفاح الذي تخوضه شعوب الجزائر وتونس والمغرب من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية كفاح جريء وشجاع. لقد انتقدنا، ونحن نتابع انتقاداتنا لحكومتنا لكونها لا تشجع بنشاط كبير الحركة المناهضة للاستعمار في العالم العربي». إنها كلمات نبيلة تستحق أن تطبق في الولايات المتحدة نفسها حيث يطالب السود منذ زمن بعيد بالمساواة مع البيض في الحقوق، تلك المساواة التي يتمتع بها السود في جزر الأنتي الفرنسية Les Antilles françaises.

نعم ان التطور الذي عرفته المنطقة الساحلية للمغرب الأطلسي - وعلى الخصوص تصنيع مدينة الدار البيضاء ونواحيها - أدى بسرعة إلى خلق بروليتاريا مغربية هامة تتشكل في أغلبها من فلاحى الهجرة، لكن لم تكن أبدا مياسة الإقامة واضحة في ما يخص هذه المسألة.

لقد تم التفكير في إدماج هذه الجماهير الشعبية المتزايدة والفقيرة في النقابات الفرنسية، لكن تم تأجيل ذلك خشية تسال الخطر الشيوعي إليها، وهكذا رفض ظهيرا 24 جينبر 1936 و 24 ماي 1938 منح الحق النقابي للعامل المغربي وأعيد نقاش هذه المسألة بعد حرب 1939 - 1945⁶⁶. وتقدمت الإقامة فعلا بمشروع ظهير في ماي 1951 يخص منح الحقوق النقابية للعامل المغاربة في إطار منظمة نقابية مختلطة تخصص فيها المناصب القيادية للفرنسيين، لكن السلطان رفض هذا الحل، ولم يجد كذلك الاقتراح المضاد للسلطان والذي يريد خلق نقابات تخص المغاربة فقط صدى إيجابيا لدى الإقامة، فبقي كل طرف متشبثا بموقفه، محاولا تحضير مشاريع وحجج جديدة مع أنه يعلم مسبقا أن حظوظ قبول اقتراحات من لدن الطرف الآخر ضئيلة جدا.

أما حزب الاستقلال الذي كان ينتمي إليه العديد من الحرفيين، فقد أصبحت له رغبة متزايدة في استقطاب هذه البروليتاريا الجديدة جاعلا من حشودها وسيلة يمارس من خلالها الضغط في حالة وقوع اضطرابات وأداة عمل هامة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي.

⁶⁶ - إن مشروع إيريك لابون للمتعلق بمنح الحق النقابي للعامل الذين يشتغلون بالمقاولات الصناعية والتجارية لم يعرف أية متابعة ولم يظهر للوجود.

كان يرى، ومعه الحق في ذلك، أن النقابيين المغاربة المنحدرين من الوسط القروي - وهم يشكلون الأغلبية الساحقة - قد يصبحون وسيلة ثمينة للدعاية لدى أسرهم وأقربائهم في القرى وخصوصا إذا علمنا أنهم على اتصال دائم ومستمر معهم بفضل وسائل النقل والاتصال البريدي التي صارت سهلة وفي المتناول، لهذا عارض حزب الاستقلال المحاولات الأبوية للإدارة Bureau marocain du travail (جماعة العمال) وعارض تسرب الحزب الشيوعي و س ج ت CGT المتفرعة عنه إلى الأوساط العمالية، ونجح بالفعل في تصديده إليهما، الأمر الذي أدى بسرعة إلى نشأة وعي طبقي ظهرت بوادره منذ أحداث دجنبر 1952.

وكان الأمريكيون، من جانبهم أيضا، يرغبون أن لا تقع البروليتارية تحت تأثير بلد كفرنسا حيث، حسب تعبيرهم، يصوت % 30 من المنتخبين لصالح الشيوعيين وذلك خوفا من أن تتخرط يوما ما هذه البروليتارية - التي لا تجربة لها - في السجيطي الفرنسية الموالية للحزب الشيوعي، لذا بدل إرفينغ براون زعيم ومنشط الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة (CISL) قصارى جهده لخلق شكل نقابي مغربي مستقل ذا توجه نيويوركي وليس باريسسي. ومن المعلوم أن هذه الهيئة تعارض على وجه الخصوص الفيدرالية النقابية العالمية Confédération Syndicale Mondiale ومعامل الشيوعية أينما حطت، وعلى وجه الخصوص في الدول النامية⁶⁷ لكن هؤلاء النقابيون، سواء كانوا أمريكيين أم وطنيين أم شيوعيين أم تقدميين، فكلهم يغالون في الحماس المتأجج عندما يتعلق الأمر «بضرورة تحرير شعوب إفريقيا من قيد الاستعمار ومن اضطهاد»، وبقدرة قادر اتفق الجميع على حساب فرنسا التي أصبحت كبش فداء الأمم.

لقد كان من الممكن استغلال تغيير السلطان في غشت 1953 لحل المسألة النقابية على أحسن وجه، لكن شيئا من ذلك لم يتم. وفي هذا الباب بالذات ظهرنا دون مستوى المسؤولية، إذ في أوائل 1955 كان النص الرسمي لا يزال في فترة مخاض، إذ كان لا يزال بين أيدي

⁶⁷ - لقد نجح إرفينغ براون في مثل هذه المناورة في تونس.

الخبراء في إطار الصقل وإعادة التلميع عندما توصل السيد لأكوسط حادي عشر مقيم عام لفرنسا بالمغرب صبيحة 21 غشت 1955 بخبر مفاده أن المؤتمر التأسيسي للاتحاد المغربي للشغل المنضوي تحت لواء الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة قد اجتمع بالأمس بالدار البيضاء ! إن الكاتب العام لـ إ م ش هو السككي، السيد المحجوب بن الصديق، والكاتب العام هو السيد الطيب بن بوعزة المنجمي السابق بجرادة. وبعدم وضع السيد لأكوسط أمام الأمر الواقع، طعن بشدة في مشروعية إ.م.ش، ولكنه نسي أن يقول هل يتابع أم يوقف خبراؤه في القانون والاجتماع والسيكولوجيا والنقابة أعمالهم الحماسية التي تتطلب مجهودات هائلة... وفي كل الأحوال لقد أصبحنا مهزلة الجميع من جراء هذه القضية.

كان برنامج المحجوب بن الصديق -وهو كذلك عضو في حزب الاستقلال- يمتاز بالبساطة، ويمكن تلخيصه فيما يلي:

- الاستقلالية المطلقة للحركة النقابية عن السلطات،

- العمل المياسي من واجبات النقابات،

- وحدة الحركة تقتضي أن يكون الاتحاد المغربي للشغل الفاعل الوحيد في الحقل النقابي،

- للمغاربة وحدهم الحق في الانضمام إلى نقابة مغربية.

وقد استاءت السيجيطي الفرنسية بالغ الاستياء لكونها كانت تسعى لابتلاع النقابات المغربية، فحاولت التدخل ورد الفعل دون جدوى في أواخر دجنبر 1955. كانت قاعدة إ.م.ش، تتكون من 200.000 عضو حسب قولها ولا يظهر أن هذا الرقم مبالغ فيه.

الأعراض الأولى لتصدع "الكتلة البربرية"

كنت ألتقي بأصدقائي القادمين من المغرب إلى فرنسا عند مرورهم ببياريس، وكانوا يبدون بالإجماع قلقا بالغا إزاء التطور الذي عرفته الأذهان في المدن، ولقد كانوا خلاف ذلك مرتاحين لسلوك الساكنة القروية، بصورتها سعيدة راضية بعيشتها التي عرفت نوعا من اليمين واليسر، وبما أنها كانت أيضا في قبضة القياد والسلطات المكلفة

بالمراقبة، فقد ظلت، حسب ما أكدوه، في منأى عن دعاية الوطنيين، أما أنا فكنت أقل تفاؤلا من أصدقائي.

وفي يناير 1955، استقبلتُ فعلا، في إطار الدعم بباطنة (الجزائر) الطابور الشريف الثامن والذي استُخدمته مباشرة في الأوراس L'Aurès، وخلال زيارتي المتكررة لهذا القطاع الثقيت مرات عديدة بالغوم المغاربة، كنت أعرف كل القبائل التي ينحدرون منها، الأمر الذي يسهل بقدر كبير التحدث معهم، لقد كان أصل جلهم من الجبل، لذا أرجعني هذا الحدث فجأة إلى عشرين أو ثلاثين سنة إلى الوراء لأن هؤلاء يشبهون إلى حد كبير محاربي مجموعة الغوم الثاني والعاشر والرابع عشر والعشرين والخامس والعشرين والرابع والثلاثين والخامس والثلاثين والسادس والثلاثين والتاسع والأربعين والطابور السادس، وسبق لي أن قمت بقيادة كل هذه المجموعات، ما بين 1920 و1940، ووجه الشبه ليس بغريب، إذ يتعلق الأمر في الواقع بأبنائهم أو أبناء إخوتهم أو ربما أحفادهم.

كان هذا الطابور جيد المظهر محتفظا ببساطة وخشونة البربر، وهذه من أبرز الخصائص التي تميز بها غومنا المغربي القديم، أما فيما يخص العلاقة بين الضباط ومرؤسيهم، فقد احتفظت بطابعها المألوف، وباختصار يظهر أن لا شيء تغير، الأمر الذي سرني كثيرا.

وفي 9 فبراير 1955، اغتنمت فرصة تواجدي القصير بمدينة الجزائر لألتقي بالعقيد كودينو، مفتش شؤون الجيوش المسلمة لكي أطلب منه الحصول على بعض ضباط مصلحته. كنت في أمس الحاجة إلى خدماتهم في منطقة قسنطينة فلم أحصل على أي واحد منهم وذلك راجع لأن هذه المؤسسة المتكونة، سابقا، من متخصصين تصدعت وتلاشت، وأصبح من الصعب جلب أعضاء جدد إليها، وذلك منذ عشر سنوات، لهذا يفقد المفتش المسكين للعناصر الكافية لإرضاء الطلبات التي تتقاطر عليه من كل حذب وصوب، ولم تكتشف جدوى وأهمية هذه المؤسسة إلا في أوج الأزمة وتحت ضغط الأحداث!.

بعدها حُسمت المسألة بالرد السلبي، حدثني المفتش عن الجولة الطويلة التي قام بها إلى المغرب، لقد أبى العارف بشؤون البربر

والمفوض السابق للحكومة لدى المحاكم العرفية إلا أن يزور مكناس وأزرو وخنيفرة والقصيبة لكي يرى بربر الأطلس المتوسط الذين لديه بينهم العديد من الأصدقاء القدامى والأوفياء، وقد فوجئ لتقدم الأفكار الوطنية داخل الأوساط التي اعتدنا اعتبارها كمد تقليدي منيع في وجه التجديد القادم من المدينة، لقد أصبحت داخل كل قبيلة نواة وطنية تُستقطب بالأساس من "اللف" بمعنى الفئة المعارضة للقائد، وتقوت هذه الفئة الغريمة ابتداء من 1953، لا لكون المعارضين كلهم من أنصار السلطان المنفي، بل ببساطة كبيرة، نتيجة الابتزازات العديدة المتنوعة والمبالغ فيها والتي كان الناس يتعرضون لها من طرف القاييد والمقربين منه منذ الانقلاب الذي ساهموا في إنجازه.

وغضت سلطات المراقبة الطرف باحتشام عن هذه التصرفات المشينة فاسحة المجال، خضوعا لأوامرها، لأولئك الذين قدموا خدمات ثمينة للقضية في غشت 1953، وهكذا تم إحياء تجاوزات عديدة كادت تتمحي من الذاكرة. ومن جهة أخرى، تعاطى التجار المنحدرون من المدن والمستقرون بالمراكز الصغرى بالقرى للدعاية لحزب الاستقلال، وكانت دعايتهم الهامسة تجد أحيانا صدى إيجابيا بين صفوف النساء البربريات اللاتي ولعن بشراء الألبسة القطنية وأنوات الزينة وكل ما يحمل الجودة والجديد فضلا عن كونهن متمرديات.

من المؤكد أن هذا الوضع أقلق ضباط شؤون الأهالي والمراقبين المدنيين وأنهم أخبروا الدوائر العليا باتشغالاتهم وتخوفاتهم، لكن ذلك لم يؤخذ مأخذ الجد، إذ كانوا يعانون من سمعة سيئة جعلتهم ينعتون بالعصرنة والتقدمية والجبين. وحسب الأطروحة الرسمية، فالأمور كلها تسير على ما يرام في بلاد البربر الأوفياء، وكل من سولت له نفسه التفوه بالعكس تعرض لصاعقة الرباط. ولم يكن المقيم العام السيد فرانسيس لاكوسط خلف الجنرال كيوم، والذي عين قائدا للأركان العامة للقوات المسلحة على اطلاع وافر بما يجري!⁶⁸

⁶⁸ - للتحق السيد فرانسيس لاكوسط بمنصبه بالرباط في يونيو 1954، سبق أن شغل منصب ممثل الإقامة العامة بالمغرب. امتحن الدبلوماسية، لم تنفصه لا الحيرة ولا الشجاعة ولا الكفاءة اللازمة، لكن الوضع الشائك كان يستدعي رجلا فوق العادي. وكان على المقيم العام الأخذ بعين الاعتبار الاضطرابات التي تخترق مجموع السكنة الفرنسية حيث كثرت عنلصر عديدة عازمة على الرد على

وفي الختام قال لي كودينو - الذي كان يتحدث بحرية كبيرة - إنه لم يعد بالإمكان، في رأيه، الاعتماد على بربر الأطلس المتوسط في حالة تأزم الأوضاع وذلك لابتعادهم عنا، فقبائل زمور وزيان وإيشقرون وآيت إسحاق وآيت سكوكو وآيت يوسي الكيكو صارت في عداد المشكوك في أمرها، أما الكوم الذين بقوا على وفائهم لحد الآن، فسرعان ما شملتهم العدوى في مثل هذا المناخ. إن هذا التنبيه ترك لدي انطبعا عميقا، فقد كنت أعرف، عن تجربة، أن الرجل متزن رصين ومتبصر.

وفي 21 يوليوز 1954 بعث سيدي محمد من أنتسيرايب، حيث كان يتتبع بإمعان تطورات الوضع بالمغرب، برسالة مطولة إلى السيد بيار مانديس فرانس، رئيس الحكومة، يستعرض فيها الأفكار التي أوحى بها إليه أحداث الأزمة المغربية، ومن بين ما تقوله الرسالة: «هل يجب التقلّص لإعادة الهدوء والسكينة أم إعادة الهدوء من أجل التفاوض؟ إن الخيار ليس بالمستحيل، فإعادة الهدوء أمر ضروري، لأن العنف والتقتيل لن يُولدا سوى العنف والتقتيل». لكن كيف يمكن إعادة الهدوء؟ يرى سيدي محمد أن على السيد بيار مانديس فرانس أن يوجه مباشرة إلى الشعب المغربي رسالة تتمحور حول ثلاثة أهداف هي:

1- العمل على أن يطمئن المغاربة إزاء نوايا الحكومة الفرنسية والتأكيد على أن تلك الحكومة عازمة على تمتيع المغرب بالحكم الذاتي.
Autonomie interne

2 - الإعلان عن الإجراءات الهامة التي يجب اعتبارها بداية تنفيذ هذه النوايا مثل:

- رفع حالة الطوارئ،
- منح الحريات العامة والخاصة،
- إطلاق سراح المعتقلين السياسيين على نطاق واسع،

الإرهاب بالإرهاب المضاد، الأمر الذي لن يزيد إلا في تعقيد الأمور، وكان من المؤسف رؤية رجل من العيار الثقيل يستنزف قواه في حل معضلة شائكة لا حل لها...

3- العمل على أن يطمئن الفرنسيون المقيمون بالمغرب على حقوقهم ومصالحهم.

وبعد تنقية الأجواء، تقترح فرنسا خطة جديدة تنظم العلاقات الفرنسية المغربية، وفي هذا الصدد طرح السلطان المنفي رأيا جديداً مهم:
- فكون فرنسا هي التي ستقترح هذه الخطة فإنها ستتمكن من الحفاظ على نفوذها السياسي بالمغرب.

- «إذ من الصعب نهج طريقة أخرى حيث لا يوجد في الحالة الراهنة أي مخاطب آخر».

ويتابع السلطان مانحا مساعدته كتقني فيما يخص «التقارب بين شعبينا في إطار إرضاء التطلعات الوطنية المغربية واحترام الكرامة الفرنسية».

وفي جوابه المؤرخ بـ 5 غشت 1954، تحاشى السيد بيار مانديس فرانس التلميح للبرنامج المقترح من طرف سيدي محمد بن يوسف، وتمنى أن يأتي المستقبل القريب برد إيجابي على التمنيات التي عبر عنها السلطان فيما يخص إقامته بفرنسا قرب مدينة جامعية، حيث يتمكن الأمراء والأميرات من متابعة دراستهم، وأوضح «أن الظروف السياسية وعلى وجه الخصوص الاضطرابات التي نتجت عن تعليمات تتسرب أحيانا من الخارج والتي هزت المغرب هي التي تقف وراء تأخير هذا المشروع».

وفي شهر دجنبر 1954 تبنى سيدي محمد بن يوسف فكرة خلق مجلس العرش التي أوحى له بها من طرف المحامي جورج إيزار واستعمل لأول مرة مفهوم الارتباط المتبادل Interdépendance بدل الحكم الذاتي Autonomie interne الذي أصبح بالتدريج مألوا لدى الوزراء الفرنسيين، ولما تم تنبيهه إلى القلق الذي سيثيره هذا المفهوم بباريس ارتأى أن يوضح فكرته كما يلي:

«إننا استعملنا كلمة الارتباط المتبادل عن قصد ودراية، لأنها تشمل مفاهيم عدة تهم أنظمة التشارك وتنطلق من حكم ذاتي أساسه الارتباط المتبادل وصولاً إلى النظام الفيدرالي أو الكونفدرالي، ولإنجاح

الحوار المرتقب، نرى أنه من الأفيد عدم تحديد طبيعة المعاهدة الجديدة التي ستظم العلاقات الفرنسية المغربية كمنظريّة جامدة- حتى نترك للمفاوضين هامشاً كبيراً من الحرية يمكنهم من إعداد أداة دبلوماسية تستجيب للطموحات المشروعة للشعب المغربي مع ضمان الوجود الفرنسي بالمغرب وفق حيثيات يتم تحديدها بالتفاوض الحر بين الطرفين». وبالطبع لم يمر هذا العمل الذي قام به سيدي محمد بن يوسف من منفاه بأنتسيرابي دون انتباه الأوساط السياسية الفرنسية، وللنيل منه، تم الحديث عن شعوره المناصر للألمان خلال الحرب كما اتهم بكونه تمنى انتصار هتلر.

وفي 27 غشت 1954، وفي رده بالجمعية الوطنية على السيد بينوقيل، نائب إيل إفيلان، صرح السيد كريستيان فوشي وزير الشؤون التونسية - والمغربية بما يلي: «لقد تم الحديث عن وثائق تخص العلاقات التي - يزعم أنها - كانت تربط بين سلطان المغرب السابق والألمان، وبالفعل تم العثور في برلين على تلغرافات صادرة عن مخبر للمصالح الألمانية تتكلم عن وجود محادثات مع مغربي يدعي أنه مبعوث السلطان، لكن التحريات أظهرت أن الأمر يتعلق بشخص معوز ومشكوك فيه وأن مضمون مراسلاته لا مصداقية له، ولذا ارتأت الحكومات السابقة عدم متابعة القضية».

الفصل الثاني عشر

لا شعبية السلطان الجديد مشروع إنشاء مجلس العرش (مارس 1955 - يونيو 1955)

محادثات بباريس مع البكاي وشخصيات من المغرب

عند وصولي إلى باريس (مارس 1955) استحوذت أحداث الجزائر والإعلان عن حالة الطوارئ⁶⁹ على اهتمامات رئاسة الحكومة، ومن جهة أخرى كانت وزارة الشؤون المغربية والتونسية منهمكة في إعداد استئناف المفاوضات الفرنسية - التونسية المتعلقة بالحكم الذاتي الداخلي وبمستقبل العلاقات الفرنسية - التونسية. لم يكن الحديث يدور حول المغرب، وبإستثناء نشاط الإرهاب المتواصل بالمدن وبالدار البيضاء على الخصوص، كان المغرب هادئا حسب ما يقال.

قابلت مرات عديدة الكومندار جورج صالفي الضابط السابق لشؤون الأمازيغ بالمغرب ومساعدته السيد بيار جولي وزير الشؤون المغربية - التونسية، كنت أعرفه جيدا ومنذ أمد طويل، لذلك كان لا يتصرف معي بتكتم دون أن يفشي، طبعاً، ما يجب التستر عنه، ومن خلال دردشاتنا ظهر جلياً أن التفاهم منعدم تماماً بين الوزارة والإقامة العامة لفرنسا بالمغرب. ويؤكد البعض أن الأحداث قد تجاوزت كليا السيد فرانسيس لاکومست الذي أصبحت تصوراتته متجاوزة وكان يُعد مشاريع إصلاحات منعدمة المفعول ولا جدوى منها، في الوقت الذي كان الوضع يحتاج إلى الجراءة والدفع بالأمور إلى الأمام بإيجاد حلول جديدة، وأصيلة، تحدث الصدمة الميكولوجية. تلكم هي الملاحظات التي كان

⁶⁹ - استقمني الرئيس إلكار فور من قسنطينة، حيث كنت أترأس المقاطعة الترابية، وجنيلي كمستشار عسكري لدى رئاسة الحكومة.

ييديها بعض مساعدي السيد بيار جولي، فما هي الوسائل الكفيلة بإحداث الصدمة النفسية المنتظرة؟ لم يتم الكشف عن هذه الوسائل بعد، لكن ما لبثت أن فهمت ما كان يتمناه بعض الخبراء الذين ابتعدوا عن المغرب لأسباب مختلفة، منذ سنوات.

كنت أنقي بعدد من المغاربة عند صالقي، وتناولت يوما طعام الغداء في بيته مع باشا صفرو السابق، السي مبارك البكاي. لم أكن أعرفه كثيرا، لكن كنت أقدره التقدير الذي نكنه للآخرين في الضراء، ولم أنس كذلك أنه فقد ساقه دفاعا عن التراب الوطني الفرنسي.

بدأ البكاي متحفلا وبقيت من جهتي صامتا، ولحسن الحظ احتكر صالقي الكلام بطيبوبته المعهودة، فتأسف كثيرا لضربة 20 غشت 1953 والحالة التي وضع فيها المغرب حيث ثراق الدماء يوميا وتكبر الهوة أيضا بين الفرنسيين وبين المغاربة بعد علاقات الود والصداقة التي جمعت بينهم في الماضي القريب، وكيف أصبح السلطان بن عرفة عديم الخطوة بالاعتبار، وما آلت إليه الأمور فيما يخص الإقامة التي اعتمدت الإدارة المباشرة والسياسة الفرنسية التي اتسمت بالجمود وارتكاب الأخطاء، فيجب علينا، يقول صالقي، مهما كان الثمن إيجاد الحل الناجع لتهدئة النفوس وإعادة الونام والصداقة والثقة المتبادلة. لم تفض هذه العموميات إلى شيء يذكر، لكن قيل مغادرته لنا طلب مني البكاي هل بإمكانه مقابلتي بمقر رئاسة الحكومة، فكان ردي إيجابيا وضرربنا موعدا لذلك، فجاء البكاي إذن مرتين إلى قصر ماتينيون وأوضح لي ما كان يهيء، وتحدث عن تلك بحرية لكونه كان لا يجهل موقفني إزاء الإطاحة بالسلطان سيدي محمد.

قال لي: «لقد سمعت رأي صديقنا القائد صالقي فيما يخص الوضع بالمغرب والوضعية غير المريحة التي يوجد فيها ابن عرفة، إنه لم يبالغ بتاتا، بل الحقيقة أكثر من ذلك بكثير، إنني أعرفها وتخيفني جدا. إن فرنسا سترتكب خطأ قاتلا إذا استمرت في دعم تلك الدمية التائهة، هل تعلم أن المغاربة قد مست كرامتهم ومقدساتهم الوطنية من جراء أحداث غشت 1953؟ وكل أسبوع يمر، إلا وأصبحت إعادة الثقة بين المغاربة وبين الفرنسيين صعبة أو ربما مستحيلة. كونوا حذرين، سيحل الحقد

محل الصداقة، لقد أصبح الآن الإرهاب في تزايد مستمر وأخشى أن تقع أحداث خطيرة في الأيام القريبة».

أجبت:

- كل شيء وارد، لكن ما هو الحل الذي تقترح؟ أرجوع السلطان السابق إلى عرشه؟

- أبدا، يجب أن ينقل سيدي محمد بن يوسف، الذي يعاني بمدغشقر من مشاكل صحية، إلى فرنسا صحبة عائلته وأن يتمتع بالحرية. إننا لا نطالب "الآن" بإرجاعه إلى سدة الحكم ولكن في كل الحالات يجب على بن عرفة المغتصب للعرش أن ينسحب بلا هوادة.

- أتقترحون إذن الفراغ؟

- لا، بل نقترح باتفاق مع سيدي محمد بن يوسف تعيين مجلس مكون من ثلاثة أشخاص تناط بهم مهمة الحفاظ على العرش وضمان استمرارية الحكم الشرعي، إذ يمكن اعتباره مجلسا للوصاية، يمكن لهذا المجلس تشكيل حكومة مغربية تسهر على التفاوض مع فرنسا على غرار المناقشات الجارية مع تونس، وبذلك يمكن التوصل إلى اتفاقيات تعرض معاهدة 1912 التي لا مفر من إبطالها، وبهذا تهدأ النفوس وتعود السكينة، وقتئذ بإمكاننا التفكير في الحلول الناجعة فيما يخص المستقبل لأن مجلس العرش حل مؤقت ليس إلا.

لم أخف عن البكاي أن هذا الحل (أي مجلس حفظة العرش) والذي سمعت به لأول مرة مفهوم غربي محض يستحيل تطبيقه في المغرب، إن مجلسا كهذا لن يصمد أكثر من شهر إذ لا حول ولا قوة له، وفي الواقع، ليس هناك، في نظري، سوى ثلاثة حلول:

- الاحتفاظ بابن عرفة الذي يمكنه تشكيل حكومة عصرية تتفاوض مع فرنسا من أجل إيجاد اتفاقيات جديدة.

- تنحية ابن عرفة وتنصيب رجل ثالث على العرش الشريف يقوم بما ذكر سابقا.

- رجوع سيدي محمد بن يوسف إلى العرش بعد تخلي بن عرفة.

وكان رد البكاي: «إن الحلان الأول والثاني غير مقبولين بالنسبة لنا، أما الثالث فهو سابق لأوانه، أكرر أن ليس هناك الآن مسلك آخر سوى مجلس حفظة العرش».

تحدثنا بعد ذلك عن الإرهاب، فأثرت انتباهه إلى كون حزب الاستقلال يلعب لعبة خطيرة بدعمه لهذه الحركة حيث أيقظ نزعات، وهو الآن على الأرجح غير متحكم فيها، وأشعل ميولات من الصعب إطفائها بين عشية وضحاها، أجاب البكاي قائلًا: «لا تتق بهذا، إن "الإرهابيين" خدام الوطن.. وأعاهدك أن الأمور ستعود بسهولة لنصابها وأن الهدوء سيعم بمجرد رجوع السلطان إلى فرنسا وتشكيل مجلس حفظة العرش».

كان رأي البكاي مخالفًا لما أرى وذلك ليس نابعا فقط من معرفتي بالجماهير الشعبية المغربية، قروية كانت أم مدنية، بل ناتج عن دراسة الحركات الشعبية في دول الشرق الأوسط خلال الثلاثة عقود الأخيرة، وأخذ كامل الوقت لإدراج لائحة طويلة بأسماء الملوك والأمراء والوزراء السابقون، وكذلك الوزراء الذين سقطوا هناك منذ عشرين سنة تحت رصاص أو بسيف قتلتهم، أضفت: «لنفرض أن سيدي محمد بن يوسف رجع واعلى العرش وحصل المغرب على استقلاله عن فرنسا، ثم شكل السلطان حكومة أنت رئيسها، فأنا متيقن كل اليقين أنك ستجد صعوبات جمة لإعادة النظام ولن تتمكن من اجتذاب تصفيات حسابات دامية، وأن الجبليات لن تجبى بسهولة، وأنت في آخر المطاف ستضطر إلى الرضوخ والتعويض خوفا من أن تصبح ضحية مؤامرة ما. لقد تذوق المغاربة طعم الدماء والعنف من جديد ومن الصعب بمكان سد ذلك الفراغ». يرد البكاي:

- أنت مخطئ، سوف نمسك بزمام الأمور ونتحكم جيدا في الأوضاع لأننا نعرف "الإرهابيين".

لقد كان الاعتراف مهما لكنه غير مقنع، وتأكدت منذ ذلك الحين فعلا أن المنظمات الإرهابية قللت نسبيا من قبضة حزب الاستقلال وأن عناصرها النشيطة تتلقى التعليمات والدعم المادي مباشرة ودون وسيط من القاهرة.

لأزلت أتذكر أن جماعة الإخوان المسلمين - المعادية للأجانب - التي تناضل في مصر من أجل الرجوع إلى أصول الحضارة العربية الإسلامية اعتمدت لتحقيق أهدافها على العمل المباشر مستعملة السلاح الفتاك الذي هو الإرهاب ليس إلا، وهكذا تم اغتيال الوزير الأول المصري السيد أحمد ماهر باشا واغتيال خلفه النقراشي باشا ووزير المالية أمين عثمان باشا دون احتساب الموظفين السامين. لكن لا يتولد عن العنف إلا العنف، ومن قتل بالسيف يقتل به على يد المنتقمين لضحاياه، هذا ما حصل لحسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين والمنشط لتنظيمهم السري الذي سقط قتيلًا في فبراير 1949، ولم يتخل أتباعه عن العمل المسلح رغم تحالفهم من حين لآخر مع جماعة الضباط الأحرار التي كان يرأسها العقيد جمال عبد الناصر. ومرة أخرى تحاول جمعية دينية - والإخوان المسلمين ليسوا سوى شكلًا جديد لذلك - السطو على الحكم باستعمال العنف والقوة. وكان يظهر جليا أن الوطنيين المغاربة تأثروا بهذا الأسلوب المزعج ...

لقد لمس البكاي من خلال هذه النقاشات التي ليست المحاور المثالية بالنسبة إليه، ولم أره مرة أخرى إلا في شهر أكتوبر وكان لقائنا عرضيا فقط.

أخبرت بالطبع رئاسة الحكومة بمحادثاتي مع البكاي، كما أطلعت مدير ديوانها السيد جاك دو هامل والسيد جورج صالفي، أما السيد إدغار فور فلم يكن قد تناول وقتها بالدرس مشكل المغرب، وبالرغم من ذلك فقد سمح بالحديث عن مجلس العرش وكان يظهر لأول وهلة منفتحا على كل تسوية أو حل يتم اقتراحه، لكنه لم يبد أي رأي يذكر بهذا الصدد. وكان جاك دو هامل وخصوصا جورج صالفي على علم بالحيثيات الدقيقة لهذا المقترح. أخبرني جورج صالفي الذي نفى كل تبين لهذا المشروع، أنه تجسيد لفكرة وزارة الشؤون المغربية والتونسية وأنه استجابة لخلفيات تبدو لي ذكية وسانجة في آن واحد.

وكان يُعتقد أن طموح البكاي أنكى تحمسه لمجلس حفظة العرش رغبة في احتلال مكانة داخله، ولم لا الصدارة، وحينما يتنوق طعم السلطة على رأس هذه الهيئة، يستبعد أن يتنازل لفائدة سيدي محمد بن يوسف مدعيا ضرورة إعطائه متسعا من الوقت، وبذلك تنزلق الأمور

بطريقة غير محسوسة نحو نظام جمهوري، وهكذا، وبشكل أنيق، تجد مسألة إرجاع السلطان السابق الشائكة حلا لها على يد المغاربة أنفسهم...

استقبال وفد عن حزب الشورى والاستقلال

في 7 ماي 1955، استقبلت بطلب من جاك دو هامل وفدا عن حزب الشورى والاستقلال يتشكل من السادة أحمد بن سودة ومحمد الشرقاوي وإدريس التازي وإدريس الكتاني⁷⁰ وأقيم هنا ملخصا لتصرّياتهم التي سلمتها في اليوم الموالي لمدير ديوان رئيس الحكومة.

«إن الوضع السياسي يتدهور باستمرار سريع وبحدة فائقة.

- إن المغاربة في حيرة من أمرهم، فليس لهم قائد أو أب روحي، بل أكثر من ذلك، لقد مسهم الأذى في أعماق جوارحهم وفي كرامتهم من جراء الطريقة التي تم بها إبعاد سيدي محمد عن عرشه.

- وقد نشبت الدعاية الشيوعية في أوساط المسلمين، ولوحظ اختراق الأحزاب الوطنية من طرف الشيوعيين.

- وتوجد الآن كوموندوهات في إطار التكوين لإنجاز عمليات إرهابية.

- لقد مس هذا الداء القرى، ولم تسلم منه المناطق البربرية كذلك. إنه عمل محكم، لذا فمن المنتظر أن تتدلع الاضطرابات ابتداء من الصيف القادم.

- سوف تصبح الأطر الوطنية العقلانية جد متجاوزة ولن تتحكم في الأحداث القادمة.

- لذا على الحكومة الفرنسية التحرك بسرعة وحزم، ويجب عليها:

- تحية السلطان الحالي عن الحكم.

⁷⁰ - تولى السيد أحمد بن سودة منصب كاتب الدولة في الشبيبة والرياضة بالحكومة الأولى للبيكاي وعين كذلك محمد الشرقاوي، صهر الحسن II كوزير دولة، وشغل أيضا منصب وزير المالية بعدما تميز كسفير بباريس، ولا يزال ضمن الحكومة الشريفة حيث يتكلف بحقبة الدفاع الوطني بعدما مر بالشؤون الخارجية.

- إرجاع السلطان السابق إلى فرنسا.

- إنشاء مجلس الوصاية لتهنئة الأوضاع في انتظار إيجاد صيغة جديدة».

لم يفصح ممثلو حزب الشورى والاستقلال عن معنى الصيغة الجديدة في أذهانهم لكي لا نفزع من ذلك، لكن لا يستبعد أن تمكن الصيغة في إرجاع سيدي محمد بن يوسف إلى عرشه لا أقل ولا أكثر.

«وعلى كل حال فمع "الصيغة الجديدة" ستصبح الأشياء سهلة يسيرة، سيدخل المغرب في شراكة مع فرنسا وسيندمج في العالم الغربي وسوف لن يغازل الجامعة العربية».

واعترف ممثلو الشورى والاستقلال في الختام:

«أن مغازلة الوطنيين المغاربة لمصر مثلاً، ليست إلا حركة رد فعل ونوعاً من اليأس أو بالأحرى عملية مساومة».

أتيح لي بمتنبيون الفرصة للالتقاء بالعديد من الناس القادمين من المغرب والمنحدرين من مختلف المشارب سواء كانوا فرنسيين أم مغاربة.

لقد كون الوطنيون وأتباعهم الذين يزعمون أنهم أحراراً - بغض النظر عن انتمائهم لحزب الشورى أو حزب الاستقلال - جبهة مشتركة وموحدة بالرغم من العداء الذي كان يكنه بعضهم للبعض الآخر، لقد كانوا يعزفون على نفس الوتر ونغمتهم واحدة، لدرجة يصاب معها المستمع بالملل من تلك الرتابة وكانوا يشبهون تلاميذ مجتهدون بصدد استظهار درس تم حفظه عن ظهر قلب، ومع ذلك، كان لهذا التكتل الكبير وهذا الإجماع الساحق أثر على الفرنسيين، سياسيين وصحفيين بمن فيهم المناوئين لأطروحات الوطنيين إذ تزعزعت مواقفهم وقناعاتهم من جراء الهجومات المتتالية⁷¹.

⁷¹ - انعقد بباريس في 7 و8 ماي 1955 مؤتمر وطني لإيجاد حل للمشكل الفرنسي - المغربي. جمع هذا اللقاء ممثلي الوطنيين المغاربة والفرنسيين المتعاطفين معهم وخلص التقرير الصادر عن اللجنة الوطنية لحل المشكل الفرنسي - المغربي (5 زينة لامرئين، باريس 9) والذي تناول النقاشات غير أن الأطروحات المقدمة غير موضوعية، وأن الناطقين باسم المغاربة عرفوا كيف يستفيدون من أخطائنا وانقساماتنا.

وفي حديث دار تحت ظلال حدائق ماتنيون بيني وبين السي أحمد بركاش ابن باشا الرباط السابق - وهو ذاته نائب سابق للصدر الأعظم في التعليم - أحاطني هذا الأخير علما بما سبق أن وافقني به السي امبارك البكاي في نفس المكان منذ بضعة أسابيع مضت⁷²، ومع ذلك نستشف من خلال كلامه المعسول نقذه اللاذع للموقف الفرنسي ودفاعه الثابت عن السلطان السابق.

لقد كان كل محوري يؤكدون على أنهم لا يرغبون ظاهريا في رجوع سيدي محمد بن يوسف إلى العرش الشريف⁷³، وموازة مع هذا حصلت على مذكرة غير مؤرخة وغير موقعة وهي صادرة عن التونسي صالح رشيد، وهو من أحد أوفياء السلطان المنفي.

مذكرة صالح رشيد

لقد سلمت هذه المذكرة لأحد مساعدي رئيس الحكومة، تحدثت عن ذلك إلى السيد إدغار فور، فأجابني أنه يعرف السيد صالح رشيد ولكنه لا يريد استقباله نظرا لأنه يفضل أن لا يلتقي بممثلي الحركة الوطنية حتى لا تعطى للقاءاته تأويلات مغلوطة، ولم يستثن فيما بعد إلا الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد الذي كان يكن له التقدير.

وعلى كل حال، فقد تناولت هذه المذكرة، التي امتازت بصراحة استثنائية، الشروط الكفيلة بإرجاع السكينة إلى المغرب، وبالطبع، تضمنت هذه الشروط رجوع السلطان السابق إلى فرنسا وتشكيل مجلس حفظة العرش بعد التخلي الصريح لابن عرفة عن العرش، وبدوره يعين هذا المجلس مجلسا لحكومة مغربية تمثيلية؟ (مكونة من خمسة أوسنة أعضاء)⁷⁴.

72- كنت أعرف السي أحمد بركاش منذ 1921، كان وقتئذ تحت رعية المارشال ليوطي وأصبح فيما بعد عاملا على مدينة الدار البيضاء ثم وزيرا للأجلاس.

73- وعلى العموم يجب الاعتراف بأن البكاي كان جد مباشر وأكثر صراحة بالمقارنة مع باقي محوري.

74- لقد تم إطلاع بعض الشخصيات في نفس الوقت تقريبا على فحوى هذه المذكرة، ونذكر منهم المارشال جوان والجنرال لوكونط وبعض البرلمانيين وبعض الصحفيين كذلك، وأظن أنه من الضروري تقديم بعض المقطعات من المذكرة حتى نجعل هذا للتعاليق المغلوطة وبعض الروايات الزائفة التي بدأت تروج منذ ذلك الحين.

ولا تترك الفقرة الثالثة الآتية أي مجال للبيس:

«وبعد أشهر معدودة سيطلب مجلس حفظة العرش والحكومة المغربية من جلالة السلطان تولي الحكم الفعلي بالرباط في انتظار تشكيل جمعية مغربية - عن طريق انتخابات حرة - تسهر على إنشاء مؤسسات دستورية يلتزم السلطان مسبقا وصراحة باحترامها».

وحاولت الفقرة الثانية التخفيف من مفعول الصدمة، بالقول:

«ليس لصاحب الجلالة الرغبة في مزاولة الحكم لأمد طويل بعد عودته إلى العرش، لقد أبدى مرات عديدة عزمه على التخلي عن الحكم، وذلك قبل مأساة 20 غشت 1953. سيتخلى العاهل عن العرش عن طواعية وبكل حرية لفائدة فرد من أفراد العائلة الشريفة وباتفاق مع الحكومة الفرنسية، وإن مثل هذا التخلي المشفوع بتصريح من العاهل إلى شعبه والمصحوب برسائل شريفة تتلى في جميع المساجد، هو وحده الذي سيقبل من طرف الشعب المغربي وسائر الدول الإسلامية، وهو بالتالي كفيل بأن يجعل حدا للتوتر الحاصل بين فرنسا والبلدان الإسلامية».

تكون مجلس حفظة العرش

لم أكتشف إلا فيما بعد الخطوط العريضة الكامنة وراء حبك هذه اللعبة داخل الأوساط الموالية والمتعاطفة مع سيدي محمد، فعلى اختلاف انتماءاتهم السياسية، عرف المغاربة وزعماء هذه الأوساط كيف يتجاوزون مؤقتا تطاحناتهم الإيديولوجية المفعمة بالخلافات الشخصية. فبعدما رسموا الأهداف المشتركة المتجلية في مطلب - تخلي ابن عرفة عن العرش والاعتراف بالحقوق الثابتة لسيدي محمد - التزموا باحترام الهدنة، إلى حين إنجاح قضيتهم.

لقد تم إحياء اللجنة الفرنسية - المغربية التي سلطت على نشاطها الأضواء في 1934 - 1935 وأعيد تشكيلها تحت رئاسة فرانسوا موريالك، واختارت اللجنة في مارس 1954 الأستاذ جورج إيزار، نائب رئيسها كمحام ثاني للسلطان السابق. وتجدر الإشارة إلى أنه صهر السيد ر.ب. دانييلو R.P. Daniélou المساعد والمستشار القانوني لصحيفة

الإكسبريس. وإذا كان للمحامي الأول الأستاذ بول ويل Paul Weil، المتخصص في القانون المدني، علاقة عميقة مع جورج بيدو وإنغار فور، فقد كانت للسيد جورج إيزار علاقات متميزة مع السيد بيار مانتيس فرانس الذي بدأ نجمه يتألق.

وبمجرد وصول السيد مانتيس فرانس إلى سدة الحكم، قام الأستاذ جورج إيزار بمساءلته حول التدابير التي سيتخذها إزاء السلطان المنفي بمدغشقر، إلا أن الإجابة خيبت الظن لكون الرئيس الجديد للمجلس رجل يحبذ المخططات الجزئية والمجدولة على مراحل: سأجد حلا لمشكل الهند - الصينية في حدود هذا التاريخ ثم سأمر للمسألة التونسية، وبعد ذلك سأتكلف بمشكل المغرب للخ. لكن الرجال الذين ليسوا آلات ميكانيكية، لا يطبقون المبالغة في التخطيط، وإذا حقق مبتغى أحد الأطراف تعالت أصوات الآخرين الذين يطمحون إلى الاستقلال، لقد طرحت المشاكل كلها دفعة واحدة وفي كل مكان.

وعلى كل حال، أرسل السيد بيار مانتيس فرانس، في 18 أكتوبر 1954، إلى أنتسيرايبى الدكتور دييوا روكبير Dubois Roquebert، وهو من قدماء المحاربين، وهو أيضا طبيب جراح للسلطان المنفي فضلا عن أنه صديق له، وكان موضوع الزيارة هو إقناع السلطان بالتخلي عن العرش لفائدة رجل ثالث بعدما أصبحت تنحية ابن عرفة أمرا لا مفر منه، ومرة أخرى رد السلطان السابق بالرفض.

لم يكن السيد جورج إيزار جذ مرتاح لمبادرة رئيس الحكومة، فتوجه بدوره إلى مدغشقر لمقابلة سيدي محمد. لقد حكي في العدد 4 من مجلة دراسات بحر - متوسطة لسنة 1958 كيف تخيل وهو على متن الطائرة التي كانت تقله من باريس إلى طناتريفو الحل المتعلق بمجلس الوصاية الذي سيملا الفراغ ويتولى الحكم في الفترة المتراوحة بين خلع بن عرفة وجلوس سيدي محمد على العرش، ولن يتشكل هذا المجلس إلا من ثلاثة أعضاء، من بينهم فرد يمثل السلطان المنفي شخصيا. وحرر المحامي مباشرة مشروعا على شكل رسالة ليطرحه على أنظار سيدي محمد عند وصوله إلى أنتسيرايبى. وبعد تردد طويل، وقع العاهل في الأخير هذا النص في 24 دجنبر 1954. لقد قيل له دون شك إن حكومة

الجمهورية لا تنتظر إلا موافقة ابن يوسف للانضمام إلى هذا الحل النسبي، لكن يبقى هذا الأمر مجرد فرضية، ولقد فهم سيدي محمد أن مناصريه سيجعلون من انضمامه الصريح لهذا المخطط شرطاً للبقاء على مساندتهم له.

وعند رجوعه إلى فرنسا، حصل الأستاذ جورج إيزار على موافقة زعماء حزب الاستقلال وعلى وجه الخصوص السادة عمر بن عبد الجليل وبومستة وبوعبيد، كما حصل أيضاً على موافقة البكاي والنقابي المحبوب بن الصديق.

إلا أن الفريق التصحيحي أثار ضجة حول المسألة الشيء الذي ضايق مانديس فرانس وجعله يتحفظ على البرنامج المقترح.

وتوقف الأمر عند هذا الحد بعدما قرر رئيس الحكومة تأجيل البت في المسألة المغربية إلى ربيع سنة 1955 لكن لم يتأت له ذلك لكونه فقد الأغلبية داخل الجمعية الوطنية، وحل محله السيد إدغار فور.

وبينما كان الأستاذ جورج إيزار في مدغشقر، ذهب الأستاذ بول ويل من جهته إلى المغرب لصيانة المصالح المادية لموكله الجليل منسجماً في ذلك مع النقيب إيف باسيير، وهو المحامي المحلي للملك المنفى.

لم أتمكن من فك اللغز وإدراك خيوط اللعبة إلا بعد بضعة شهور، فرئيس الحكومة من جهته لم يكن على علم بخبايا الأمور إلا جزئياً، وهكذا لم يتوصل إدغار فور بالرسالة التي سلمها سيدي محمد إلى الأستاذ جورج إيزار، ولم يحصل على نسخة منها إلا في شهر غشت أو شتنبر 1955 أياماً معدودة قبيل أن تنتشر على صفحات جريدة الكفاح Le combat في 14 شتنبر 1955 ولم يُعر هذه المسألة اهتماماً كبيراً آنذاك لأن مشروع "مجلس حفظة العرش" أصبح جد معروف فتم الاحتفاظ به كحل ممكن وكحل أقل ضرراً من الحلول الأخرى وبالتالي أدمج في المخطط الذي حمل اسم جيلبير غرانفال Gilbert Grandval.

شلل العناصر التقليدية

ومقارنة مع الجبهة الوطنية، ظهر أنصار السلطان سيدي محمد بن عرفة بمظهر يتسم بالشلل، إذ كفوا عن التردد على باريس حيث أصبحوا يلقون استقبالا تميزه البرودة. ولم ألتق من جهتي بأي مبعوث من طرف الغلاوي الذي صار يتعامل معي بفطور منذ سنة 1933، كما لم أر إلا فردين من أعيان هذا التيار لكون أحدهم كان من أصدقائي ويتعلق الأمر بـ X.. وهو رفيقي في حمل السلاح بالمغرب لأمد طويل.

وحسب العناصر التقليدية، تكاد الاضطرابات أن لا تتعدى المدن وبالإمكان جعل حد لها بشيء من الحزم والصرامة، أما القرى فقد بقيت على هدوئها، ونظرا للثقة الحاصلة بيننا، لم يخف X أن موقف مصالح الإقامة جعلته هو وأصدقائه في وضع جد صعب، «فبدل أن تسمحوا للسلطان (بن عرفة) بإدخال إصلاحات واسعة وبالظهور بمظهر الحاكم الفعلي والرئيس الحقيقي للساكنة المسلمة والذي يتعامل مع فرنسا بندية، جعلتموه مجرد دمية، ودون أن تشعرُوا أليستموه ثوب التحقير وبمعيته نحن الذين ساندناه، وهنا يكمن أصل الخلل، وأقسم لكم أن الأغلبية الساحقة من المغاربة تعبت من تصرفات سيدي محمد بن يوسف وجماعة الوطنيين، كما أن إبعاد السلطان السابق بعث في النفوس الارتياح والأمل الكبير، وكنتم السبب في خيبة هذا الأمل.

أجبت:

- يوسف لذلك، ولكن ما العمل الآن؟

وكان رد X - يجب الصمود ومساندة السلطان الحقيقي أي ابن عرفة والعمل على إدخال إصلاحات عميقة تصب في اتجاه الاستقلال الداخلي. سوف تتعالى أصوات الوطنيين وستمتلئم الاضطرابات لمدة من الزمن وقد تكبر لكنها ستراجع وتخمد عندما يرى الجميع أنكم عازمون على عدم التراجع أمام التهديدات وأنكم مصرون على أن يواصل المغرب عصريته وأن يثبت ذاته وشخصيته، لكن أهيب بكم وأرجوكم أن تمنحونا تقنكم أكثر مما تفعلونه مع أعدائكم.

وأضاف X بإبتسامة محتشمة:

- أرجوكم أن تصغروا لنا - على الأقل - مثلما تفعلونه مع الوطنيين،
وهم أعداؤكم وأعداؤنا في آن واحد!«.

شلل الفرنسيين بالمغرب وأوهامهم

لقد مكنتني المناقشة، مرة، بحدائق ماتينيون مع موظف فرنسي سام بالإقامة العامة، من استكمال رؤية واضحة بخصوص سوء تصرفنا إزاء السلطان بن عرفة، وكذا الأخطاء التي شابَت سياستنا المغربية منذ 1953، كنت أعرف هذا الموظف السامي منذ سنة 1924 وكنت أكن له التقدير الكامل وتربطني به صداقة حقيقية. لقد قضى بمنصبه بالرباط حوالي أربعين سنة، إنه رجل ذكي ذو ثقافة واسعة ونزاهة كاملة، إذ يمثل في آن واحد نموذج الإداري الكبير ورجل القانون المحنك، لكنه كان لا يعرف المسلمين جيدا بالرغم من توفره على علاقات ممتازة مع عدد كبير منهم ومن بينهم الشباب كذلك.

فحسب رأي هذا الموظف السامي، فكل الأمور تمر بخير في المغرب حيث بدأنا القيام بعمل حقيقي وإيجابي، منذ 20 غشت 1953. يضيف صاحبي «لم يكن بإمكانني النفع بالأشياء إلى الأمام مع بن يوسف. ليس الأمر كذلك مع ابن عرفة الذي يعيش عيشة هادئة في الظل تاركا لمجلس الوزراء والمديرين كامل الحرية. ولقد أصبحت صلاحيات هؤلاء تفوق صلاحياته وأيضا صلاحيات المقيم العام وذلك منذ شتنبر 1953». وفي الحقيقة إن هذا الموظف لم يظن بعد للأشياء ... أما واقع الأمر، فإن المديرين الفرنسيين هم الذين يتحكمون في المجلس، وفي الأخير، يتأتى لنا إذن الانفراد بالحكم⁷⁵.

استفسرته قائلا:

- هذا أمر مؤكد، لكن ماذا فعلتم بتلك السلطات؟

بقي السؤال بدون جواب دقيق، هناك عدة مشاريع لكن إعدادنا يحتاج إلى وقت طويل، إذ في هذا المجال لا يجب الارتجال والتسرع. وحدثني بعد ذلك عن الشعور الحقيقي لسكانة المدن، فحسب رأيه لا

75- يلمح هذا الموظف السامي إلى المملطات التشريعية التي أصبحت من صلاحيات مجلس الوزراء والمديرين بمقتضى ظهير 9 شتنبر 1953.

يجب أن نصدق تأييدهم وموازرتهم للحركة الوطنية «إنهم لا يمثلون لأوامر حزب الاستقلال عن طوعية بل تحت الضغط، وأعطى لما قال مثلا، فجاري بقال بربري، لا يشغل باله سوى بيع بضاعته، لكن بين الفينة والأخرى، يتصل به شابان من القنلة وهما متأبطين مسدساتهم على طريقة عصابات شيكاغو ويجبرونه على إغلاق دكانه لبضعة أيام للمشاركة في إضراب التجار، ويجد نفسه مضطرا للرضوخ وإلا فسيسقط يوما ما قتيلا بواسطة رصاصة في قفاه، ومن الملاحظ أن هذه الأشياء تقع وسط المدينة الأوربية وما بالك بما يدور في المدينة القديمة!«.

قد تكون هذه الرواية صحيحة، لكن ما نستخلص منها هو تدهور الوضع وانعدام الوعي بذلك لدى الفرنسيين. وفي الحقيقة، فقد أصبحت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ولن ترجع إلى تصابها، كما كانوا يظنون، بشيء من الحزم وبالرفع من عدد قوات الأمن.

ومن جهة أخرى، فهناك عدد كبير من البقالين البرابرة المنحدرين من غرب الأطلس الصغير، وعلى وجه الخصوص قبيلة أمeln Ameln يدفعون مساهمات لحزب الاستقلال عن اختيار، وبعضهم عضو في فرق التفتيل.

الظروف الوطنية والدولية سنة 1955

بالطبع لا يمكن معالجة مشاكل المغرب دون الأخذ بعين الاعتبار الأحداث الخارجية التي يتتبعها الوطنيون وتنفهم إلى تصليب مواقفهم باستمرار. ففي فرنسا، وبالرغم من تعهدات الأوساط الرسمية، فالكل يعلم أن الحكومة مترددة وحائرة في ما يخص القرار الواجب اتخاذه وذلك لكونها منقسمة على نفسها، كان جزء هام من الصحافة اليسارية يهاجم السياسة المتبعة بالمغرب ويساند مطالب حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال. أما جورج إيزار، فلم يكتف بالدفاع عن مصالح موكله المادية والمطالبة بجعل حد لمنفاه بمدغشقر، بل تطاول على المجال السياسي وصار يحاول الحصول على تعويض كامل وشامل عن نتائج انقلاب 20 غشت 1953، أي إرجاع السلطان المخلوع إلى عرشه. إن قراءة كتاب جليبير كرانندفال "مهمتي في المغرب" يبقى مهما

في هذا الباب، يقول المقيم العام السابق لفرنسا في المغرب - في الصفحة 22 - وهو بصدد التحدث عن لقاءاته الأولى بباريس مع البكاي والوطنيين في أواخر يونيو وبداية يوليو وذلك تحت إشراف الأستاذ جورج إيزار:

«لا أتأسف على حضور هذا الرجل المهذب والراقي والذي لا يسعنا إلا أن نحبي الحماس والانففاع الذي يخدم به موكله الجليل، لكنني شعرت أكثر من مرة أنه هو الذي يقود المحادثات وأن محوري المغاربة ربما قد يعبرون عن آرائهم بكل حرية لو كانوا وحدهم. وعلى كل حال، فقد بدا لي أكثر تحفظا وتصلبا كلما ذكر شخص السلطان خلال المناقشات مع العلم أن شركاءه أوفياء ومخلصين إلى حد كبير لملكهم وبلدهم».

أما في المغرب نفسه، فإن الإسبان كانوا يلعبون بشكل كبير ورقة الوطنية والعروية، فكان الجنرال فالينو، المندوب السامي بتطوان يكن لنا العداء منذ زمن بعيد مما جعله يسمح لمرتكبي الجرائم والاعتقالات بالمنطقة الفرنسية بالدخول إلى المناطق الإسبانية، فكان هؤلاء المجرمون يجدون هناك الملجأ والإغاثة عند الاقتضاء، نون حسيب ولا رقيب على أنشطتهم وتحركاتهم، بل ذهب البعض إلى أن البلد المجاور يحتضن تكوينا متخصصا في الإرهاب والتخريب. أما صحافة مزيد وتطوان فلم تكف عن نقدها اللاذع لسياسة البطش المتبعة من طرف فرنسا، هذا البلد الملحد وعن مدحها لإسبانيا الليبرالية والمنتدبة في آن واحد، إسبانيا القوة الكاثوليكية والصديقة الحقيقية للإسلام.

لا حاجة لذكر اتساع رقعة العصيان والتمرد إلى مناطق جديدة في الجزائر، والتي كانت تؤول كمؤشرات لتقهقر فرنسا. إن شينا ما قد تغير، لذا وجب اغتنام الفرصة المتاحة، لقد كان الوطنيون يقولون «يا للعار، لماذا لم يحصل بلدنا على نفس الامتيازات التي منحت لتونس على إثر الاتفاقيات الفرنسية - التونسية التي وقعت بباريس في 22 أبريل 1955، لكن الأمة المغربية - ذات التاريخ الحافل بالأمجاد - لن تقبل بالاستقلال الداخلي، كما اكتفى بذلك التونسيون، بل لن تقبل إلا بالاستقلال التام والناجز».

وكانت الصحافة وإذاعات القاهرة ودمشق تصب يومياً أطنان الشتائم على فرنسا، كما كانت موسكو تشجع القومية العربية التي وجدت أيضاً السند في دول المعسكر الأفرو آسيوي، واتخذت أمريكا الجنوبية، المعروفة بمناهضة الاستعمار، موقفاً مناوئاً لفرنسا، وكان الأمر كذلك بالنسبة للولايات المتحدة لنفس الأسباب.

ويختصار، فأرض الله كلها من شرقها إلى غربها. سواء تعلق الأمر بالرأسمالية الأنجلوساكسونية أو بالمعسكر الشيوعي أو المحايدين مروراً بالأنظمة الديمقراطية أو شبه الديمقراطية لأمريكا والأنظمة الدكتاتورية مثل إسبانيا وروسيا ومصر وصولاً إلى الأنظمة الملكية التیوقراطية، كلها، حاكمت فرنسا - ككبش فداء أفرع أجرب ومخز - لا يأتي منه إلا الشر والباطل، وفي نفس الوقت ساندت تحرير شمال إفريقيا البريء المظلوم.

وقد استخلصتُ آنذاك أن الوضع في شمال إفريقيا مقلق للغاية وبدأت أنتظر ما هو أسوأ، لذا ارتأيت أن أبدي رأيي من جديد لرئيس الحكومة في مذكرة يدور موضوعها حول الجزائر والمغرب، مؤرخة بـ 17 يونيو 1955، والتي اقتبس منها المقطع التالي الذي يهم هذا البلد الأخير:

«يقال إن الدار البيضاء وحدها التي تعرف الاضطرابات حقاً، وأن هذه الحركة لم تمس المدن الأخرى وأن القرى بقيت في مأمن من ذلك وأنها لازالت وافية للقياد، وهنا كان إفراط خطير في التفاؤل. أما في الواقع، فإن المدن القديمة تنفلت أكثر فأكثر من قبضتنا وأن العناصر الهادئة والمسالمة لا تظهر ذلك خوفاً من الإرهاب، إذ أن الإرهابيين طوروا وسائل عملهم وأثبتوا سيطرتهم على التجارة والصناعة التقليدية (الإضرابات وإقفال المحلات التجارية)... وهكذا بدأت العدوى تنتقل إلى القرى، وحسب أحد العارفين بأمورها الكولونيل كودينو، مفتش الشؤون العسكرية للمسلمين، فإن الجبال البربرية بدأت بدورها تعطي بعض المؤشرات التي لا تبشر بالخير، وإن بعض القياد، الأكثر تشدداً، يبقون على عدائهم الشديد لحزب الاستقلال وهم على استعداد لحمل السلاح إذا اقتضى الأمر ذلك، لكن الأغلبية مستعدة للتعامل معه في الوقت المناسب.

لقد كبرت الهوة بين الفرنسيين والمغاربة، فأغلب الفرنسيين غير واعين بخطورة الوضع، وفي الوقت ذاته لم تفعل الإقامة العامة أي شيء لتتویرهم وإعدادهم لذلك. إن الشباب على الخصوص عنید ومتصلب.. أما الحكماء أي المسنين الذين يتحلون بالرصانة والتعقل، فلم يبق لهم التأثير الكافي، كما كان ذلك في الماضي القريب. وبالرغم من ذلك، فقد نحتاج إليهم إذا استطعنا أن نحملهم من الإرهاب المضاد⁷⁶. فرجال السادة أوكوتوري، رئيس فيدرالية الغرف الفلاحية، وسيكو، المدير السابق للشؤون السياسية، وكيميي Guillemet وكروز إنخ، قادرون على مساندة سياسة صارمة ورشيدة في آن واحد، ولقد أعجبت مؤخرا للحكمة التي تميزت بها أقوال أوكوتوري. إن الجنرال نوجيس كان يهيء باستمرار هذه العناصر التمثيلية والتي أهملت منذ ذهابه.

وفي نفس اليوم، تحدثت مع رئيس الحكومة بشأن بعض المغاربة المعتدلين مثل السي الفاطمي بن سليمان، فبالرغم من كونه موالا للسلطان السابق، فهو غير مناهض لفرنسا، وما يقع الآن أننا أعطينا لمناصري حزب الاستقلال أهمية قصوى - رغم عدائهم لنا - وأهملنا عناصر أخرى لا يستهان بها ويتأثيرها. وفي اليوم الموالي، أجابني السيد إدغار فور بأن اقتراحاتي تهمه جيدا وطلب مني أن أحدثه عنها في أقرب وقت، وهو الشيء الذي فعلته.

لقد لقيت سياسة رئيس الحكومة انتقادات جمة بالمغرب؛ وهو الوحيد المؤهل للدفاع عنها، لكن، وللشهادة: كان تقييمه للوضع سليما، فقد لاحظ أنه ليس لابن عرفة سلطة حقيقية ولا أي نفوذ. وبالفعل، لا أحد يمكنه أن ينكر ذلك، كما لمس خطورة الأمر، ففي المغرب يشكل الذين لا تتجاوز أعمارهم 20 سنة نسبة 50 % من الساكنة والجزء الأعظم من شبيبته مثقف ومتطور، وهذه الفئة - التي تنزع الرأي العام وتشكل المستقبل - تقف إلى جانب السلطان المخلوع وتتأوى السلطان الحاكم، وكل هذا صحيح ومؤكد. ومما يرفع من حجم القلق، في رأي هذا

76- في 11 يونيو 1955 اغتيل السيد لوميير دويروي المعروف بلرأته الليبرالية بالدار البيضاء على يد رجال الإرهاب المضاد

المسؤول، تسارع انضمام نساء المدن، على الأكل، إلى هذا الرأي، لكن المستقبل أظهر أن الحركة كانت أعظم مما كان يتصوره.

لقد اندهش لعدم قبول أي مغربي عصري، حتى ولو كان مغضوبا عليه من طرف حزب الاستقلال، الدخول إلى حكومة يشكلها ابن عرفة، وهنا كذلك كان على حق، وكان يرى أخيرا أنه ليس بالإمكان المحافظة على الوضع إلى ما لا نهاية، ولو بقوة السلاح. فمن كان يمكنه مساعدة الرأي المعاكس؟ وأظن إذن أن كل شخص موضوعي مطلع لن يسمح لنفسه بمعارضة دقة هذا التحليل ووجهاته.

ولكي يتجنب التصعيد الذي قد يؤدي لا محالة إلى مضاعفة الأحداث الدامية، اقترح حلا انتقاليا من أجل التخفيف من التوتر وتهذبة الأذهان وإعادة النظام، حتى يصبح الحوار ممكنا، وعلى وجه الخصوص مع العناصر المعارضة المعتدلة والمتعلقة وجلها لا يخضع لنفوذ حزب الاستقلال.

فحسب رأيه، يكمن هذا الحل في خلع ابن عرفة وتأسيس مجلس حفظة للعرش أو مجلس للوصاية.

لم أكن أشاطره هذا الرأي، وذلك لأسباب سيتم عرضها فيما بعد، وعلى كل حال، فإنه كان يرى أن مسألة العرش لا يمكن أن يجد لها الحل سوى المغاربة أنفسهم، إذ من المستحيل، حسب ظنه، أن تُعين باريس ذلك السلطان ونحن في 1955، وهنا كذلك نجده على صواب.

الفصل الثالث عشر

المرور القصير لجرانديفال ومؤتمر إيكس ليبيان (يونيو 1955 - غشت 1955)

السيد جيلبير جرانديفال المقيم العام الثاني عشر لفرنسا بالمغرب،
(يونيو 1955)

تم اتخاذ قرار مغادرة فرانسيس لاكوست للمغرب منذ زمن طويل،
واتفق الوزراء في الأخير على اختيار خلف له فتم تعيين السيد جرانديفال
سفيرنا في السار (Sarre)، بناء على ما عُهد فيه من قوة وحب للحركة
والفعل (l'action). كانت الضرورة تحتم الخروج من حالة الجمود
l'immobilisme وتحتّم التحرك إلى الأمام، ولم يكن فرانسيس
لاكوست سببا في هذا الجمود، وإنما لم تجد مختلف مشاريعه الإصلاحية
الأذن الصاغية في باريس، كما اتضح لي أن هناك من كان لا يريد له
النجاح في مهمته، وأن لا تجد إجراءاته صدى جيدا في المغرب. وفي
الحقيقة، كان هناك كذلك من لا يريد أن يستفيد ابن عرفة، من جانبه، من
تلك الإصلاحات، بعد أن خُسم في أمره.

وبالفعل وجدت في أرشيفي الخاص نسخة من مذكرة غير موقعة، لا
تترك مجالا للشك في هذا الموضوع، يقول صاحبها: «لذا أجد فكرة
الكومندار صالفي Salvy جد خطيرة، وبالتالي، يجب أن لا نقوم بأي
إصلاح اجتماعي حتى لا يوظفه ابن عرفة لصالحه مما قد يعقد
المفاوضات مع ابن يوسف، إذا كانت هناك مفاوضات».

كانت مسألة السلالة السلطانية عند السياسيين مشكلا عقيما يشبه
إشكالية جنس الملائكة عند علماء الدين المسيحيين وسؤال "هل الملائكة
ذكور أم إناث؟" أما المشكل الحقيقي والواجب حله، فهو الفقر المدقع
الذي توجد عليه البروليتاريا التي تولدت عن لامبالاة ذاتيتنا، وها هي
الآن تكبر وتترعرع في المدن الكبرى.

إن موقف الكومندار صالفي يُتيح لي الفرصة لأشير إلى الخطأ الفادح الذي ترتكبه عندما ندبر الأمور الإدارية للمغرب من باريس وكأننا إدارة مباشرة، يقول السيد جولي: «أولا أعطي حق التنقيب للمغاربة، لكن ليس له الحق أن يفعل ذلك، إذ على السلطان أن يفعل هذا وذلك عن طريق الظهائر. إن أمرا كهذا يعتبر خرقا صارخا لمبدأ الحماية. وفي الواقع، وعلى الخصوص بعد الحسم في القضية التونسية، يمكن أن نتساءل عن ماهية وزارة الشؤون المغربية - التونسية»⁷⁷.

وفي الأخير، ولكي نوضح الوضع بشكل شبه شمولي يجب التطرق أيضا إلى التغييرات التي عرفتھا التركيبة الاجتماعية لحزب الاستقلال في السنوات الأخيرة.

كان الزعماء الأربعة القدامى يديرون الحزب ويسيطرون أموره: فهناك علال الفاسي المتصوف، المتتور، وأحمد بنفريج الثعلب الداهية، ومحمد اليزيدي المنظر الضيق الأفق، وعمر عبد الجليل المذهب الغنيد. ففي الأصل، كان الحزب يستقطب أعضاء من دوائر مغلقة تنتمي لبورجوازية فاس ومكناس والرباط وسلا والدار البيضاء مع ترجيح كفة فاس والمدينيتين الشقيقتين الرباط وسلا. فكان القادة إذن من عصارة تلك البورجوازية، باستثناء محمد اليزيدي الذي ينحدر من وسط متواضع.

لكن مباشرة بعد نهاية الحرب الأخيرة، ظهر رجيل الشبان الجدد المتعلمين الحاملين للشهادات والمنحدرين من الأوساط الشعبية، كما كان الشأن بالنسبة لعبد الرحيم بوعبيد، وهو محامي وابن نجار بسلا، والمهدي بن بركة المجاز في العلوم، وهو ابن مخزني⁷⁸ واعتمادا على حدسه اختارهما سيدي محمد كمستشارين خاصين. وكان المهدي بن بركة كذلك يدرس الرياضيات للأمير مولاي الحسن وأصدقاءه بالمعهد المولوي، وفي الوقت ذاته، كان المحبوب بن الصديق، وهو سكي

77- من البنيهي أن الكومندار صالفي كان يعبر عن رأي وزارة الشؤون المغربية - التونسية وليس من حق أي أحد أن يجعل منه كيش فداء.

78- أصبح بوعبيد وزير دولة وسفير المغرب بباريس في حكومة البكاي، وعين وزيرا للاقتصاد الوطني في حكومة البكاي الثانية. وبذلك كانت تدخل ضمن مهامه المالية والتجارة والإنتاج الصناعي والمعادن ومصالح التخطيط، وصار بعد ذلك نائب رئيس الحكومة مع الحفاظ على حقيبة الاقتصاد الوطني. أما المهدي بن بركة فقد شغل منصب رئيس الجمعية الوطنية الاستشارية، وكلاهما انتقلا في آخر المطاف إلى معارضة الملك.

بمكتاس - وابن فقيه بسيط - يناضل داخل الأوساط العمالية. لقد أصبح في الأخير كاتباً عاماً للاتحاد المغربي للشغل (UMT) الذي ساندته فرين براون، زعيم الكونفدرالية العالمية للنفقات الحرة (CISL)، وبمجيء هؤلاء الشباب، تمكن الحزب من بسط نفوذه على الجماهير الشعبية في المدن واستقطب بالتالي جماعات جديدة تتميز بالدينامية وحسن التأطير والفعالية، أكثر مما كان عليه الأمر بالنسبة لبورجوازية المدن. لقد أنعشت هذه الدماء الجديدة بشكل من الأشكال الحركة وأضفت على حزب الاستقلال طابعا آخر مغايرا للصبغة الدينية أو الثقافية التي كان عليها، ولم يمر بعد الوقت الكافي لتعرف هل سيتمكن هذا الرعيل من الشباب الحد من التأثير القوي لشخص علال الفاسي، وهل انفتاح الحزب على طاقات جديدة يمكن من ظهور رؤى سياسية عصرية تشبه تلك التي يعمل بها حزب الشورى والاستقلال؟ إنها فرضية جد محتملة، لأن رجالا من طينة الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد أو المهدي بن بركة لهم من الخصال ما يؤهلهم لذلك ولمستقبل زاهر⁷⁹.

ورغم أنني لم أعد إلى المغرب منذ أواخر 1947، بدأت تتكون لدي فكرة دقيقة على المشهد السياسي لهذا البلد ووزن الأحزاب المتواجدة به وذلك بفضل اللقاءات العديدة التي قمت بها خلال الأشهر الأخيرة مع بعض الفرنسيين والمغاربة.

إن مجلس حفظة العرش حل مستحيل وغير لائق في نظري، كما أن اقتراح خليفة كوصي وحيد على الملك يبقى حلا غير صائب أيضا، فنظرا لانقسام الرأي العام ونظرا للعنف الحاد السائد وتعصب كل واحد لرأيه فلا يمكن لأي رجل أن يحقق الإجماع حول اسمه، فإذا أحرز على موافقة الوطنيين، فسيعارضه التقليديون والعكس صحيح أيضا. كما أن التخلي عن السلطان السابق وعلى السلطان الحالي من أجل اختيار رجل ثالث سيكون خيارا مستحيلا كذلك، فهذا الأخير لن يقبل من طرف الوطنيين ولا ساكنة المدن كما هو الأمر بالنسبة لابن عرفة.

فلم يبق إذن إلا الخياران التاليان:

⁷⁹ - بالفعل، لقد انفصلوا عن الجناح اليميني لحزب الاستقلال الذي يتزعمه علال الفاسي وأسماوا الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي يحظى بمساندة الاتحاد المغربي للشغل، إنهم يساريون، لقد لجأ المهدي بن بركة إلى مصر وصدر في حقه حكما غيابيا بالإعدام وذلك لمشاركته في مؤامرة ضد الملك الحسن II، ولا زال الكل يتذكر اختفائه التراجيدي. ببليس أواخر سنة 1965.

- الاحتفاظ بابن عرفة أراد من أراد وكرهه من كرهه،

- إعادة سيدي محمد بن يوسف.

في فترة ما كنت مع الاحتفاظ بابن عرفة، لكنني رضخت للأمر الواقع في أوائل يوليو، لقد كنا السبب في أن فقدت هذه الشخصية المحترمة هيبتها وتقديرها، ولا يمكننا الآن أن نعيد لها السلطة وأن نجعلها تشكل حكومة مغربية تحظى بمصداقية حقيقية في البلاد⁸⁰، لذا لم أعد أرى أي وسيلة أخرى للحل باستثناء إرجاع سيدي محمد بن يوسف مع استحضار كل الصعوبات والأخطار التي ستصاحب هذه العملية.

إنها بالفعل عملية جد دقيقة وربما تحقيقها مستحيل بالنظر للسياسة الداخلية لفرنسا، أما على المستوى المغربي، فإنها قد تشعل فتيل العداء لفرنسا، لأن هذا الحل سيقرب بطلان وإخفاق السياسة المتبعة منذ سنتين، وفي المقابل، كنت أستبعد كلياً أن المشروع سيجد معارضة مسلحة من طرف القبائل.

لكن قبل اتخاذ القرار يجب معرفة الوضعية الذهنية التي يوجد عليها سيدي محمد بن يوسف، ولهذا الغرض، كان من اللازم إيفاد مبعوثين مؤهلين إلى أنتسيرايبى دون الإعلان عن ذلك، فإذا تفهم السلطان السابق -ومن المفروض أنه تعقل بعد كل ما ذاقه من محنة - الوضع وأبان عن حسن نية، فعلى فرنسا أن تتخذ المبادرة وتتكلف بتنفيذ العملية دون هوادة. وفي كل الأحوال لا يمكن استشارة الأحزاب السياسية وبالأحرى إشراكها في المحادثات التي ستدور مع السلطان لأنها ستعمل على تضليل موقفه وسوف يستفيدون من التدخل لصالحهم، أما من جهة أخرى، فمادام أن معاهدة 1912 لازالت سارية المفعول، فلا يمكن أن نقبل إلا بمفاوض واحد وهو سيدي محمد.

إن المقاربات الحذرة - لم أكن بعد متيقناً من نجاعة رأيي - التي قمت بها إزاء رئاسة الحكومة ومجموعة من الدواوين الوزارية جعلتني أقتنع سريعاً أن هذا التصور لن ينال رضى الأطراف المعنية⁸¹.

⁸⁰ - لقد سبق للسيد إيميل روش أن قال للسيد غرانفال أن الاحتفاظ بين عرفة أمر مستحيل وأن السيد بونيفاس أيضاً يشاطره هذا الرأي.

⁸¹ - لكن عندما عرف المشروع أنار حفيظة مناصري مجلس العرش، كما أقلق المتعصبين لابن عرفة، فصرحت في آن واحد العدو الطرفين.

كان التغيير مفاجئا وجذريا واستقر الأمر إذن على مجلس العرش لربح الوقت وانتظار ما سيأتي...كنت أود أن أطلع المقيم العام الجديد على وجهة نظري قبل ذهابه إلى المغرب، لكن لم أتمكن من مقابلته.

تفقد السيد گرانديفال لمهامه والتعليمات التي تلقاها

في 7 يوليوز 1955، امتطى جيلبير گرانديفال، المقيم العام الثاني عشر، الطائرة للانتحاق بمنصبه بالرباط وتتلخص التعليمات التي كلف بتطبيقها في ما يلي:

1- تود الحكومة الفرنسية أن تنقل ممارسة الحكم والإدارة في أقرب الأجل إلى المغاربة أنفسهم.

2- إن ابن عرفة لا يتوفر على أي سلطة، وأن مجرد وجوده يعرقل كل عمل بناء، وبما أن إشراك المغاربة في هذه الأعمال أمر واجب، وأن هؤلاء يرفضون التعامل معه هو بالذات، فعليه أن يتخلى عن العرش.

3- هناك عدة حلول يمكن اتخاذها مباشرة بعد خلع ابن عرفة: إما تعيين مجلس حفظة العرش، أو تسمية خليفة أو تنصيب سلطان جديد. وبالطبع لكل حل مزاياه ومساوئه وعلينا اختيار الأحسن.

4- وفي كل الحالات، فإن فرضية رجوع سيدي محمد بن يوسف إلى العرش أمر غير وارد بتاتا.

5- لكن سيسمح لسيدي محمد وعائلته أن ينتقل إلى فرنسا ويستقر بها،

6 - وأخيرا، ستشكل حكومة مغربية حقيقية، وسيؤدي هذا إلى الاستغناء عن المديرين وعن مجلس الوزراء الحالي.

وفور وصوله إلى المغرب، قام السيد جيلبير گرانديفال بعدة لقاءات، لكن منذ البداية اتضح أنه يأخذ بعين الاعتبار آراء الوطنيين أكثر من منافسيهم، كما أنه لمح بشكل من الأشكال إلى أن عهد ابن عرفة محكوم عليه بالزوال، وبهذا التف الجميع حول مناصرة سيدي محمد بن يوسف، تلك المناصرة التي كانت مرغوبة البارحة والتي أصبحت اليوم تتحقق أكثر فأكثر. وكلما قام المقيم العام بزيارة مدينة من المدن المغربية الكبرى كمراكش ومكناس على الخصوص، تعالت أصوات المتظاهرين

منادية باسم السلطان المنفي، ويصطدم المتظاهرون مع قوات الأمن الأمر الذي أسفر عن العديد من الجرحى والقتلى. وتفاديا لمذابح أخرى، وقع تخلي المقيم العام عن زيارة مدينة فاس، وخلال كل هذه الأحداث عبرت الشرطة عن بالغ القلق.

برنامج گرانفال

في بداية غشت، اقترح المقيم العام على الحكومة الفرنسية مخططا من خمس نقط:

1- ذهاب السلطان ابن عرفة، حيث لا يوجد مغربي عصري واحد يقبل منه ولو منصبا بسيطا.

2- إنشاء مجلس للعرش.

3- تشكيل حكومة مغربية صرفة يترأسها سيدي الفاطمي بن سليمان ومهمتها الأساس هي التفاوض مع فرنسا.

4- تصريح علني لسيدي محمد بن يوسف يعلن فيه عن موافقته على الإجراءات المتخذة، وبالطبع، يجب إرسال وفد إلى مدغشقر ويمكن أن يتضمن مثلا: ممثلا عن الإقامة العامة والبكاي والسي المعمرى الصديق الحميم للسلطان السابق ومعتشاره.

5 -الإعلان الرسمي عن رجوع سيدي محمد بن يوسف إلى فرنسا. وألح السيد ج. گرانفال على أن يُشرع في تنفيذ هذه النقط في آن واحد أي بطريقة متوازية، وذلك قبل 20 غشت، ذكرى انقلاب 1953 إذ كان يتخوف من اندلاع مظاهرات عنيفة في مجموع أنحاء المغرب إذا أحتفظ بالوضع كما هو عليه.

ورغم أن رئيس الحكومة كان بالتأكيد متفقا مع المخطط فإنه لم يتمكن من تنفيذه في هذا الأجل الوجيز، لقد واجه بالفعل معارضة واضحة من طرف عدة وزراء، الأمر الذي دفعه إلى التآني والمناورة. أما المقيم العام، فلم يطق الانتظار لوعيه بخطورة الوضع وصار يهدد بتقديم استقالته، وبموازاة ذلك شدد الوطنيون موقفهم بعدما كانوا قد قبلوا في يوليوز - حسب السيد گرانفال - ترك تسيير الشؤون الخارجية وضممان الدفاع عن المغرب لفرنسا، شريطة الاعتراف بحق بلدهم في الاستقلال.

مناظرات إيكس لبيان (غشت 1955)

شكل السيد إدغار فور لجنة تتكون من خمسة حكماء يرأسها السيد روبير شومان، وزير العدل. وتضم كذلك السيد أنطوان بيني وزير الشؤون الخارجية والجنرال بيار كونيغ، وزير الدفاع الوطني والسيد بيار جولي الوزير المكلف بالشؤون المغربية - التونسية، وقرر بعد ذلك أن يجتمع الحكماء بإيكس لبيان حيث كان السيد أنطوان بيني يقضي فترة استجمام بعيون الماء الطبيعية. وفي اللقاء سيتم الاستماع لممثلي كل الحساسيات المكونة للرأي العام المغربي ومن ضمنها الفرنسيين وبالطبع الناطقين باسم حزب الاستقلال والناطقين باسم حزب الشورى والاستقلال.

من المؤكد أن هذا الحل لم يكن صائبا، لأنه يمس في البدء بسلطة المقيم العام دون الحديث عن ابن عرفة، فرغم انعدام سلطة هذا الأخير، فهو يفقد مصداقيته علنيا في هذه المبادرة على المستوى العمومي وبطريقة تنقصها اللباقة. ومن جهة أخرى يمكن أن يدفع هذا الحل بالوطنيين على اختلاف اتجاهاتهم المتطاحنة، والتي يغار بعضها من البعض، نحو الديماغوجية والمغالاة وذلك لاستقطاب زبناء جدد وتوسيع النفوذ. وكان الفرنسيون المساندون لتلك الاتجاهات - ويوجد بعضهم بين موظفي السلطة - يساعدونهم ويشجعونهم باستمرار على هذا النهج، وأظن بصدق أن الخطأ لا يرجع لرئيس الحكومة.

إن الوضع السياسي، أي اللعبة البرلمانية والانقسامات، أو بمعنى آخر، التناقضات الداخلية للحكومة وحالة جزء هام من الرأي العام، كل هذا جعل إدغار فور يختار سياسة الكل للكل...

يقول السيد غراندفال في كتابه (ص201) أنه قد نبه في 13 غشت السيد إدغار فور قائلا: «إن سياستك ستنتهي بإرجاع ابن يوسف إلى عرشه!» وقد أجابه الآخر: «وهل سبق أن راوكم الشك في ذلك؟».

في الواقع، لقد وقع خطأ في نقل هذا الحديث، إذ يوحي بأن رئيس الحكومة كان يود إرجاع سيدي محمد ابن يوسف، الأمر الذي لم يكن صحيحا آنذاك، لم يكن السيد إدغار فور يكن العداء للسلطان المنفي، وكلما حدثته عن مسألة رجوع السلطان التي تظهر لي كأفضل حل كان

يرد علي: «نعم معكم الحق، لكننا نصطدم مع أمر واقع ومستحيل، إذ في المجال السياسي، كل شيء غير قابل للإنجاز لا يشكل حلا»، وكان يظن أن الرجوع سيطرح نفسه بالحاح في المستقبل مثله مثل السيد گرانفال نفسه، لقد نقل لي عندئذ حكاية طريفة، تتعلق بدرشة مع المقيم العام.

قبل ذهابه إلى الرباط قال هذا الأخير لرئيس الحكومة أنه فكر - من بين ما فكر فيه - أن يذهب إلى مدغشقر وأن يصحب معه السلطان إلى المغرب على متن نفس الطائرة يضيف السيد گرانفال «فقلت له: ضع على صدرك صليب التحرير La croix de libération وسأفعل مثلك».

وجد إدغار فور هذا المشروع متهورا وغير واقعي، وكان موضع قلق بالنسبة له وهكذا كانت ذهنيته لما قص أمامي هذه الحكاية.

الهيجان يطال القرى، اضطرابات خنيفرة

لكن الحمى بدأت تعم المغرب، وصار الاضطراب ينمو بشكل تصاعدي، وانتشر في القرى، وكنت قد تكهنت بذلك منذ مدة طويلة. وفي 11 غشت. أرسل أربعة قياد من فيدرالية برابرة زيان (الأطلس المتوسط) برقية إلى المقيم العام يطالبون فيها بأن يكف باشا مراكش الحاج التهامي الغلاوي عن التحدث باسم البرابرة، ويؤكدون فيها كذلك تعلقهم بسيدي محمد ابن يوسف، وقد علمت بعد ذلك أن البرقية أعدت بمناسبة زيارة قام بها أحرسان - قائد والماس السابق الذي أصبح من دعاة الاستقلال المتحمسين - لزعماء زيان بخنيفرة. والغريب في الأمر - وقد سبق وأن أشرنا إلى ذلك - أنه في أمسية جميلة من نونبر 1947، كنت بولماس فامستافاني أحرسان تحت خيمة أبيه التقليدية وشرحت له مطولا - إذ كان يجهل مثل جل المغاربة تاريخ بلاده وقبيلته - أن قبائل الأطلس المتوسط ينتمون إلى مجموعة صنهاجة شبه الرُّحل المدعون بأيّت أو مالو (أبناء الظل) ومن بينهم كذلك زمور وأيّت عمار (وهي قبيلته بالذات) وأيّت سكوكو وزيان وأيّت إسحاق وأيّت شخمان إلخ. وقلت له كذلك أن هذه القبائل ليست من جنس برابرة الأطلس الكبير الذي ينتمي لها الغلاوي وهي قبيلة باشا مراكش. إن هؤلاء البربر (الشلوح) ينتمون بالفعل إلى فصيلة من بربر مصمودة، وأخبرته كذلك أن

الصنهاجيين أتوا من الصحراء وأسسوا دولة المرابطين وأن المصامدة هم الذين قضوا على الدولة المرابطية وأسسوا على أنقاضها دولة الموحدون. تأكدت ذلك اليوم أن لأحرضان ذاكرة قوية لكنه يستعمل المعلومات التي لقتها له - حين كان يعمل تحت أوامري - ضد مصالحنا.

وفي يوم الجمعة 19 غشت عرف مركز خنيفرة أحداثا دموية بالغة الخطورة، لقد تدخل الجيش وكذلك القوات الجوية لتفريق فرسان (خيالة) زيان الذين بدأوا التجمع على قمم الجبال استعدادا للنهب في الوقت المناسب.

وبما أن حضوري بليكس لبيان لم يكن مبرمجا، فإني طلبت من رئيس الحكومة يوم 19 غشت على الساعة 9 ليلا السماح لي بقضاء فترة راحة بسان لونيير Saint Lunaire قرب دينار Dinard وذلك لكوني كنت متعبا. وطلب مني أن أئلي له برأيي فيما يخص المتاعب التي تخلفها له الأوضاع بالمغرب.

- ما هي وجهة نظرك؟

- أنا جدد قلق، وأخاف أن تحذر قبائل أخرى حذو زيان. منذ الآن، وفي كل لحظة، يمكن أن تتعرض المراكز القروية الصغرى والوحدات المنجمية والضيعات الأوربية إلى الهجمات، لقد أصبح الخطر يتهدد الفرنسيين بكل وضوح.

أجابني رئيس الحكومة، في كل الحالات، يوجد هناك جيش، ما الفائدة من جيش يكلفنا الكثير، إذا لم يستطع ضمان الأمن لمواطنينا؟

- نعم، يوجد هناك جيش، سيدي الرئيس، لكن لا يمكنه المحافظة على سلامة الفرنسيين، بشكل فعال، وعلى الخصوص المنتشرين منهم في المناطق النائية، وفي أغلب الحالات، يحتاج تدخل القوات إلى بضع ساعات، وهذا الوقت كاف لكي يقوم المشاغبون بالاغتصاب والقتل والنهب وإضرار النار.

- إذن، إذا كان هذا صحيحا، فلما لا أفهم لماذا أعلن الجنرال دوفال Duval أنه في غنى عن قوات الدعم التي طلبت كغرانديفال إرسالها؟

- ليس بإمكانني إعطاؤكم تفسيراً مقنعاً، لكن أظن أن هذا الرفض راجع للثقة العمياء في الوفاء التقليدي الذي تحتفظ به البوادي نحونا. لقد زادت هذه الدرسنة من هموم انكار فور وتخوفاته أكثر من ذي قبل.

مذابح تادلة

وصلت إلى دينار في اليوم الموالي لـ 20 غشت، وبما أنني كنت أحتاج إلى بعض الراحة، فضلت أن لا أفتح المذياع وأن لا أقرأ أي صحيفة. وفي صبيحة 21 غشت، توصلت بمكالمة هاتفية من باريس، تحثني على الرجوع حينا والاتحاق يوم الاثنين 22 غشت بإيكس ليان، ومن أجل هذا الغرض تم وضع طائرة رهن إشارتي، وعند مروري بباريس، فهمت سبب عودتي المفاجأة عندما تصفحت لوجورنال دي ديمانش، لقد وقعت في اليوم السابق مذابح ذهب ضحيتها فرنسيون، ولقد ثارت بعض القبائل من منطقتي الشاوية وتادلة، وكان عدد الضحايا الفرنسيين المندنيين مرتفعاً (تسعة وأربعين فرنسياً، ومن بينهم ثمان نساء وخمسة عشر طفلاً بواد زم).

وعند وصولي إلى إيكس ليان، وجدت في بهو الفندق الذي يقيم فيه الحكماء، عدة مديرين وملحقين بدواوين الوزراء ومجموعة مهمة من الصحفيين الفرنسيين والأجانب بالإضافة إلى بعض فرنسيي المغرب وبعض المغاربة.

وكان يظهر جلياً أن الفرنسيين منقسمون إلى معسكرين ينظر بعضهم لبعض برؤية واحتياط، وأمام أنظار التيار المنعوت بالليبراليين صافحت الجنرال لوكونت، رئيس أركان الجنرال كونيغ، الذي همس في أذني «هنا اللعبة ملغومة!» وبعد ذلك توجهت تحت أنظار "التقليديين" نحو السيد لوبلان Leblanc المراقب المدني بديوان السيد غرانديفال، ومن سوء حظي كان لا يحظى برضى الجزء الكبير من الحضور، وفيما بعد علمت أن البعض كان يشك في تورطه في مذابح وادي زم بدعوى أنه أراد أن يبرهن على أن سكان البوادي هم من أنصار ابن يوسف مثلهم مثل سكان المدن⁸² ! ومن البديهي أن يكون الجو جد مكهرب.

⁸² - لم يكن ذلك إلا افتراء، فتمكن لوبلان Leblanc - صديق أندري جوليان - فرنسا صالحاً وعند ذهاب السيد غرانديفال، وجد نفسه في وضع غير مريح، جعلته ينضم إلى المكتب المركزي للتوثيق والإعلام كما فعلت ذلك مع أصدقاء آخرين من الذين تخلى عنهم غرانديفال. فكلمنا مدير المقيم العام - هذا ما وقع مراراً وتكراراً - تم إغناء مجموعتي الصغيرة بمساعدين قارين أو متطوعين من مختلف

وفي الوقت ذاته، كان الحكماء الخمسة يعملون دون انقطاع في جلسة مغلقة بالطابق السادس من العمارة، وكى لا أدخل في المتاهات وأسمع الاتهامات والانتهاكات المضادة التي تبادلها الحاضرون، قررت أن لا أرى إلا المغاربة. فذهبت للسلام على الصدر الأعظم، ذلك الرجل المحترم والمسن، ثم على الإخوة الناصري وصديقي القديم المي القاظمي بن سليمان الذي يحتمل أن تجمعي به مناقشات طويلة وجد مهمة، ووجدت أن وفد حزب الشورى والاستقلال الذي كان يرأسه عبد القادر بن جلون⁸³ يتعامل معي بلطف واحترام، ظنا منه أنني أتوفر على صلاحيات يمكن أن يكون لها تأثير هام، وبمجرد ما علم أعضاء هذا الوفد أنني في عزلة تامة، كفوا عن لقائي، وعكس ذلك، لم أتمكن من الالتقاء بممثلي حزب الاستقلال، والذين كانوا محاطين بحماية مشددة تحسبا لكل لقاء غير مرغوب فيه.

استطعت في إيكس لبيان الحصول على بعض التوضيحات فيما يخص الأحداث التي عرفتھا تادلة، لقد تعرض كذلك منجم آيت عمار قرب واد زم إلى هجوم عنيف قتل على إثره 14 فرنسيا بعد مقاومة بطولية، كما وقعت اضطرابات بأبي الجعد وأدت هي الأخرى إلى عدة قتلى، وأخيرا، تعرضت منشآت المكتب الشريف للفوسفات بخريبكة إلى أعمال تخريبية صبيحة يوم الأحد، كما سقط بعض القتلى - مغاربة - بالخميسات والرباط (بدوار الدوم) والدار البيضاء (10 قتلى) وكذلك بمازگان (الجديدة حاليا).

وتوصلنا في ظهيرة الاثنين 22 غشت بخبر مقتل جنرال الجيش السيد دوقال، القائد المنسق بين القوات المتواجدة بالمغرب، وذلك على إثر سقوط طائرته التي كانت تحلق بسماء تادلة فوق المنطقة التي عرفت الأحداث سالفة الذكر⁸⁴.

الانتهاكات، وكان كل هؤلاء يعملون تحت إشرافي في جو يسوده الانسجام، لأنهم كلهم فرنسيون قبل كل شيء.

⁸³ - تولى عبد القادر بن جلون منصب وزير المالية في حكومة اليكاي الأولى.

⁸⁴ - كان الجنرال يقود طائرته الصغيرة بنفسه، وغالبا تحطمت الطائرة بدخولها في زويدة ريح كما يحدث ذلك في سهول حارة، كسهل تادلة. لقد أشاع البعض أن الحادث كان من تدبير كرنشال وهذا كلام سخيف ورخيص.

وفي ظهيرة اليوم الموالي انشغلنا في إيكس لبيان بمن سيمثل الحكومة في تأبين الجنرال دوفال والذي حدد ليوم الأربعاء بالرباط أي على بعد أقل من عشرين ساعة، وأسندت هذه المهمة الأليمة إلى السيد بيار جولي July وزير الشؤون المغربية - التونسية والذي كان لا يتمتع بشعبية في أوساط الفرنسيين بالمغرب، فلما استشير السيد گراندفال هاتفياً أكد، هذا الأخير، أن مجيء هذا الوزير غير مرغوب فيه بتاتاً، وقد تكون للسكانة الفرنسية - التي ذاق طعم المرارة من جراء الأحداث الدامية - ردة فعل عنيفة لاثليق بهذا المبعوث الحكومي. وبما أن كل شيء وارد وأن الحكومة ليست في حاجة إلى أزمة تضعفها أكثر، تقرر إرسال عسكري فتم اختياري كرجل مناسب، وعلى الساعة الخامسة والنصف زوالاً، تم تعييني وإخباري بأن أمتطي طائرة رئيس المجلس (S.O. Bretagne) التي كانت متوجهة إلى باريس. وهناك تم حجز مقعد لي بطائرة للخطوط الجوية الفرنسية والتي غادرت المطار على الساعة 12 ليلاً⁸⁵، وأوصلتني إلى الدار البيضاء عند الفجر حيث نقلتني سيارة إلى الرباط على وجه السرعة. وهكذا سأتتمكن من الوصول ثم الاستحمام وارتداء البذلة البيضاء المخصصة لهذه المناسبة إذ تمكنت من وضعها بين أمتعتي حين توقفي الخاطف بباريس.

وبالرغم من أن هذا البرنامج مرتجل، فإنه تحقق دون عناء نقطة تلو الأخرى. وفي صبيحة اليوم الموالي على الساعة 10 كنت مرتدياً بذلتي البيضاء في مكتب المقيم العام.

مراسيم دفن الجنرال دوفال

انطلقنا من الإقامة العامة في موكب قاصدين بيت الجنرال وذلك لحضور حمل النعشين⁸⁶. قدمت بحرارة تعازي الحكومة إلى عيلة الفقيد - كانت شجاعة رغم الفاجعة الأليمة - وكنت قد تعرفت عليها في السابق بالرباط حين كان زوجها رئيس كتبية ضمن الديوان العسكري للسيد هنري بونصو، وبعد ذلك سرنا مشياً على الأقدام وراء المدفعين اللذين يحملان النعشين الملفوفين بالعلم الفرنسي والتحقنا على بعد ستة مائة

⁸⁵ - بباريس التحق بي السيد دونديو Donnedieu de Vabres مدير ديوان السيد جولي، وهو غير معروف لدى فرنسيي المغرب.

⁸⁶ - توفي الكومندار شابرو، رئيس ديوان الجنرال دوفال في نفس الحادث.

متر، بمفترق الطرق المتواجد أمام الأبواب الثلاثة⁸⁷ حيث ستمر مراسيم الجنازة. كانت صفوف من الدرك المتنقل تخفر الوفد الرسمي عن قرب، إذ كنا مطوقين وكأنا معتقلين، وكأنت أزقة أكدال، الحي الأوربي، فارغة.

لكن عندما وصل الموكب إلى الأبواب الثلاثة، التفت الجماهير الكثيرة على طول الطريق وراء الحواجز، ومن حسن الحظ كانت قوات الأمن كثيفة الحضور تحول دون سقوط تلك الحواجز، وتعالى الشعارات المناوئة للمقيم العام من كل جهة.

وعاد الهدوء عند بداية الحفل الديني واستمر إلى نهايته، تدخل بعد ذلك السيد غرندفال ليلقي كلمته بصوت عالي وهادئ، وتعالى صراخ الحضور ليقاطعه مرات عديدة بالقذف والشتم مطالباً بإقالته وموته... مر كل هذا أمام جنازتين لعسكريين سقطا في سبيل الوطن وأمام أعين عائلتيهما وتحت أنظار شخصيات أجنبية ومغربية⁸⁸. إنه لحدث فظيع، مؤلم ومشين لفرنسا وللفرنسيين. كنت في الصف الأول لكوني أمثل الحكومة، وتمكنت من ملاحظة ما يدور في صفوف الهيئة الدبلوماسية والجنرالات والضباط السامون الأمريكيون، لقد اندمض القنصل العام الإسباني لما وصل إليه الكثير من الفرنسيين من خسارة وتكدي وتفاهة، أما الأمريكيون، فقد كان يظهر على وجوههم الاحتقار الكبير لهؤلاء الأوربيين - المنعوتين بجنس الزيتون - وذلك لتصرفاتهم السخيفة⁸⁹!

عاد الصمت عندما وضع الجنرال كاليس، المفتش العام للقوات البرية والبحرية والجوية بإفريقيا الشمالية، على تابوت الجنرال دوغال الصليب الشرفي الأكبر للجيش (Grande Croix de la legion

⁸⁷ - لقد سبق أن شهد هذا المكان المسمى بساحة لوكليك مراسيم رجوع جثمان المارشال ليوطي إلى الرباط في أواخر 1935

⁸⁸ - خلافا لما كتبه السيد غراندفال في كتابه (ص249) قبحينا لشرك في خطابه تعازي واحترام رئيس الحكومة الممثل في شخص الجنرال سبيلمان، فإن الجماهير الحاضرة بقيت سائلة. لا يرجع هذا الصمت لكن الأمر يتعلق برئيس الحكومة أو بالأطلاق باسمه - الذي لا يعرفه هؤلاء الفرنسيون الذين لم يأتوا إلا مؤخرا للمغرب - لكنه يحزى لكوني ضابطا ساميا وأن الجيش يبقى الأمل الوحيد بعد هذه الأحداث الدامية، لهذا تعالت للتصفيقات بحرارة لما نطق باسم المارشال جوان منغزلا، رغم مؤاخذته على مصادقته على سفر السيد ملاديس فرانس إلى تونس.

⁸⁹ - بالنسبة للأمريكيين، فإن الفرنسيين المزدادون جنوب الخط الرابط بين (Nantes-Lyon) نالت - ليون ينتمون إلى "جنس الزيتون"، هذه التسمية التي تدل على احتقارهم لكل الساكنة الأوروبية القاطنة بحوض البحر المتوسط، مستثنين بالطبع عرب النظم.

(d'honneur)، وبعد ذلك صفقت الجماهير عند استعراض الجيش، وهذا شيء غير مألوف عندما يتعلق الأمر بمراسيم جنازة.

لقد فقدت الجماهير وعيها وصوابها وتناست كل قواعد اللياقة والآداب، وتأكدنا من ذلك عندما خرجنا من الخيمة الرسمية في نهاية الحفل، لقد حاول بعض الأوباش تخطي الحواجز بالقوة لمهاجمة المقيم العام، فلم يفقد هذا الأخير صوابه ولا لياقته. أركبني في سيارته صحية الجنرال كالبيس ثم جلس بيننا، واتجهنا على وجه السرعة إلى الإقامة العامة التي كانت تحت حراسة مشددة، كانت تحيط بها عدة مجموعات من الدرك المتنقل⁹⁰.

أثناء الرحلة، قال لي المقيم العام: في آخر المطاف، لقد مرت الأمور أحسن مما كنت أتصور!

أجبتني متأثر لما وقع فما كنت قط أظن، عندما كنت أجوب أزقة الرباط وراء المارشال ليوطي أو الجنرال نوجيس مثلاً أن في يوم ما سيتعرض مقيم عام لفرنسا، لمثل هذا التصرف بالمغرب وخصوصاً أن يأتي ذلك من مواطنيه، وكان رد محاورتي بالقول: «يتأكد لي أنك لم تر في 16 يوليوز المشاهد الهستيرية التي تخللت مراسيم دفن ضحايا الأحداث الإرهابية ليوم 14 يوليوز، لقد تعرضت يومها للقفز والشم والتهديد، لقد تم دفعي وانتزعت قبعتي ولم أنج من المشاجرة إلا بأعجوبة، وكان من الممكن أن نشهد اليوم أحداثاً أسوأ!..».

وبمقر الإقامة العامة، تحدثت طويلاً مع مساعدي السيد غرانديفال المقربين، وأذكر منهم إيتيان بوران دي روزي ممثل الإقامة والذي تعرفت عليه بديوان الجنرال دي غول وبيار لورون، مدير ديوان الإقامة والسيد جاك شازيل مدير الإعلام. أدخلني المقيم العام إلى مكتبه وتحدث معي على انفراد، لم يخف علي أنه يفكر في الاستقالة من منصبه في الأيام القليلة المقبلة لكونه لا يريد الاشتراك في سياسة مبهمه ستؤدي إلى نكبة مؤكدة، وأضاف أن مشاورات إيكس لي بان ورفض تطبيق مخططة - الذي تقدم به - سيؤديان لامحالة إلى رجوع بن يوسف في

⁹⁰ - أخجل أن أكتب - لكن يجب أن أتطرق لذلك لفهم إلى أي حد فقد الناس صوابهم - إنني شاهدت بعض النساء قمن بحركات لا أخلاقية تجاهنا.

ظروف لا تشرف بتاتا فرنسا ولا تخدم مصالحها، ثم فتح خزينته وأطلعني على مجموعة من مراسلاته.

لقد مكنتني هذا الحديث المدعوم بالوثائق من عدة أمور كنت أجهلها.

أكد لي السيد ج. گرانديفال أنه لا يشك في حسن نية السيد إدغار فور، لكنه يتأسف لضعفه، فأجبت أنه وضعي رئيس الحكومة جد صعبة وذلك راجع لتعدد الأحزاب وانقساماتها الداخلية كلما تعلق الأمر بإفريقيا الشمالية وأيضا لهشاشة الأغلبية الحكومية ... فإذا عجل إدغار فور بالأمور فسوف يفقد الأغلبية وقد يستقيل بعض وزرائه مما قد يزيد الطين بلة. ورغم إدلائي بهذه الدلائل المنطقية، لم يتغير كما هو الشأن في مثل هذه الحالات، رأي المقيم العام.

وأظن أن تطبيق مخطط گرانديفال في الآجال المحددة من طرف صاحبه لن يغير أي شيء من تعاقب الأحداث، فمشروع مجلس العرش غير قابل للنجاح، ورجوع السلطان المظفر من مدغشقر لا مفر منه، وإن أجل من شئتبر إلى نونبر فلن يتم تهيئته بشكل أفضل...

معارضة باشا مراکش لإنشاء مجلس العرش

بعد وجبة الغذاء التي جمعت بالإقامة جنرالات المغرب والجزائر وتونس الذين حضروا مراسيم دفن الجنرال دوقال، أخبرني صديقي القديم والكبير الجنرال ماسبي دي بياست من شؤون الأهالي بالموقف الجديد الذي اتخذته الحاج التهامي لگلاوي باشا منطقة مراکش، وكان يعتقد - وهو على صواب - أن هذا الموقف يكتسي طابعا بالغ الخطورة.

لقد قال له الباشا بكامل الوضوح أن الخروج من معضلة تولي العرش تكمن وراء النقط الثلاث:

- الاحتفاظ بابين عرفة أصبح الآن أمرا جد صعب لتراكم الأخطاء التي ارتكبتها.

- إرجاع بن يوسف أمر من الحماقة التفكير فيه.

- تعيين سلطان ثالث يختاره العلماء وينضم إليه هو وأصدقاؤه التقليديين بصفة تلقائية.

لكن، وفي رأي الباشا، فإن مجلس العرش حل غير معقول ولا قابل للتطبيق في المغرب لأنه مناف للتقاليد وسيولد عنه لا محالة الرجوع

اللامشروط لسيدي محمد بن يوسف، وإذا أصرت الحكومة الفرنسية على إنشاء هذا المجلس، رغم تحذيراته فإنه سيكون مضطرا لاستخلاص العبر اللازمة وبالتالي إعادة النظر جذريا في موقفه.

إنه إنذار واضح: إذا تأسس مجلس حفظة العرش، فسيصرف الباشا دون اعتبار أي شيء ما عدا مصالحه الخاصة.

وسألت الجنرال ماسي دي بياست هل أخبر بذلك المقيم العام، فأجابني: «بالطبع أخبرته، لكن لا أعلم، هل يصدقني، أم لا؟ أم يظن أن الباشا يستعمل هذه الخدع ليضللنا»، فعاهدته أنني سأخبر رئيس الحكومة عند رجوعي إلى إيكس لبيان.

وخلال إقامتي القصيرة بالرباط، التقيت ببعض الأصدقاء، تناولت العشاء - سويا - مع الجنرال ميكال Miquel الخلف الموقت للجنرال دوقال، وحضرت وجبة غداء عند الجنرال ميلبي صحبة الكولونيل بوبير قائد subdivision للرباط كما تحدثت طويلا مع الكولونيل هوبير Hubert⁹¹ وطرحت عليه عدة أسئلة.

لقد أصبح هذا الضابط السامي من أبرز المساعدين للإقامة العامة ومن الذين يسمع لهم ويؤخذ رأيهم بعين الاعتبار، بعدما كان يعمل في إدارة شؤون الأهالي تحت رئاسة لوبلان مدير الداخلية والأمن. لقد كانت لقاءاتي متنوعة ومن آفاق مختلفة.

وكان من الواجب معرفة هل كان الوطنيون وراء أحداث خنيفرة وتادلة، فأغلب الفرنسيين أكنوا ذلك بحدة وعاتبوا السيد گرانديفال على انخداعه وإفراطه في الثقة.. وآخرون - وفي الواقع عددهم قليل - يدحضون هذا الاتهام ويقدرّون المجهودات التي قام بها قادة الوطنيّين للحفاظ على النظام بعدما طلب منهم المقيم العام ذلك.

أما الحقيقة، فإنها جد معقدة، إذ يبدو لي، بالفعل أن القادة الوطنيّين لم يرغبوا في الأحداث الدامية التي عرفتها البلاد، كما يظهر لي في أغلب الظن أنهم ارتكبوا خطأ فادحا عندما دفعوا القرى إلى تنظيم المظاهرات

⁹¹ - إن الجنرال ميلبي - المتقاعد آنيا - كان رئيسي في إدارة الشؤون السياسية قبل الحرب وإلى حدود بداية 1940. أما الكولونيل بوبير Beaupère فكان أحد مساعدي آنذاك.

ليؤكدوا للإقامة ولمصالحها أن القبائل لم تبق موالية لابن عرفة بعد تحرك بعض أعضاء حزب الاستقلال في المراكز القروية الصغيرة، وكان هؤلاء لا يعرفون جيدا ردود الفعل البدائية لسكانة تلك القبائل، وذلك راجع لكونهم كانوا في الحقيقة يعيشون بعيدا عنهم وعن واقعهم. وكانت النتيجة أن تجاوزتهم الأحداث، لكن لا أستبعد أن يكون بعض المتعصبين والمتمزمتين قد تدخلوا بدافع الشر من أجل الشر فقط.

لم تتجاوز الأحداث قادة الوطنيين في القرى فحسب، بل أصبح جليا يوما بعد يوم وفي المدن أيضا، أن جزء من التنظيم الإرهابي لا يخضع لمراقبتهم، ويتلقى الأوامر من الخارج عبر قنوات تنظيم سري. لقد انفجرت قبلة يوم 14 يوليو في باحة مقهى بالبيضاء مخلفة عدة قتلى وجرحى من بين الزبناء الأوربيين، وكان الهدف من وراء هذا الانفجار هو الحيلولة دون الوصول إلى أي اتفاق بين البلدين، وأيضا الدفع بالفرنسيين إلى الوقوف ضد سياسة السيد گرانفال وإلى استعمال العنف من أجل الانتقام الأعمى (وذلك ما وقع)، فالنتيجة المرغوب فيها في آخر المطاف هي توسيع الهوة بين الفرنسيين والمسلمين.

إن المسؤولين الحقيقيين عن هذه المجزرة يوجدون دون شك في القاهرة أو في مدريد وليس في الرباط أو البيضاء⁹².

لقد تناولت بالدرس، من جهة أخرى، صحيفة الكولونيل هوبير Hubert وذلك على خريطة حائطية حالة ووضع القبائل في كل جهات المغرب، وتبين أن الداء تمكن بشكل كبير من جسدي الأطلس المتوسط وتادلة، لكن هوبير كان متخوفا أيضا من بلاد بني ازناسن⁹³ ومن تازة التي كانت تغذي في السابق بؤر العصيان في جنوب هذه المدينة، كما كان يبدي بعض القلق تجاه بعض المناطق المضطهدة والتي تنتمي إلى المجال الشاسع والخاضع إلى نفوذ غلاوة، وكذلك الشأن بالنسبة للجزء الشمالي من الأطلس الصغير. وعكس ما كان منظرًا، منذ أمد طويل لم

⁹² - لم يكن الشيوعيون متورطون في هذه القضية وحينما أذكر الإسبان فلا أقول إنهم متورطون بل أعني أنهم لا يعرفون أي اهتمام لتحركات أعدائنا فرق ترابهم.

⁹³ - إن اليكايي ينحدر من هذه القبيلة التي توجد شمال وجدة، بين المنطقة الإسبانية والجزائر، لقد كان بنو يزناسن مضطربين على الدوام، إذ كل فرد من الوجهاء كان يطمح أن يصبح قائدا، وبما أن الأمر مستحيل، تعدد اللغاضبون، ولجأ العديد من ملكة بني ازناسن إلى المنطقة الإسبانية.

تتحرك القبائل المتواجدة على تخوم المنطقة الإسبانية، لقد عمها الهدوء، بينما كنا نخشى أن نستسلم لتأثير التنظيمات المناوئة لفرنسا والتي كانت تعمل هناك على مرأى ومسمع من جيراننا الإسبان.

وفي ظهيرة يوم الخميس 25 غشت، توجهت إلى الدار البيضاء ورافقتني حتى منتصف الطريق بين الرباط وهذه المدينة الكولونيل بانطلاكسي مدير دراسات شؤون الأهالي، فهذا الصديق الحميم كان على اطلاع بكل الأشياء وكذلك كان صهر (زوج ابنة) الفقيد الطبيب فابسيجيرر أحد أوائل الفرنسيين بمغرب ما قبل 1912.

وفي الدار البيضاء قمت بزيارة الجنرال فرانشي الذي تسلم قيادة هذه الجهة مؤخرا، كان عائدا من تالة بعدما قام بعملية تفتيش هناك، وقد زودني بمعلومات قيمة حول ما دار بهذه المنطقة. إن أحداث أبي الجعد وتادلة ووادي زم وآيت عمار من فعل قبائل الضواحي، أما القبائل المجاورة لخريكة، فلم تتحرك، إن عمال الفوسفاط أنفسهم الذين يتمتعون بعدة امتيازات اجتماعية، هم الذين قاموا بتخريب المعدات السطحية لهذه المؤسسة المهمة والتي هي في ملكية الدولة المغربية المستفيد الوحيد من أرباح الاستغلال!

رافقتني الجنرال فرانشي حتى الطائرة، وفي صبيحة اليوم الموالي، أي الجمعة 26 غشت، كنت في إيكس ليبان.

لم أجد هناك ما يدعو للارتياح، إذ كانت رحي الدساتم والتأمر تدور دون هواده، أخبرني الناطقون باسم الساكنة الفرنسية بالمغرب وأعضاء المخزن الشريف التابع لابن عرفة إنه لم يتم الإنصات إليهم إلا شكليا لدر الرماد في الأعين، كما زعموا أن الوطنيين وجدوا الأذان الصاغية لدى الحكماء، حيث كانوا يتباحثون معهم يوميا ولمدة طويلة. وتأكدت من صحة ما قيل لي، خلال هذه المحادثات التي جرت تارة مع ممثلي حزب الاستقلال وتارة أخرى مع ممثلي حزب الشورى والاستقلال، فقد تم تناول تشكيلة الحكومة المغربية المقبلة، وعلى الخصوص الأعضاء الذين سيكونون مجلس العرش، لقد حصر العدد في ثلاثة أعضاء وأصر الوطنيون على إقصاء هذا وذاك، لكي يُحفظ فقط بالذين يحظون بثقتهم التامة، أما المقيم العام لفرنسا بالمغرب، فقد غيب كليا ولم يعطاه حق الإدلاء برأيه.

وبهذا تكون الحكومة قد أقدمت على الحل الأقل نجاعة أي مجلس العرش، بالطبع، وقد أخبرت رئيس الحكومة بعد عودتي من الرباط بما صرح به الحاج التهامي الكلاوي للجنرال ماسبي بياست، فأثار هذا الخبر انتباه إدغار فور، لكن ربما قيل له إن الأمر يتعلق بالمنافسة الأخيرة للباشا أو محاولة يائسة لإفشال مخطط الحكومة الفرنسية. لكن لم يكن هذا التفسير، وحده كاف لإيقانه نهائيا على قراره الأول.

في الواقع، كان مجلس العرش يمثل بالنسبة له حلا وسطا، أو ذريعة مؤقتة تمكنه من ربح الوقت وتهذئة الوضع دون الحسم القاطع في المسألة، وبعيدا عن التسرع يتم إعداد الإجراءات لتسوية ترضي جميع الأطراف. كان يظن، من جهة أخرى، أن الرأي العام الفرنسي غير مستعد في الوقت الراهن لقبول رجوع السلطان السابق، فهذا الحل مستحيل لأنه قد يخلف تطاحنات خطيرة بين الفرنسيين مما يهدد وجود الحكومة، بمعنى أن هذا سيفتح المجال إلى أزمة سياسية حادة وخيمة العواقب.

وصمم إذن على التحلي بالصبر والثبات، ولي اليقين أن أنطوان بيناي Pinay، وزيره في الشؤون الداخلية كان متفقا معه تمام الاتفاق، وكذلك الشأن بالنسبة للسيد روجي دوشي، وهكذا كانت سياسته تحظى بكفالة أو رضى رؤساء فريق الأحرار.

أما خطأه الفادح، فهو كونه ظن أن مجلس العرش ذريعة ستوفر للحكومة الفرنسية متسعا من الوقت لتدارك الأمور. ولسوء الحظ، لم يكن هذا التوقع صائبا، لقد ظهر جليا أن التصور العام للرئيس يكمن في الحصول على رضى وموافقة حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال أي المجموعتين اللتين تمثلان رأي النخب المنحدرة من المدن سواء تعلق الأمر بالنخب التقليدية أو النخب المتطورة.

وباختصار، كان إدغار فور مترددا فيما يخص بدأ محادثات مع السلطان المنفي بمدغشقر وذلك بدافع قناعته الخاصة، ثم بدافع الحيطة والحذر، مع العلم أنه كان يقدره، فرفض بالتالي استغلال إمكانية الاتصال بالسلطان من خلال محاميه الأستاذ بول وايل بحكم علاقته به، مثله مثل السيد جورج بيدو الذي سبق وأن رفض ذلك لما كان وزيرا للشؤون الخارجية. فقد كان يرى أن محاورة الأحزاب السياسية أمر طبيعي ومسير للتقاليد الديمقراطية، وكان لا يخفي أنه سيتغلب عليها

بفضل تفتحته وواقعيته وليبراليته وحسن نيته. وعلى العموم شاطره السيدان انطوان بيناي وروبير شومان هذا الرأي، أما من جهتي، فلم تكن لي كامل الثقة في حسن نية حزب الاستقلال، لقد حصلت لدي القناعة منذ يوليو أن الوضع يستلزم اتخاذ حل يتسم بالجرأة، لذا كنت أفضل التفاهم السري والصريح مع السلطان المنفي، ها هو السي الفاطمي بن سليمان الرجل المتزن المتبصر يجد أن اللقاءات المخصصة لحزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال مبالغ فيها، ويضيف الرجل: « هذا يضايقني جدا نظرا لأنني مبدئيا مقبل على رئاسة الحكومة المغربية المكلفة بالمفاوضات، ستكون مهمتي جد صعبة حينما سأختار مساعدي ويواجهني البعض بالتزامات اتخذت في غيبيتي ودون علمي». وبالفعل، بدأ حزب الاستقلال ينتقد بشدة شخصية السي الفاطمي بن سليمان، إذ كان هذا الحزب يحتفظ - حسب ما قيل - بمرشحه المفضل حينها: السيد محمد بركاش.

وفي اللقاءات كانت كلما طرحت مسألة حرجة، طلب ممثلو حزبي الاستقلال والشورى والاستقلال ضرورة التشاور مع كاتبيهما العامين⁹⁴، وكان هاذان الشخصان يراقبان وقائع المؤتمر من الضفة السويسرية من بحيرة ليمان Lac Léman فكان عليهم إذن تلقي تكهن عراقيهما من سويسرا، مما كان يتطلب بعض الأجال، فما طبيعة التكهانات بالضبط؟ لا أحد يعلم. بهذا النهج كان محاورونا يتمكنون من التفكير والتشاور وبالتالي من التناور معنا، عندئذ فهمت ما نبهني إليه الجنرال لوكونت عند وصولي لإيكس لي بان حينما قال: "إن للعبة مفخخة هنا".

وهكذا انتهت هذه الفقرة من محادثات لاسافوا La Savoie بدون حسرة، فرجع رئيس الحكومة في آخر الأسبوع إلى باريس حيث ستتابع المحادثات لاحقا.

94- يتعلق الأمر بأحمد بلاغريج وزير الخارجية في حكومة البكاي الثانية ورئيس الحكومة فيما بعد ومحمد بن الحسن الوزاني بالنسبة لحزب الشورى والاستقلال.

الفصل الرابع عشر

عودة سيدي محمد إلى العرش

واسترجاع الاستقلال

(سبتمبر 1955 - نونبر 1955)

استقالة السيد گرانديفال وتعويضه بالجنرال دولاتور في الرباط

عاد السيد گرانديفال إلى باريس في 27 غشت بعد أن رفض سحب استقالته، فعوض بالجنرال بيار بوايي دولاتور دي مولان Pierre Boyer de Latour الذي شغل إلى ذلك الحين منصب المقيم العام لفرنسا بتونس بعدما تولى بالمغرب عدة مناصب ثانوية، وكان دولاتور قد برز بشكل ملفت للنظر خلال الحرب الأخيرة على رأس المجموعة الثانية للطواوير المغربية.

تسلم المقيم العام الجديد مهامه بالرباط ابتداء من 31 غشت، وتتلخص التعليمات التي حمل معه في ما يلي:

1- الحصول على التخلي الطوعي لابن عرفة عن الحكم دون أي مس بكرامته.

2- التهييء لمجلس حفظة العرش الذي سيضم الصدر الأعظم المقرري واليكاي الذي عين من قبل سيدي محمد وشخصية تقليدية حظيت بثقة الباشا الحاج التهامي الكلاوي.

3- وبعد ذلك يتم تشكيل حكومة مغربية واسعة التمثيلية وتضم العديد من أصدقاء المغرب.

مهمة الجنرال كاترو بمدغشقر

وبعد بضعة أيام، سافر الجنرال كاترو - وهو من حملة القلادة الشرفية الكبرى - إلى أنتسيريبي (مدغشقر) مصحوبا بالسيد يريسو، مدير ديوان السيد أنطوان بيناي وزير الشؤون الخارجية. ورغم

تحذيراتي، فسُح المجال أمام وفود الوطنيين أيضا لزيارة السلطان السابق والالتقاء به.

لقد كان لهؤلاء عميق التأثير على سيدي محمد لما رآه فيهم من حماس قوي وتصلب أكيد، الأمر الذي ساهم بعض الشيء في تصلب موقفه، ولم يكن هذا ليسهل بالطبع مهمة الجنرال كاترو، إلا أن الجنرال تمكن من الوصول إلى اتفاق مع سيدي محمد الذي كان يعرفه جيدا ويقدره إلى حد كبير، ففي 8 شتنبر بعث ببرقية إلى باريس مفادها أن سيدي محمد يقبل مخطط الحكومة الفرنسية، وأن شرطه الوحيد يتعلق بمجلس حفظة العرش، وإذا سمح بوجود للصدر الأعظم في هذا المجلس، فهو لا يقبل على الإطلاق أن يضم المجلس وصيا ثالثا يكون من أصدقاء الغلاوي مؤكدا أن الصدر الأعظم ذاته ليس محايدا بل يعد من أعدائه.

إن هذا الفيتو (الرفض) المعروف عند حزب الاستقلال والذي استغله هو أيضا، سيشكل حجر عثرة - لمدة شهر أو أكثر - في وجه هذا المشروع الذكي والهش في آن واحد والذي لم تتوصل إليه إلا بعد محادثات شاقة وطويلة دامت الصيف بأكمله. إن العثور على رجل محايد لا ينتمي لا للوطنيين ولا للتقليديين ليس بالأمر الهين، خصوصا وأن من الشروط اللازم توفرها فيه كذلك، التمتع بالجاه والتقدير دون التأثير بالسلب على العضوين الآخرين.

عاد الجنرال دي لاتور - وكان من بين مساعديه القبطان أوفير الذي أصبح بعد ذلك جنرالاً ثم وزيرا للداخلية - إلى باريس في 18 شتنبر لعرض الصعوبات التي واجهت القيام بمهمته، إذ بعد كل ما رآه وسمعه هناك أصبح مقتنعا بأن استمرار ابن عرفة في السلطة أمرا مستحيلا، لذا انهمك بإخلاص في إعداد وتشكيل مجلس حفظة العرش، لكن كل الاقتراحات التي تقدم بها فيما يخص الوصي الثالث لقيت الرفض من طرف حزب الاستقلال. وكما كان منتظرا أصبح هذا الحزب يعتبر نفسه، بعد لقائه مع السلطان السابق بأنتسيراوي، الحافظ والمؤتمن الوحيد على أفكار وآراء سيدي محمد بن يوسف.

رفض الجنرال الكتاني عضوية مجلس العرش

وفي يوم السبت 18 شتنبر اتصل بي الرئيس إدغار فور هاتفيا بمنزلي على الساعة الحادية عشرة ليلا وسألني هل أعرف الجنرال

الكتاني الذي كان يعمل بالقوات الفرنسية بألمانيا، وهل أكن له التقدير، وكان ردي إيجابيا بالنسبة للسؤالين، وعندها أخبرني أنه يفكر في اقتراحه شخصا ثالثا في مجلس حفلة العرش وكلفني بالاتصال به هاتفيا في نفس الليلة وإعطائه التعليمات للالتحاق بباريس صبيحة اليوم الموالي أي يوم الأحد 19 شتبر، وعليه إذا اقتضى الحال أن يأخذ الطائرة، طلبت من الضابط المكلف بالمداومة في وزارة الدفاع الوطني أن يقوم بالواجب ويتصل بالجنرال قائد القوات الفرنسية بألمانيا في بادن بادن Baden-Baden. وفي صباح اليوم الموالي - الأحد 19 شتبر - لما علمت أن الجنرال الكتاني لم يستطع مغادرة كوبلانس Coblenz لردائه أحوال الطقس يوادي الراين، التحقت باكرا بديوان الوزير، بـ 14 زقة سان دومينيك واتصلت هاتفيا بالمعني بالأمر. وقد عاهدني الكتاني بأنه سيمتقل الطائرة، عند أول انفراج في الحالة الجوية، ثم سألني عن سبب هذا الاستدعاء المفاجئ، فشرحت له ذلك في عجلة شديدة وباللغة العربية، فأجابني «في هذه الحالة، فإن مجيئي إلى باريس أمر لن يفيد في شيء، لأنني أرفض أن أكون ضمن مجلس حفلة العرش»، قلت له: «ومع ذلك، حاول القدوم إلى هنا وسوف أشرح لك كل المعطيات، حيث لا يمكن فعل ذلك عبر الهاتف، وحينما تتوفر لديك كل العناصر، فآنذاك يمكن التفكير وأخذ القرار الذي يمليه عليك ضميرك».

وصل الكتاني بعد الظهيرة إلى باريس واصطحبته إلى مقر رئاسة الحكومة، ولا داعي لذكر المجهودات التي بُذلت عدة أيام لإقناعه بقبول المنصب المعروض عليه كعضو ضمن مجلس العرش. لقد تدخل الجنرال دي لاتور زميله في الديوان العسكري لنوجيس، كما تدخل كل من السادة جيسكار ديستان وجاك دي هاميل وإيريسو وجولي وبير طوان وزير التربية الوطنية ورئيس الحكومة وشخصيات أخرى لكي يؤثروا عليه دون جدوى، فلجميع هؤلاء كان رد الكتاني أنه مجرد جندي، ولم يسبق له أن مارس السياسة وطوال حياته المهنية التزم كما التزم رجاله المنحدرين من شمال أفريقيا - وهو عميدهم - بعدم الاشتغال بالسياسة، ولهذا لا يمكنه الآن أن يغير رأيه واتجاهه دون أن يفقد تقديرهم واعتبارهم، وباختصار شديد، إنه اتخذ قرارا لا رجعة فيه. واستقبله

كذلك الجنرال نوجيس في منزله بزقة سان فرنان، لقد كان الكتاني من بين أعوانه الأوفياء - دون أن يززع قناعته الراضة⁹⁵.

ولم ينجح رئيس الجمهورية أكثر من سابقه، وبحضور، حاول مرة أخرى وأخيرة إيريسو والعمدة ميشيري Préfet Mechri التأثير عليه طيلة ليلة درامية قضيناها في وزارة الشؤون الخارجية بالمكتب الخاص للسيد أنطوان بيناي الذي كان قد ركب البحر⁹⁶، إذ بقاء اللقاء بالفشل.

لقد تبلورت لدي قناعة بأن الكتاني لن يرضخ لما طلب منه، فخلال هذه الأيام استنتجت من تصريحاته المتكئة، الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء موقفه، وفي الأخير كنت مضطرا أن أستعرضها على رئيس الحكومة ومساعديه.

في الحقيقة، رفض الكتاني ما عرض عليه - لأنه لم يكن مقتنعا بالمجلس المزمع إنشاؤه، قال لي من بين ما قال في 20 شتبر: «إذا قبلت فسأجد نفسي في الوضعية الآتية: إما سأعتنق الموقف الفرنسي وسوف أعتبر أنذاك خائنا في أعين مواطني، وإما سأنضم لطرح الوطنيين المغاربة وعندها مستهمنوني بعدم الإخلاص وعدم الوفاء، أريد أن أبقى نظيفا ونزيها في أعين المواطنين وفي أعينكم أيضا».

سألته: أي موقف فرنسي أنت تعني؟

- أعني ذلك الموقف الذي يتشبث باستحالة إعادة سيدي محمد بن يوسف إلى عرشه، لا يجب أن يكون هناك بديل، إن الأمر يتعلق بإرجاع السلطان إلى منصبه.

وباختصار، رفض الكتاني أن يتخذ موقفا معاديا للسلطان المنفي، حيث كان يظن أن رجوعه لا مفر منه وكان يحس في أعماقه أنه عاهله الشرعي الوحيد، لكنه كان لا يريد أيضا أن يفقد ثقتنا، ولا يسعنا إلا أن

⁹⁵ - لقد حكمت المحكمة العليا غليبا على نويس بالإعدام، ورجع من منفاه بالبرتغال لينفذ فيه الحكم ولكي يصل إلى باريس بسرعة وضع رئيس الحكومة طائرة تحت تصرفه، وفي بايون كان على الكتاني أن يلتقي بقاتله السابق على الساعة التاسعة ليلا السيد بيرطوان وأنا شخصيا فراقناه حتى باب بيت الجنرال نويس وانتظرناه بالشارع إلى أن عاد ومن هنا رافقنا للكتاني إلى قصر الإليزي حيث كان الرئيس روني في انتظاره
⁹⁶ - توجه السيد أنطوان بيناي إلى نيويورك لكي يحضر اجتماعا عالميا للأمم المتحدة كان سيتناول، بصفة غير مشروعة، المسألة الجزائرية.

نتفهم هذا الموقف ونحترمه. وفيما بعد علمت أن رداءة أحوال الطقس لم تكن السبب الحقيقي في تأخر الكتاني في القدوم إلى باريس يوم 19 شتنبر. في الواقع، لقد اتصل به مبعوث من مستوى عال بكويلونس وأمره بعدم قبوله العرض الذي سيطره عليه رئيس المحكمة.

الحالة المعنوية للضباط المغاربة

خلال محادثاتنا المتكررة، زودني الكتاني بمعلومات هامة ساعدتني على فهم الوضعية الذهنية لساكنة المدن المغربية ودخل أوساط الضباط المغاربة والبرجوازية. كنت أود أن أعرف على الخصوص، وبالضبط شعور الضباط المغاربة، وطرحيت عليه السؤال. فكان رده: «إنهم مخلصون وأوفياء، لكن مسألة العرش تشكل عند زملائنا أزمة ضمير حادة، فالسواد الأعظم من بينهم باقون على وفائهم لسيدي محمد بن يوسف، وفي الوقت ذاته يقومون بواجبهم المهني دون خلفيات». وقد عبر القبطان عبد القادر عن نفس الموقف أمام السيد غراندفال، عندما قام بزيارة لمدرسة الدار البيضاء العسكرية (بمكتاس) لتكوين الضباط في 26 يوليوز، وأضاف الكتاني شيئا مهما يقول: «لا يمكنكم أن تتصوروا كيف أصبحت حياة الضباط المغاربة وسط عائلاتهم، لقد صارت جحيما. إنهم يسمعون يوميا من أفواه زوجاتهم وأطفالهم، عندما يدور الحديث حول السلطان المنفي - أن خدام ابن عرفة خاتوا بلادهم ويستحقون القتل، دون أن يستطيعوا الإدلاء بأي جواب، إنها وضعية لا تطاق ! جعلتني أهني نفسي لكوني غير متزوج! ».

دور النساء المغربيات في الحركة الوطنية

إن التفكير والتأمل أثارا انتباهي، مرة أخرى، إلى أهمية الدور الذي لعبته المرأة المغربية في بلورة رأي عام متجاوب مع سيدي محمد بوثيرة تصاعديّة، إن تدخل العنصر النسوي في المجال السياسي شكل سابقة ذات أهمية قصوى.

كان السلطان نكيا، حينما أوصى منذ 1947، بتحرير المرأة المغربية تحريراً حذراً وفعلياً في نفس الوقت، وذلك على غرار ما قامت به العديد من دول الشرق المسلمة، لقد تلائم هذا الطرح مع تطلعات العنصر النسوي والشباب المتطور، وتميزت لالة عائشة بنت العاهل خلال زيارته الشهيرة لطنجة بالدفاع عن هذه الفكرة، إذ صدم حماسها مشاعر الأوساط المحافظة بينما ولد آمالا كبيرة عند أغلبية نساء

الحواضر اللواتي ضجرن من الحياة المملة والمرهقة التي يعرفها الحريم.

بعد 23 غشت 1953، أعلن الباشا الحاج التهامي الكلاوي والشريف السي عبد الحي الكتاني وأصدقاهم الرجوع إلى التقاليد الإسلامية الصحيحة "والابتعاد عن البدع المنافية للدين"، فكانت الخيبة كبيرة لدى النساء، وعند وصول ابن عرفة إلى العرش تبخرت كل الآمال. كيف يمكن تعويض سلطان شاب، أبيض البشرة، لطيف الملامح أنيق، يتوق إلى المستقبل، ملك يحب النساء إلى حد أنه يعيش يوميا مع زوجتين، ناهيك عن الجواري، بعجوز تميل بشرته إلى السواد، رجل مبتذل الخلقة ينشد حنين الماضي ويكتفي بزوجة شرعية واحدة؟ لم يكن لديه في الحقيقة ما يوحى بالأحلام ولا ما يغري مخيلة النساء...! منذ ذلك الحين كبرت هالة محمد بن يوسف، وازدادت عظمته بعد نفيه، وصارت النساء تمجده من أعماق قلوبهن، سرا، ثم بعد ذلك أصبح الثناء عليه والاحتفال به علنيا، فكان على الأزواج ضم أصواتهم إلى أصوات النساء عن طوعية أو على مضض... وإلا استعملت النساء وسائلهن الخاصة لكي ينصهر أزواجهن...

تابع الجنرال دو لاتور بالرباط جهوده لتطبيق مخطط الحكومة رغم الصعاب التي واجهته، وقد قبل السلطان ابن عرفة التخلي عن العرش بعد تردد طويل، إذ غير رأيه مرات عديدة. ففي فاتح أكتوبر، استعرض للمرة الأخيرة فرقة من الحرس جاءت لتقدم له التحية اللائقة بمقامه، وبعدها أقلته الطائرة إلى طنجة حيث اختار أن يستقر في البداية.

وكما كان منتظرا، فلم يكن ذهابه كافيا لتهنئة الأوضاع، لقد تواصل الخلاف حول اختيار العضو الثالث في مجلس حفظة العرش وهكذا بقي الفراغ، فلا سلطان ولا مجلس للعرش، وأخيرا عرفت ليلة فاتح أكتوبر إلى الثاني منه هجومات على مواقع بورد وبوزينب وتيزي أوسلي، وكلها على تخوم المنطقة الإسبانية، وقامت بهذه الهجومات عدة عصابات مدججة بالسلاح قائمة من هذه المنطقة، ولقيت بركين وإيموزار مرموشة، داخل ناحية تازة، نفس المصير، وهنا كذلك أتى أغلب المهاجمين من المنطقة الإسبانية وأكدوا أنهم ينتمون إلى ما سُمي بجيش التحرير المغربي الذي لم تتمكن من تحديد علاقته بحزب الاستقلال.

لقد أصبحت المسألة تتجاوز إطار العرش وتوليته، لتأخذ منحى معاديا لفرنسا بوضوح تام، إذ لم يعد البعض يكتفي بالاستقلال الملفوف بالإبقاء على علاقات الصداقة مع فرنسا، والحفاظ على مصالحها، بل نادوا بالاستقلال ضدًا على فرنسا وضدًا على مواطنيها وعلى مصالحها.

علمت فيما بعد، بنوع من الحزن، أن المستشار العسكري الأساسي لعصابات جيش التحرير الوطني، هو أحرسان القائد والضابط السابق الذي عمل تحت قيادتي بالفريق الأول للقناصين المغاربة، لم أصدّم لكون أحرسان أصبح وطنيا، بل أعاظني ترأسه لأناس يرمون بالنار جنودنا...

أجريت حوارات متكررة خلال شهر أكتوبر مع السيد الفاطمي بن سليمان والمسي أحمد الجنان وصديق قديم آخر هو مولاي الحسن بن ادريس العلوي، الناظر السابق للأحباس الكبرى لمكناس، وهو في الوقت ذاته، زوج أخت سيدي محمد بن يوسف المفضلة. سألني هذا الأخير، باحتشام، مرات متعددة عن إمكانية إرجاع السلطان المنفي إلى العرش، بعد عودته من مدغشقر، الشيء الذي أصبح الآن واردا أكثر مما مضى، فكان من واجبي احتراماً على الأقل لرئيس الحكومة أن أرد بأن هذا الأمر مستبعد جداً، وبما أن حكومة الجمهورية اتخذت موقفاً أمام البرلمان، فلا يمكنها إذن التراجع عن قرارها، أجبني مولاي الحسن «إن لكم الثقة في دوام مجلس حفظة العرش الذي لم يتشكل بعد؟ إنني كنت أظنكم أكثر نباهة». كنت في موقف يدعو إلى السخرية، حيث كنت مجبراً أن أدافع أمام المغاربة عن حل مستحيل وأن أظهار بمعارضة رجوع السلطان، وقد أصبح حلاً لا مفر منه ! وفي مساء ما، بعدما تناولنا العشاء في مطعم لاكسكاد في بوا دي بولون Bois de Boulogne، التحقت بنا زوجة مولاي الحسن وكانت الأميرة جد فرحة لأن أخاها سيأتي قريباً إلى فرنسا وسوف تستقبله بلاكوت دازور La Côte d'Azur.

ومرة أخرى، تناولت الغذاء صحبة البكاي والمسي أحمد الجنان والعيادي القائد السابق للرحامنة والعدو اللانوذ للحاج التهامي الغلاوي، خلال هذا الغذاء فاجأني فرنسي يستهزئ بالغلالي زاعماً أن هذا الأخير جمع ثروته، ليس بفضل ميزات كقائد، وإنما بعموله لحبك الدساتن، فأجبته بأنه مازال شاباً (صغيراً) ليتحدث عن موضوع كهذا

وأنتي شاهدت الباشا وهو يُقاتل من أجل فرنسا، فطلبت شهادة العيادي الذي أكد ما قلته عن عدوه «إنه رجل مقاتل، لا أحد يمكن أن ينكر ذلك»، لم يؤخذني أي أحد عن تدخله هذا، بل العكس.

تأسيس مجلس العرش، ومطالبة باشا مراكش بالعودة السريعة للسلطان المنفي

وفي آخر المطاف، تمكن الجنرال دو لاتور من تشكيل مجلس العرش في 15 أكتوبر، وضم هذا المجلس أربعة أعضاء - عوض ثلاثة كما كان مقررا في البداية - وهم: الصدر الأعظم المقرري، والبكاي، والسي الطاهر أو عسو من بني الهام Beni Alham، والباشا الصيحي من سلا والذي أقرح من طرف الوطنيين مقابل قبول الطاهر أو عسو.

وفي 17 أكتوبر، نُصب مجلس العرش قانونيا وكلف، هذا الأخير، السي الفاطمي بن سليمان بتشكيل الحكومة، وقد قبل رئيس حكومة فرنسا يوم 22 أكتوبر ما سارت عليه الأمور وقبول ذلك بارتياح كبير في الأوساط الحكومية بباريس، بينما رفض حزب الاستقلال الاعتراف بمجلس العرش والحكومة معا.

لكن التغيير المفاجئ والذي كنت أترقبه حدث في 25 أكتوبر حيث صرح الباشا الحاج التهامي الكلاوي علنا أنه هو كذلك يعارض مجلس حفظة العرش ولا يعترف بمشروعيته، ولا يرى أي مانع لرجوع سيدي محمد إلى عرشه وأعرب أيضا عن استعداده لطلب العفو منه ! وتكلف أحد أبنائه "السي عبد الصادق"، كبريري حقيقي كان يريد أن يؤمن المستقبل ولا يرفض العلاقات مع حزب الاستقلال، بربط الاتصال بين أبيه وأعدائه بالأمس، ونجح في ذلك رغم الصعاب.

وفي 28 أكتوبر، أعلن السي عبد الحي الكتاني عن مشاطرته رأي الكلاوي وأقيمت الصلاة باسم سيدي محمد بن يوسف في كل المساجد. وفي 30 أكتوبر أرسل ابن عرفة من طنجة إلى رئيس الجمهورية رسالة يصرح فيها أنه يتخلى عن حقوقه، وحث كذلك المغاربة على الالتفاف حول السلطان السابق. في 2 نونبر قدم أعضاء مجلس العرش استقالتهم إلى سيدي محمد الذي كان قد وصل إلى فرنسا قبل يومين، وهكذا لم يتجاوز عمر مجلس العرش الذي تصوره الأستاذ جورج إيزار سوى ثمانية عشر يوما. لقد كان الإخفاق يظهر جليا، ولم يصمد إذن البنين الذي كلف تشييده شهورا طويلا من المفاوضات الصعبة والشاقة.

لا يسعنا الآن إلا أن نقبل بسرعة إرجاع سيدي محمد إلى عرشه والرضوخ للأمر الواقع والتفاوض معه. إن مهمة التفاوض موكولة للسيد أنطوان بيناي، وزير الشؤون الخارجية، والذي ألحقت الشؤون المغربية - التونسية بوزارته منذ إنشاء مجلس العرش، وإن المسألة تطرح في أسوء الظروف بعدما ذقنا طعم الإخفاق الذي قلل من قيمتنا في أعين خصومنا وجعلنا لقمة سائغة في أفواههم.

واجه الوزير مهمته الصعبة بكل شجاعة، ومن حسن الحظ ساعدته على ذلك محادثات إيكس ليبان، لقد دخل إلى المفاوضات مع السلطان السابق دون أفكار مسبقة، وبناء على تجربته فضل التفاوض المباشر دون أي وسيط. إنها طريقة معقولة وصائبة، لقد كلف سابقا من قبل الحكومة بمرافقة سيدي محمد حتى مغادرة التراب الوطني عندما قام هذا الأخير بزيارته الرسمية لباريس في أكتوبر 1950، وفي تلك المناسبة كان قد رأى فيه شخصا قانرا على التفاوض، ولا يستبعد أن السيد بيناي قد فكر في الموضوع، بعدما أجرى محادثات مع مغربيين - لهما ثقافة فرنسية - وهما السيدين عبد الرحيم بوعبيد من حزب الاستقلال ومحمد الشرقاوي من حزب الشورى والاستقلال، ويبدو أنه كان لهما تأثير حاسم على تحديد رأيه.

تصريح لاسيل سان كلو (6 نونبر) وحصول المغرب على استقلاله الكامل دون شروط

نشرت الصحافة منذ 6 نونبر 1955 التصريح المشترك لوزير الشؤون الخارجية وسلطان المغرب على إثر انتهاء المحادثات التي جرت بينهما في قصر لاسيل سان كلو، وفيما يلي نص التصريح:

«لقد جرى اجتماع بين جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف والرئيس أنطوان بيناي وزير الخارجية في 6 نونبر بقصر لاسيل سان كلو.

عرض الرئيس بيناي المبادئ العامة لسياسة الحكومة الفرنسية والتي صودق عليها من خلال البلاغ الصادر عن مجلس الوزراء في 5 نونبر.

وأكد جلالة السلطان موافقته على هذه المبادئ. وفي انتظار عونه إلى الرباط، وبتفاق مع الحكومة الفرنسية كلف مجلس العرش الذي

أنشئ في 17 أكتوبر 1955 واستقال من مهامه في 3 نونبر 1955 أن يستمر في تدبير شؤون المملكة.

لقد أكد جلالة سلطان المغرب عزمه على تشكيل حكومة مغربية للتسيير والتفاوض، تمثل فيها مختلف تيارات الرأي العام المغربي.

إن المهمة الأساسية لهذه الحكومة هي الانتكباب على إعداد الإصلاحات المؤسساتية التي ستجعل من المغرب دولة ديمقراطية وملكية دستورية، وكذلك السهر إلى جانب فرنسا على المفاوضات التي ستقود البلد إلى الاستقلال وإلى اتفاقات مع فرنسا تضمن علاقات مستديمة في إطار المصالح المشتركة التي سيحددها ويوافق عليها عن طواعية.

لقد أكد جلالة سلطان المغرب والرئيس بيناي اتفاقهما على أن فرنسا والمغرب سيبنيان معا - دون تدخل الغير - مستقبلهما المشترك. وسيضمنان حقوقهما وحقوق مواطنيهما وذلك مع احترام الوضع الناتج عن المعاهدات المبرمة مع القوات الأجنبية».

وكان هذا تصريح بالأنوايا ليس إلا، إذ المغرب يُرحب بكل شيء وفي المقابل لا يقدم إلا الوعود بالتفاوض نظرا لظروفه آنذاك، ففي تلك اللحظة كانت الجزائر - غير آمنة على حدوده الشرقية وكذلك الشأن بالنسبة للجناح الغربي - مما يتحکم في مصيره المستقبلي.

وفي كل الأحوال، لقد تجنبنا الحل الأسوأ، وأعني بذلك القطيعة، ويبقى الباب مفتوحا على مصراعيه لعلاقات أفضل، أي التعاون الذي اختير دون قيد أو شرط، إذ كانت الفقرة التي تؤكد أن فرنسا والمغرب «سبينيان مستقبلهما المشترك معا دون تدخل الغير» أحسن عربون للمستقبل. لقد وجه هذا الكلام بالفعل إلى الولايات المتحدة والجامعة العربية دون ذكر اسميهما، حيث أن تخلفاتها المتكررة والاضغوطات اللامتناهية من قبلهما هي التي عصفت بالعلاقات الفرنسية - المغربية.

وفي 11 نونبر 1955، غادر الجنرال دي لا تور المغرب بعدما قدم استقالته، وعوض بعميد الشرطة السيد أندري دي بوا الذي عين كسفير نظرا للظروف السائدة حينها.

وقبل الختام، فإن بعض الملاحظات تطرح نفسها بالإلحاح، ويتعلق الأمر بسياستنا بالمغرب والتي اتسمت على الدوام بعدم الاستقرار

لدرجة الجنون. ومن عواقب ذلك أن فرنسا لم تستطع مراقبة الأحداث التي كان من المفروض أن تقودها وتتحكم فيها.

فما بين الفترة المتراوحة بين مارس 1912 وأواخر سنة 1955، أي على امتداد 43 سنة، تعاقب على تسيير الأمور بالرباط ما يعادل 14 مقيما عاما، علما أن 12 من بينهم عينوا ما بين 1927، تاريخ مجيء سيدي محمد إلى مدة الحكم و1955 تاريخ عودته إلى العرش، ثلاثة مقيمين من بين هؤلاء، وهم السادة لاكوسط وكراندفال والجنرال دي لاتور، زاولوا مهامهم بينما كان السلطان منفيًا بمدغشقر (1953 - 1955) لكن خلال 26 سنة (1927 - 1953) من الحكم الفعلي تعرف العاهل شخصيا على 10 مقيمين عامين. إنه عدد هائل، خصوصا إذا تذكرنا أن المارشال ليوطي بقي يزاول مهامه لمدة 13 سنة، وأن الجنرال نوجيس تولى زمام الأمور خلال 7 سنوات مما يقلص بشكل من الأشكال معدل المدة أو الفترة التي قضاها باقي المقيمين. أليس ذلك أقصى درجة العبث؟ ألم يكن لهذا تأثير كبير في انهزامنا النهائي؟ وبالطبع فالجواب إيجابي دون شك.

كان المقيمون العاملون بالمغرب، على اختلاف مشاربهم واختلاف أمزجتهم وتكوينهم، يقررون الواجب والمسؤولية، ولقد كان لدى بعضهم نقص في جانب المعرفة الدقيقة بالوسط المغربي وجانب الإلمام بالتيارات الفكرية الكبرى التي تخترق العالم، أما عامل الزمن - كما رأينا ذلك - فلقد عانى منه جلهم، فهل بإمكاننا الجزم بأن الجنرال نوجيس كان سينجح - في عمله - لو أنه كان لا يعرف أرض المغرب ولو لم يقضي به سوى سنتين أو ثلاثة؟ أكيد أن الجواب هو لا.

لو رسمت في باريس خطة محكمة وواقعية، وبالتالي توجيه أفضل ومساندة فعلية لسياسة المقيمين العاملين واستمرارية أكبر في العمل، لساهمت في توفير مناخ تسوده الثقة والتفاهم. وبدون هاذين العاملين يستحيل النجاح القار في بلد مسلم حيث يبقى مشكل الإنسان والعامل الشخصي أمر يكتسي أهمية قصوى.

لقد عانى إذن نشاط فرنسا بالمغرب من عدم استقرار الحياة السياسية الفرنسية، فبين الاستقرار التام، الذي يؤدي لا محالة إلى (الغرور) الرضا عن النفس والروتينية، ثم التناقص والتقهقر، وبين التغيير السريع الذي يقتل استمرارية الفكر والعمل والإنجاز، كما عانى

من غياب نقطة التوازن - الغالية على ليوطي وتلميذه بيير فيينو - والتي يصعب إيجادها بالنسبة لبلد متحول مثل بلدنا. وإذا تمكنا من ذلك لبعض الوقت، فهذا لم يدم، لأن نقطة التوازن تكون نتيجة موازين قوى مؤقتة ومتحولة بالأساس، وبالتالي فهي تنسم بالهشاشة، فنقطة التوازن هذه تقتضي التصحيح على الدوام وإلا فالسقوط هو المآل. أما الجمود أو انعدام الحركة فهو قاتل كذلك، ذلك هو الدرس الذي يمكن استخلاصه من قراءة ذلك الماضي القريب.

يجب أيضا التمييز بين مرحلتين اثنتين في التاريخ القصير للحماية الفرنسية بالمغرب: مرحلة ما قبل مؤتمر أنفا (يناير 1944) والمرحلة التي تلتها.

ففي المرحلة الأولى كان الحوار الفرنسي - المغربي يمر عموما في ظروف حسنة، لم يعكر صفوها سوى وقوع اصطدامات صغيرة وشائآت بسيطة وأحيانا نزاعات خفيفة، بين الفينة والأخرى كما يحدث ذلك في الحياة المشتركة.

فذهاب مقيم عام وإحلال آخر محله كان كافيا لتسوية الأوضاع، وبعد تدخل طرف ثالث قوي، وهو الولايات المتحدة، أصبح الحوار مستحيلا مهما كانت قيمة المقيمين العامين، إذ عشنا ذلك مع إيريك لابون رغم أنه كان يتمتع بعطف ورعاية السلطان، لقد حل الشك محل الثقة ولاحت مؤشرات الانشقاق والبين في الأفق، ونُطق بالكلمة الصاعقة، "الاستقلال" وتبناء السلطان.

جاء تغيير المقيم العام والإعلان عن إصلاحات - مُنحت، أكثر مما نوقشت بين الطرفين - لتهدة الوضع فقط. ولم يبق الآن إلا اتخاذ موقف واضح فيما يخص عمق المشكل، ألا وهو إلغاء معاهدة 1912، وبمعنى آخر الاستقلال وتغيير طبيعة العلاقات بين فرنسا والمغرب بعلاقات جديدة.

لقد كان من الأفضل بالطبع، التحسب لما هو حتمي ولا مفر منه والسبق إليه، كما كان يقترح ذلك طاليران Talleyrand والاحتفاظ بالمبادرة في العمليات، كما كان ليوطي يريد ذلك، وبالتالي، كان علينا التفاوض مع السلطان وحده حول المراحل والكيفية والشروط التي ستنتهي فيها هذه الكارثة حتى تتم الأمور في نظام أخوي وجو يحفظ كرامة الطرفين.

أما على المستوى السياسي، فمن الصعب أو من المستحيل على أي حكومة من حكومات - الجمهورية الرابعة - أن تقوم بهذه المهمة الشائكة والدقيقة، على أكمل وجه.

يجب أن نعترف أيضا أن وجود آلاف العائلات من المعمرين الفرنسيين على التراب المغربي لن يزيد الأمر إلا تعقيدا.. إن هؤلاء زرعوا الأرض بحب ونجحوا في ذلك مما جعلهم يتعلقون - كسائر فلاحي العالم - بتلك الأرض التي استصلحوها وجعلوا منها أرضا معطاء بفضل عملهم الشاق والدؤوب.. فكان الجلاء بالفعل أكل صعوبة حينما تعلق الأمر بمناطق خالية من المعمرين الزراعيين، لقد كانت الأحداث إذن هي التي قادت نحو الاستقلال وليس رغبتنا نحن. لقد ارتكبنا أخطاء عديدة، مثلما هو الشأن بالنسبة للسلطان والوطنيين أيضا، لكن الولايات المتحدة الأمريكية تتحمل القسط الأكبر من المسؤولية فيما يتعلق بالتعجيل العشوائي الذي عرفته عملية إجلاء الاستعمار. لقد شجع الأمريكيون على استقلال المغرب بشكل واضح أثناء الحرب الكونية الأخيرة وبعدها، فبسببهم أصبح كل حوار مستحيل مع المغرب، في الوقت الذي كان التفاهم بين القوى الغربية قد يسمح بتحديد برنامج متناسق ومتكامل يخول للبلد تحريرا شاملا عن طريق نقل وتسليم السلطات والياتها بالتدريج.

لم تكن فرنسا وحدها ضحية هذا النهج، بل عانى منه كثيرا المغرب أيضا، فكان على السلطان محمد الخامس أن يتسلح عند رجوعه إلى العرش بكل قواه وحكته ليتغلب على الفوضى الكامنة تحت الرماد ويمسك بزمام الأمور ويعين إدارة مغربية جديدة ويحكم البلاد. ولقد تمكن كذلك من تحمل المسؤوليات الجسيمة بفضل هالته التي ما فتئت تنقوى نتيجة نفيه.

وفي آخر المطاف، فلن نخجل من تجربة الحماية الفرنسية بالمغرب، فمن هي الأمم التي يمكنها أن تعترف وتفتخر بمثل ما حققناه نحن - اعتمادا على دمائها وأموالها - وهو وحدة المملكة الشريفة التي كانت تعاني من الانقسامات والفوضى؟ من هي الأمم التي وفرت - دون مقابل - لبلاد فقير يفتقر إلى البنى التحتية ما وفرناه للمغرب في ظرف وجيز، وذلك رغم التكاليف الباهضة التي أثقلت كاهلنا والناجمة عن حربين قاسيتين في ظرف ثلاثين سنة، ولا يمكن، كذلك، أن ننكر أن

تجهيز المغرب أنجز على حساب عصرنة الاقتصاد الفرنسي، فكان من الأسباب التي أدت إلى نكسة يونيو 1940.

وعلى رأس هذا الشهادة نذكر بنص الخطاب الذي سبق أن أدرجناه والذي ألقاه سيدي محمد بن يوسف سنة 1931 ببافيس بحضور ليوطي، فقد قام السلطان بمقارنة وجهية بين مغرب ما قبل 1912 والحالة التي أصبح عليها سنة 1931، أي في أقل من عشرين سنة، فهذا الثناء على الإنجازات يظهر لنا رغم بساطته دليلا قاطعا ومقتعا أكثر من أي مرافعة مطولة مليئة بالحقائق والأرقام.

بل أكثر من ذلك، كان الأجانب - بمن فيهم الأمريكيون عندما لم تكن لديهم خلفيات سياسية واقتصادية - يقدرون باستمرار الإنجازات الفرنسية التي أصبحت واقعا ملموسا على أرض المغرب والتي تبقى مرسومة في قلوب السواد الأعظم من الرجال على اختلاف آرائهم، حتى ولو أن السياسة تضطربهم إلى نفي هذه المنجزات أو التقليل من شأنها.

هذا ما يعرفه عدد هائل من المغاربة، كما بدأوا الآن يقرون به ويقولونه، فهذا رجل من حاشية السلطان الراحل يقول مؤخرا لأحد أصنافي: «أه! عليه من بلد رائع تركتموه لنا ..» أما الشعب الذي لم يكن أبدا معاد لنا في الحقيقة، فإنه يحتفظ لنا بذكرات حسنة حتى في المدن، الأمر الذي كان يستحيل تصوره قبيل سنوات قليلة. نرى أن هنا جدور عميقة ستنبثق عنها عروش متينة تنتج ثمرة العلاقات الفرنسية - المغربية الجديدة. كشعب قوي، علينا إذن أن لا نياس وأن نبقي متفائلين بالمستقبل متحليين بالتفاهم والشعور الأخوي وخدمة الآخر، وفي كل الأحوال، لننتظر بثقة وصدر رحب حكم التاريخ.

نشر هذا الكتاب بدعم من :

وزارة الثقافة





جورج سبيلمان

1980 - 1899

تميز الأرشيف الكولونيالي الفرنسي
حول المغرب بإنتاجه الفكري الغزير
وبتنوع المؤسسات التي كانت وراء
ذلك الإنتاج من استشراف وإثنولوجيا
وسوسيولوجيا وجغرافية وتاريخ ...
كان لضباط الشؤون الأهلية فيها
نوعا من اليد الطولى بحكم مكانتهم
كأفضل مزود بالمعلومات وأهم
متتبع لأثر السياسة الأهلية في
الأوساط المستهدفة. ويعتبر جورج
سبيلمان، الذي ارتبط اسمه بنظام
الحماية مدة خمس وثلاثين سنة
(1920-1955)، أحد عناصر مدرسة
لبوطي للشؤون الأهلية، التي يعتبر
جاك بيرك وروبير مونطاني وروجي
لوطورنو من أبرز رموزها.

جورج سييلمان

المغرب

من الحماية إلى الاستقلال
1956 - 1912

فمن هذا الباب، ونظرا لأن اسمي (جورج سييلمان) اقترن بنظام الحماية اقترانا قويا، خلال الفترة المتراوحة ما بين 1920 و 1955 ونظرا، كذلك، لمعرفتي الدقيقة بكل المقيمين العامين لفرنسا بالرباط، ونظرا لقربي ولعلاقتي بالأوساط المغربية، سواء منها القريبة من القصر أو من البرجوازية أو من الوطنيين البارزين، حاولت سرد كل ما أعرفه عن هذه الحقبة الحاسمة، آخذا بعين الاعتبار وجهة نظر كل الأطراف. وبما أن موعد كتابة تاريخ الحماية الفرنسية لم يحن بعد، أردت أن أدلي بمجرد شهادة، لأفيد وأقارن وأشرح الوقائع التي عاينتها مباشرة.

من أرشيف الإقامة العامة؛

محمد الخامس، عندما كان في الثامنة من عمره، مع أخيه مولاي إدريس، رفقة المارشال ليوتي . يوم 6 يوليوز 1917، ويظهر محمد المقرري و قدور بغبريط.

مصلحة الطباعة



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 613 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com